**نازك ضمرة**

**رجـــالٌ في حَياتِها**

**(رواية)**

**عمان 2020**

• رجالٌ في حياتها (رواية)

• التصنيف: رواية(....ر....)

• نازك خالد ضمرة

• الطّبعة الأولى 2020

• رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة:

(..... / .... / .....)

• يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه، ولا يعبِّر هذا المصنف عن رأي المكتبة الوطنيّة، أو أي جهـة حكوميـة أخـرى.

• جميــع الحقـوق محفوظــة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلـه، واستنساخـه بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من معد المعجم.

كلما وقعت في مصيدة،

اقسمت أنني سآخذ حقي بيدي.

\*\*\*

شخوص الرواية، وأفعالهم وأقوالهم من وحي الخيال، ولا أعرف أي شخص ورد اسمه فيها، وإن صدف وحصل تطابق لأي من أسمائها مع أي شخص في الواقع، فإن ذلك مجرد صدفة .

\*\*\*

**مدخل**

إسمي سمحة، ووالدتي اسمها فتوحة، أنا أمية تقريبا، لا أقرأ جيدا ولا أكتب، حكايتي طويلة، وقد تقارب ليالي شهرزاد، مثيرة ومؤثرة، والحكم لك أيها القارئ، سأحاول أن أكون امينة مع نفسي ومع الحقيقة، وسأروي بعض ما أتذكره، مما يمكن البوح به، وبتفاصيل أحياناً، لكن قد اضطر للسكوت في بعض المواقف والمقاطع، حتى يقدر القارئ بقية الموقف.

وبما أننا بشر، فلن أكون قادرة على التذكر التام أو البوح الصريح بتفاصيل بعض أحداث الحياة التي مرت بي، لكن المهتم والذكي سيلمس الصدق بنفسه، ويستشعر الكثير من المسكوت عنه، وسيتنبأ بما وراء الأحداث عبر كل تلك السنين الطويلة التي عشتها، والتي لم تتوقف بعد، أيام طويلة ومظاهر تختلف كثيرا او قليلا في جوهرها عما يظهر للعيان، خاصة وأنني أعيش بين أقارب وجيران ومجتمع يراني كل يوم، إنني واع جداً لمحاولات كل من هم حولي، وهم يحاولون أني عرفوا كل أو بعض ما أقوم به، ويثيرهم كيف أتمكن من العيش بشكل مريح نوعا ما.

وفي الوقت نفسه فإن النزيه العادل سيدرك عمق المآسي التي رافقت حياتي، والشعور بالذنب الذي لازمني طوال عمري مع مشاعر الندم، ولما وجدت أنني أقترب من نهايتي، آليت على نفسي أن أظل متمسكة بكل الأسرار التي مررت بها، ولعل إمرأة أخرى تستفيد من سيرتي، ولأنني وجدت انسانا أميناً ينقل ما يصلح للنشر عن حياتي، على أمل أن يكون مخلصا ولبقا وفنانا ليصوغ الحكاية، بذكاء وخبرة لا تؤذي أحداً، فإنني أعترف أنه استطاع أن يدخل هذا القلب بإخلاصه، ولما لمست فيه من أمانة، ليفك الأقفال عن خزائن معالمي التي سترها الله، عاملة على تخطي الصعوبات الكبرى، بالإضافة إلى متاعب الشيخوخة، وظهور بعض الأمراض التي تضعف قواي، الأمر الذي أضاف الكثير لمعاناتي اليومية بعد العقود الطويلة.

لي رجاء خاص ايها القارئ العزيز، أن لا تقسو في حكمك، ولا تتهمني جزافا، وكل ما أرجوه أن تنصب نفسك قاضياً عادلا، يحاكم الناس والزمن الذين اضطروني لأي فعل أو قول لا يروق لك، وما زال أهلي وأفراد مجتمعي والمسئولين عن أمثالي، سواء كانوا رسميين أوعابرين أومتطوعين أو حتى محسنين، هم نسيج المجتمع الذي وجدنا أنفسنا نحيا فيه، فمنهم: مسببون لمشاكلي، ومنهم: مدربون متهمون، وبعضهم: عابرون أو غافلون مستهترون، وكثيرون: صالحون مصلحون ومحسنون.

أمور كثيرة ستتكشف لك وأنت تقرأ ملامح من سيرتي، ولا بد أن أنوه هنا أن التلفاز والاحتكاك بالناس، عوضاني الكثير مما فاتني من علم ومعرفة للتداخل والتمازج مع دهاليز الحياة وأسرارها، أوتيت الكثير من المعرفة والقدرة على الخروج سالمة وغانمة، علما بأنني لن أتدخل في طريقة عرضه لحياتي، فما دام انني وثقت به، فليقدم وليؤخر ويرتب ما سمع مني عن سيرتي.

**سمحة أم مسامح بنت حمشان**

**صــرعة**

اختلفت نظرته لي، لاحظت أنه يركز نظرات عينيه على وجهي، وكلما حظي بكشف أي ستر، شهق مندهشا وهو يتأمل جسدي، كنت خجلى ومضطربة، وقعت عيناي على نظراته صدفة، عيناه مفتوحتان في دهشة، زاد ذهولي، لا أعرف ماذا اقول، ولا ماذا أفعل، ولا كيف اتحرك، بدا وكأنه لم ير شيئا من جمال العالم ومناظر زهوره من قبل.

هكذا تصورت حالته وقتها، امتدت يده لاطفاء المصباح القوي، فغمر المكان جو كاب أزرق، شجعني ذلك بإحساس الاقتراب منه، خدرني بنظراته وأثارني، لكنني أحسست بصدمة وانجماد نوعا ما، لا أدري أأجلس على الأرض ام على الكرسي ام على طرف السرير، او اظل واقفة، أحسست ان النور الأزرق الضعيف، أصبح علاجاً شاف للنفس الحيية.

الظلام ستار يمدنا ببعض قوة، فيه نستنشق الهواء دون خجل ولا قلق، بل بشكل طبيعي، كالهواء الرائق النقي، خير منعش للنفس، به نقوى على الصمود، اكتشفت بعدها أن حولنا ضوءا ناعما هادئا خجولا، نتمكن عبره أن نرى جماليات ما خلق الله، ونلمس ما في الحياة من جمال، وخاصة تصاوير الأزهار وبساط الأرض الاخضر. أحسست أن تراسلا تم بين عقلينا، وربما تمازجت افكاره وحيرتي، استفاق فجأة ليسندني، ويطوق عنقي واضعا يده فوق كتفي الإثنين.

وجدتها فرصة لأغرق في بحر غامض عميق، أغمضت عيني، ووجدتني أتنفس براحة، تحملني ريح دافئة هادئة، تريحني فوق غيمة زاحفة، تزين سماء زرقاء لكنها بطيئة الحراك، أرخيت نفسي مطواعة، امتدت يد وجذبتني، مع ضغط رفيق، وقربني حتى جلست على ركبتيه، ثم في حضنه وهو جالس على طرف السرير.

وكلما حل عقدة من كياني، ازددت انكماشاً وارتباكا، تهدأ أنفاسي، كنت أغرق في بحره اللجي.. لكنه بحر هادئ الموج، بدأ المركب الشراعي إبحاره، وكلما أسرع في تجديفه، كلما أحسست باغترابي، أبتعد عن عالم المعرفة، أحسّ بأنني بين الغوص في لجة البحر، وبين الإحساس بالغرق.

لكن تيارات دافئة تتسرب في جوف البحر، خلجات التيار اصابتني، سمعت صراخاً من حورية بحرية، حاولت النظر وتأمل جو البحر، فالتمع الضوء الأزرق في عيني، يزداد إشراقا ذلك الضوء الذي كان كابياً، وبلا إرادة، نعم كنت أصرخ طلبا للنجدة، حتى لا أغرق، والبحر يطوقني، وأنا أغرق، خوفاً وربما لعدم الخبرة، أذ لم اتعود ركب البحر، ولا عرفت فن البحر والإبحار، لا أعرف لماذا أصرخ، كنت وقتها أغرق في تيار غامر دافئ عميق، يضخ الارتياح المتسرب عبر روحي، وكأنني أخبو وأتراخى مع انسياب خيوط ذلك الدفء العميق.

لم أحد رغبة في النوم ليلتها، لعلمي ان ربيعي قد حان وقته، تذكرت الكثير مما مرّ بي في طفولتي، وشعرت بأن العمر رحلة قصيرة مهما طالت، فوجدت أنني بين الندم وبين الاسترخاء، لكن الظرف كان طارئا، ولا دوام له، فجأة غلبني الندم والشعور بالضعف، ووجدتني أغرق في سيول من دموع لا أستطيع إيقافها.

اصيب صاحبي بحرج، وشعر هو الآخر بأنه أخطأ في موقع او كلمة ما، فصار يتوسل لي بأن أفصح عما ألمّ بي، وما سبب بكائي الصامت، ودموعي المنهمرة بلا توقف، تجلت لعقلي قدرة الله، وآمنت أنني في حمايته، وتجلت لي أهداف الحياة النظيفة والسوية، وأحالتني إلى جثة هامدة ينخرها سوس البلى والعفن، لكن عظمة الله تعدل وتصلح كل شذوذ، فزاد انكماشي، إصراره وتدليله لي بدأ يعيد لي طاقة على الصمود، والتفكير بما يلزمني كعضو فاعل في أسرة كبيرة، تكافح لحياة تشابه حياة الناس الآخرين الطبيعية.

وجدتني ألملم أفكاري وكل مفاصلي، لأقف شبه مذعورة اتوق للحرية والمساواة، في مجتمع ظالم تسوده الأنانية والسلبيات المتكررة، تأملت أفكاري اليائسة، وجذبتني مشاعر عرفت منها ما ينقصني اليوم، وما يعذبني حتى ويزعجني، فآليت على نفسي إلا أن اتقمص شخصية المرأة :الإنسانة الطبيعية، لأعيش بقية هذا العمر، في ترحال طويل الأمد، حتى ولو بسنن مفروضة، لكنني وجدت أنني ما زلت أحمل مشاعر راسخة، بأن فصول الشتاء تتبعها دائما فصول الربيع والإزهار والنسيم العليل، فيها ترتاح القلوب، وتخمد الآهات، لكن وجودي في مكان ذلك الإنسان يومها، جعلني أعرف أن بعص الناس لهم قدرة عجيبة على التأثير، حتى يصلوا إلى بؤر السيطرة، والاستيطان في العقل والتماهى مع نبض القلب.

عرفت وقتها أن اصطياد اي امرأة كمن يقطف زهرة عن نبتتها تماماً، فقد يشمها وينسى امرها، او يضعها في مزهرية يعتني بها ردحا محدودا من الزمن، او كزهرة أثرية تجفّ فيخزنها في زاوية ما في بيت او صندوق مظلم او بإنارة، وفي المقابل يتبادر إلى ذهني دور المرأة، التي قد تشعر بأهميتها او بسعادتها بذلك الاهتمام، ومرت بي لحظات أحسست فيها بغرور او اولوية على امثالي من النساء.

والمشكلة الصادمة حين عرفت أن اهتمامه بي سيتناقص او يتوقف يوما ما، او أن علي مغادرة ذلك العرش، بعد صحوي من نوبة تخدير او سكر سوف تنتهي، فلا خيار امامي إلا العودة لعالمي المألوف بين أهلي وناسي، الذين وثقوا بي، ومع كل هذا التشويش، وفي هذه اللحظات أحس بثقة في النفس، وأشكر الله ان منحني هذه المرونة والصلابة، كي أتحور وأتطور لأظل نافعة لنفسي وأهلي واسرتي، وأهم ما يقلقني أطفالي الذين أريد لهم حياة جيدة كي لا يمروا بما مرّ بي من جهالات وإهمال وابتلاءات.

وبينما كنت أهم بمغادرة ذلك الإنسان والمكان، أحسست أنني عاشقة له ولا أود أن أبرحه، أنظر للخارج كوالدتي حين كانت تصحو مبكرة في يوم شتوي، فتفتح باب البيت، وتتلفظ الشهادة، وتقول بعدها (أصبحنا واصبح الملك لله الواحد القهار) وكل همها ان تكتشف الجو والنور وشدة برودة الجو أو حرارته لذلك اليوم، أحسّ باجواء رمادية تظلل عيني، و العالم مضبب اقرب إلى الظلام، لكنني ألمح من بعيد غابات من الفواكه والخضرة، تحمل الكثير من الثمار والأزهار، تجذب نظراتي وترحب بها، تزيدني انجذاباً للحياة ولأجواء الحرية والكرامة، والأهم من كل هذا هو الاستفادة من التجارب، وأخذ العبرة من الأحداث.

**الفصل الأول**

الحماة : يلعن ابوكِ يا وقحة، الله يلعن امك التي لم تحسن تربيتك، انت من بنات الشوارع، لا يصلح لك بيت هادئ او زوج أمين.

(سرعان ما تقفز الكنة واقفة متنمرة، ترد الصاع صاعين لحماتها)

الكنة: اخرسي ايتها العجوز الشمطاء، أنت سمحة؟ أنت قبحة، ولا تستحقين إسمك، أنت قرحة، الله يرحم أيام زمان، حين كنت دائرة على حل شعرك.

الحماة: وكيف عرفت عن ايام زمان، ولم يمض على وجودك في هذا البيت سنتان أيتها الخائنة، الحق ليس عليكِ، الحق عليّ انا التي رضيت ادخالك بيننا يابنت الشوارع، إخسئي، لعنة الله عليك وعلى الذين ربوك.

الكنة: أي بيت؟ أنت لك بيوت؟ طول عمرك دونما بيت، هذا بيتي وبيت زوجي، اغربي عن وجهي، ولا أريد أن أراك فيه.. أنت دخيلة، فاذهبي إلى جهنم واحترقي، كنت أشفق عليك أول ما تزوجت ابنك لأنك كبيرة، كنت أظنك ستكونين حماة محترمة، ولكن ذنب الكلب سيظل دائما أعوجا، مهما طال حبسه في قالب، الفاسدة تبقى فاسدة ومفسدة.

الحماة: أنا يا بنت الشوارع، انا وابني لممناك، لولاي لكنت ما زلت صائعة في الشوارع، من هذا الدكان لذاك الدكان، (من بيت اشكع لبيت اركع) ولما سلم منك شاب او كبير او صغير إلا مشيت معه، والله أستاهل أنا التي ضبتتك.. احتويناك وقبلناك زوجة لابني.

الكنة: أنت؟ من أنت؟ أنا أحببت زوجي وزوجي احبني، وأنت لاعلاقة لك بنا؟، وطز يا أم، أنا لست متزوجة من أمّ، انا أخجل أن اقول انك حماتي.

الحماة: لا حول ولا قوة إلا بالله،لا فائدة معك ولا ينفع معك إلا قلة الحياء ياوسخة، سأؤدبك يا وقحة، هات لي شعراتك المصبوغات كذبا واغواء، سأخلع شعرك وأجعلك قرعاء فرعاء.

الكنة: إبتعدي عني يا غولة، آي آي.. إطلقي شعري.

تتحرك الصبية بخفة ونشاط، كي تتخلص من قبضة حماتها، ترفس ساق الحماة وقدمها فتسقط على الأرض، وهي ما زالت ممسكة بشعر الكنة، لكن وقوعها على البلاط آذى مؤخرتها ومفصلي حوضها، فاضطرت أن تطلق شعر كنتها، وأن تضع يدها على مؤخرتها، تتألم وتتلوى، وتصيح وتنادي على ابنها والجيران، كي ينقذوها، ويحموها من انتقام كنتها الصبية، غير أن ابنها لم يكن في البيت وقتها.

(يسرح مسامح لعمله في السابعة صباحاً، ويعود بعد غروب الشمس، يعمل سائق سيارة في شركة الورق الأخضر).

الحماة: كسرتيني ياديمة يا بنت بهيمة، الله يكسرك، ألا يكفي ما عانيته في حياتي، وآخرتها تريدينني أن أعيش كسيحة؟ يا ويلي، يا أمي، يا ألله، يا ابني؟ وينك يا ولدي، تعال يا ولدي، ياحبيبي، وانظر ماذا فعلت زوجتك بأمك.

تحاول ام مسامح أن تنهض وهي تصيح، يسمع الجيران صوتها الشاكي، فتصل امرأة.. تمسك بيدها.. تحاول مساعدتها على الوقوف:

آخ يا خصري، انكسر حوضي يا أخيتي، تريدني أن اتكرسح، من أين ستأكلين يا مقلعطة لو أنني أطعمك وأطعم زوجك وطفلكما، الحق عليّ أنا التي بقيت في البيت جالسة ليل نهار.. ألجأ للناس وأتملقهم كي اعلفك واسمنك، ولا تشتهين شيئا إلا أتيت به لك ولبيت ابني، ثم لولاي لمتـّما من الجوع..راتب ابني لا يكفيك اسبوع، يا بايرة يا ساقطة، آخ يا عظامي، الله يسترك يا جارتنا، ساعدتيني على الوقوف والجلوس على الكنبة، شكراً يا حبيبتي شكراً! الله يوفقك ويسعدك في الدنيا والآخرة يا جارتي.

الجارة: طولي بالك يا ام مسامح، طولي بالك، النكد يزيد مرضك، ثم إن كنتك ما زالت شابة وصغيرة، طولي بالك عليها، المثل يقول، (الوعاء الكبير يسع الوعاء الصغير) هكذا هي حال الدنيا ليس أمامنا إلا الصبر، لازم نتحمل ونسامح يا أم مسامح، اخز الشيطان واختصرن الشر، وانت يا بنت روحي ادخلي لغرفتك، واتركي حماتك في حالها، وانت يا أم مسامح هل تريدين أن أتصل بابنك حتى يحضرويحل المشكلة؟

الحماة: لا يا جارتنا لا، الله يخليك، لا تتصلي فيه، دعيه في حاله، دعيه سالك في شغله، لانريد أن يخسر وظيفته بسبب مشاكل المجنونة زوجته، وإن فقد الوظيفة فسوف يقعد لها في البيت، وانت تدرين بحال البلد، ما في وظائف ولا سخام البين، ما صدقنا وهو يسلك في شغله، سأصبر للمغرب، لنتركها تتدلل لزوجها وتتنمرد عليّ أم شعر مزوق ومجعلك، صار لها بيت بنت صبيحة القبيحة، بدها تطردني من بيتي، شوفي وقاحتها وقلة حياها، انا قبلتها زوجة لإبني بعد ما كانت تشتغل ممسحة وملهاة للشباب والمتسوقين، يصيدها الغادي والرائح في الدكاكين، صار لها بيت ام شعر محلول، شغلها كان جذب عيون الشباب، حتى تقدر تضمن أكلها وصباغ شعرها، ما وقع فيها إلا المتعوس ابني، قال أعجبته بحركاتها وحنّ عليها ورجاني حتى أسكت وأقبلها، ماذا فعلت يا ربي حتى أبتلى بهذه المنحطة؟ ألا يكفيني ما ابتليت به في هذا العمر؟ ارحمنا يا ألله وخلصنا من مصائبنا، والله لولا خشيتي من أن يقولوا مجنونة، لقمت وكسرت رأسها، وخليني اموت في السجن، أو أعدم.

الجارة: الله يخليك يا أم مسامح اختصري الشرّ، مرّري باقي اليوم على خير، وعندما يحضر ابنك سيعرف خلاصه، وكل مسألة ولها حل، يالله قومي، قومي نروح نطلع ونجلس في حوش الدار، هاتي إيدك نشرب الشاي أمام شقتنا.

الحماة:وهل أنا قادر على القيام من السقطة؟ وربما يلزمني أسبوع او عشرة ايام في المستشفى حتى ارجع طبيعية.

الجارة: قومي ..انهضي، قومي يا أم مسامح قومي، أنا أساعدك هيا انهضي، ما عليك إلا العافية.

(تقف أم مسامح بمساعدة الجارة)، ثم تكمل الجارة:

- أرأيت، مافيك أي بلاء، فقط انت خائفة من الرضة البسيطة، ما شاء الله مقعدتك كثيرة اللحم، وبعدك شديدة وقوية، لا تقلقي! يالله! فقط يالله تحركي والعني الشيطان، كانت ساعة شر، والمثل يقول: ابعد عن الشر وغني له، أحسن من الهوش والطوش، عليك أن تطولي بالك يا أم مسامح، ما هو اسمك ام مسامح، فخلي المسامحة دائما من طرفك.

(تخرج الكنة ديمة من غرفتها، صائحة مهددة):

- اخرجي من بيتي، ان شاء الله تطلعي وما ترجعي، متى يريحنا الله منك يا وجه الشر والنكد، اعبدي الله بصدق، وليس ركوعا وسجودا شكلياً، ادعي له بإخلاص حتي يغفر لك ذنوبك وبلاويك اللي عملتيها، فارقينا دخيل ربك، لا تخليني أكشف قصصك، انت بنفسك فضحت حالك وحكيت لي عن بعض أعمالك وفجورك.

الحماة: انا وسخة يا وجه الشر؟ انا اللي كنت كل يوم التقط لي رفيق؟ ها كيف عرفك ابني؟ وكيف ابتلي بك، وانت ما صدقت تلتصقين به، وتطلبين منه يخطبك من أهلك، كي تذهبين وتأتين على حل شعرك، روحي روحي، ارجعي على زبائنك القدماء وأشكالك، سأنتظر زوجك للمساء، إن شاء الله سيجعل عيشتك سوداء، وادعو الله أن يؤدبك او يخلص منك، او على أمل أن تري نجوم الظهر وانت في الهجر والشقاء، يا مكلحة.. يا قليلة الحياء، وللأسف أنك لا تجدين أحدا يقوم بتأديبك؟ ومن به عادة قذرة فهل يقدر على تركها؟، روحي.. الله لا يوفقك، ولا يجعلك تلقين خيرا في حياتك.

الكنة: اسحبيها يا إم عزوز، اسحبيها يا جارة الله يخليك، ابعديها عن وجهي.

(تمسكها الجارة من تحت ابطها، وتخرجان، وام مسامح تثرثر لنفسها بكلام كثير، وبعد ابتعادها عن مدخل الدار امتارا قليلة، تستعيد سمحة همتها، وتبعد يد الجارة عن ذراعها، وتمشي بشكل طبيعي دون ظهور أي عرج).

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد ظهر يوم ربيعي جميل، غيوم متقطعة في السماء، وعصافير الدوري تتطاير من شجرة إلى شجرة، ويمامة تغرد أو تبكي او تنادي على شريكها او رفيقها.

تمد الجارة يدها لشجرة الليمون التي أنعشها جو الربيع الدافئ هذا العام، فغمرتها أوراقها الخضراء وامتدت أغصانها للأعلى جاذبة للعين، لشدة خضرتها وخصبها وقوة نمائها، تقطع الجارة ورقتين وحبة ليمون خضراء لامعة عن الشجرة، وتخاطب أم مسامح:

- خذي يا جارتنا افركي ورقة الليمون، وقربيها من أنفك لتشمي رائحتها القوية، ستنعشك وتخفف من غضبك، وسأضع الورقة الثانية في إبريق الشاي، لتعطيه نكهة طيبة.

(تجلس أم مسامح على بساط خفيف أحضرته ابنة الجارة، وتطلب الجارة من ابنتها أن تجهز الشاي بسرعة).

(تتنبه أم مسامح إلى زقزقة عصافير صغيرة، تخاطب نفسها) :

- ماذا تريد العصافير؟ أكيد أنهن جائعات، يا ليتني أستطيع الوصول غلى العش الذي خبأتهن به أمهن، حتى أطعمهن مما تيسر، وما دام يا جارتنا عندها طبيخ مجدرة، أكيد سيحببنه، لأن العدس والرز يكونان ناضجين طريين.

فتجيب الجارة:

* ولا يهمك.. سننثر بعض من طبختنا اليوم على الأرض أمام أعين العصافير، على أمل أن تكتشف الأم او الأب هذا الطعام؟

يدور حديث طويل بين الامرأتين، استعرضت كل منهما شكاواها وظلاماتها على مسمع الأخرى، وكلما تذكرت الجارة هماً أو مصيبة مرت بها، وصفتها وحكت عنها لأم مسامح، وبالمثل تعود أم مسامح للشكوى من أبناء زوجها حين كانوا أطفالا، ومن زوجها قبل وفاته، ثم تتذكر وتترحم عليه، قائلة، إن معاملته لها تحسنت كثيراً في سنوات شيخوخته العشرة الأخيرة، اختلف الرجل وصار يعاملها ويعامل ابنها مسامح حين كان طفلا معاملة الأب الحنون، فترد عليها الجارة:

- الله يخليك.. لا تذكرينا بالماضي يا أم مسامح، حياتنا فيها الكثير من النكد والظلم، نحن النساء مظلومات، وخاصة موديلاتنا القديمة، ولا عمل لنا إلا خدمة الرجل والأولاد والتفريخ، وكله من أجل أن نحصل على لقمة الطعام، وعلى ما تخبرين، لا احترام ولا حتى كرامة كما يقولون في المسلسلات التلفزيونية..اي وقت يحتاجها الرجل عليها أن تكون جاهزة، إسمعي يا أم مسامح، سأضع لك صحن مجدرة، الأكل موجود وكثير والحمد لله، فما رأيك؟

- والله نفسي مسكرة ياخيتي، المهم الإنسان يتعلم مما مرّ به، على كل حال اتركيني نفسي لا تطلب الأكل، فقط ناوليني قليلا من الماء الله يسترك ويعمر بيتك، ان شاء الله بيتك يظل عمار.

تقوم الجارة لتحضر لها الماء بنفسها، وتعود بعد قليل ومعها الماء وصينية عليها طبق من المجدرة وصحن صغير به زيتون وفلفل بالاضافة إلى صحن سلطة عربية، وكمية قليلة من اللبن الزبادي.

- تفضلي يا حجة، أنا تغديت قبل قليل، واسمحي لي اتركك، وسأحضر الشاي ريثما تأكلين، وامانة عليك، إذا احتجت شيء نادي عليّ

- يخلف عليك يا جارتي، الله يكرمك، غلبتك انا.

- لا شو الدعوة، احنا جارات مثل الاخوات، ونحن لبعض، ما هو الحال من بعضه، هل يوجد أحد مرتاح في هذه الدنيا؟ كل حياتنا مشاكل وتحديات، ولا يهمك، والجارة لجارتها يا أخيتي، الحياة كلها تعاون، وإذا انا لم اشعر معك، هل نتوقع من مار الطريق أن يتعاون معنا؟

تمسك ام مسامح بالملعقة، وقبل أن تضع اللقمة الأولى في فمها، تسأل جارتها:

- طمنيني عن ابنك، أمس قلت لي انه تعبان ولم يذهب إلى المدرسة.

- الحمد لله اليوم احسن كثيرا، بعد أن أعطاه طبيب المركز الصحي الدواء، وعاد من المدرسة قبل قليل، وخرج يلعب مع اولاد الحارة.

- تعالي شاركيني الأكل، لا أحب أن آكل وحدي، انا زهقان من الوحدة، دائما أعيش وحدي، آكل وحدي واشرب وحدي، وانام وحدي، واشتغل وحدي، واطلع وحدي، زهقت من الوحدة، فما رأيك تشاركيني الأكل؟، ثم هذا أكل كثير يكفي ثلاثة أشخاص.

- قلت لك أكلت قبل قليل، ولا أستطيع أن أزيد لقمة إضافية، كلي قدر حاحتك، وبعدها نشرب شاي او قهوة.

- بعد ما آكل لي لقمتين، سأنهض لصلاة العصر قبل أن تغيب الشمس.

- توكلي على الله، واسمحي لي أن أعمل لي شغلة في البيت أثناء أكلك، خذي راحتك ولا تستعجلي، وسأرجع لك بعد قليل.

تحمل أم مسامح كمشة صغيرة من المجدرة بقدر ملعقتين كبيرتين، تنهض بهمة، لتنثرها أسفل العش الموجود في جحر صغير في جدار العمارة التي تقيم بها مع ابنها، وقبل أن تعود إلى مواصلة أكلها، تطل الجارة فلا تجدها مكانها، فتخاطب نفسها بصوت مسموع، أين ذهبت أم مسامح، خليني الحقها، خايف انها رجعت لبيتها وينشب العراك بالأيدي والعصي ثانية مع كنتها، تسمع ام مسامح كلام الجارة، فتخاطبها:

- لا لا لم أذهب بعيدا، سمعت حركة، فظننت أن أحدا ما دخل حديقة صاحب العمارة، تأكل ملعقتين من الطعام، ثم تنهض أم مسامح ومعها الصينية التي عليها الطعام وتمدها للجارة، شاكرة فضلها:

- لماذا لم تكملي صحنك؟ أو إنك لا تحبين المجدرة؟

- لا يا جارتي والله كان خيرا كثيرا، وأكلك لذيذ، وانت امرأة معدولة، ما شاء الله عليك، أكلت حاجتي، والبركة فيك وفي أكلك.

ثم تهمس في أعماقها، لست جائعة بصراحة، ولا أشتهي الأكل، وسكوتي كان لأضمن أن أضع بعض المجدرة للعصافير التي تصرخ انتظارا للطعام.

تجيب الجارة:

- احنا جيران يا أم مسامح، وأنا وأولادي وبناتي نحترمك، انت سيدة كبيرة، ونعاملك كلنا باحترام.

تتكلم وهي تحمل إبريق الشاي متجهة صوب أم مسامح،وتهمهم: هكذا هي حياة المرأة الكبيرة، مشغولة حتى لو بلا شغل، ومع هذا نشعر كأننا نعيش في فراغ، أو على هامش حياة الناس، لا ندري ماذا علينا ان نفعل حتى نثبت اننا على قيدالحياة، او أننا نستحق الحياة، والمهم أن نتعلم كيف ننهض بعد عثرتنا.

**الفصـل الثاني**

**في المكتب**

بدأ صباح اليوم التالي بشمس مشرقة وسماء ملونة بغيوم فاتحة وغامقة وشاحبة، وسمعنا أصوات العديد من الطيور، ونباح بعض الكلاب، ومع هذا شعرنا بسعة العالم، لكنه يترك فراغا شاسعا امام اعيننا، يجعلنا نحاول البحث عن خيارات ومجالات تقربنا من الراحة والأمان، وتعلو أنغام الطيور المهاجرة، وبعضها يصل حد الصخب على شجرات الصنوبر الثلاث القريبة من المنزل الذي نستأجره في أطراف عمان الشمالية، بيوت قليلة متباعدة، ولا نتوقع ازدحاما سكانيا في تلك المنطقة، ومع شعور بعزلة ما، إلا اننا كنا نحس بهامش واسع من الحرية والأمان.

تتنهد سمحة: أم مسامح، تصمت قليلا، تتحرك شفتاها دون أن نسمع ما يدور على لسانها، تواصل الكلام بصوت خفيض لم أفهمه، تقول ان سمعها صار يخف في السنوات الأخيرة، إلا ان الغالبية لا يصدقون هذا الادعاء، ويقولون إنها حادة السمع، وتسمع من مسافات بعيدة حتى ولو من وراء جدران سميكة، لكنها تقول انها تشعر بأن احتكاك الناس بها بدأ يقل كثيرا عما اعتادت عليه في شبابها وكهولتها، مثل هذا الشعور يقلل من رغبتها في كثير من المرات للمسارعة بحضور اللقاءات مع الأصدقاء والصديقات والضيوف، مثل أيام زمان، وحين سألناها عن سبب مثل هذا الفكر، أجابت:

- أريد أن ألملم ما يخطر ببالي عن حياتي الماضية، فمهمتي الأولى هي محاولة استذكار وسرد ومتابعة ما أستطيع تذكره، او ما هو مسموح ومتاح عن قصة حياة سمحة التي أختارت نشر قصتها بإرادتها سالفا وحاضرا، تكرر قولها دائماً، بأنها تريد أن تبرئ نفسها أمام الله، وتواجه ملائكة الرحمة يوم القيامة باعترافات صادقة في الدنيا، وقبل موتها، وهذا الإعتراف قد يعتبر توبة نصوحا، وسيجنبها الكثير من العذاب بأفكارها في الدنيا وحين تقابل ربها في الآخرة.

وتتابع سمحة حديثها قائلة: من خلال متابعتي مسلسلات التلفزيون والأفلام، ألاحظ أن هناك الكثير من الناس رجالا ونساء يتكلمون عن حياتهم الماضية، ويكشفون تفاصيل طفولتهم، ثم إنني برغم أنني لا أقرأ ولا أكتب، لكنني ألاحظ أن هناك فرقاً قليلاً بيني وبين أي امرأة اخرى، فحين أجالس نساء أخريات نتحدث عن الماضي، وعن الطبيخ واللبس ووسائل الزينة، وبعض الأسرار عن الليل والسرير، نتصرف كما يحدث في المسلسلات التلفزيونية، والتي نحرص على متابعتها ومشاهدتها، ويحصل أن نتناقش او نراجع قصص التلفزيون، وأحياناً قليلة نتحدث عن الجمال وما بشغل عقول الرجال، ومن تلك الاجتماعات صرت أجد أنني أعرف الكثير مما تعرف المرأة المتعلمة، ولا أدري فربما إن المسلسلات التلفزيونية هي التي قللت الفرق والمسافة بيني وبين الناس البسطاء وبين المثقفات وخريجات الجامعات.

لا أدري من دل أبو مضاوي على رقم هاتفي، لكنني فوجئت برجل يتصل بي صباح أحد الأيام، يسألني إن كنت بحاجة إلى شيء، داخلني الشك، وقد قاربت على الستين عاما، وكنت أعتقد أن لا مطمح لرجل في امرأة أرملة عجوزمثلي، وحتى أنا نفسي لم أعد أفكر بالرجل، فظروفي لا تسمح لي بمراعاة جسدي وحاجاته، وكل ما يهمني هو ضمان عيش متوسط، وألا أهان في سنوات الشيخوخة وألا أعاني من المرض قبل الموت. سألت (أبو مضاوي) كيف عرف رقم هاتفي، ولماذا يسألني عن حاجتي؟ كأنه ابتسم هناك خلف الهاتف، وقال:

- إسمعي يا ست ام مسامح، المهم تفضلي بالحضور لمكتبي بعد عصر اليوم أو غدا، اركبي تاكسي وأنا سأصف للسائق موقع مكتبي، تعرفين بعد انتشار الهاتف الخلوي لم تعد هنالك امكانية لضياع أحد، وسأدفع للسائق اجرته، زاد شكي وقلقي من ذلك الاتصال، وبت تلك الليلة أفكر في موضوع هذه الدعوة المفاجئة، حتى ولو اني كبيرة وخبيرة، لكنني لست عجوزا وبلا عقل واع كما يظن الناس، أتصنع العجز، لكنني اتمتع بصحة جيدة وقوة ورغبات كثيرة مثل أي امرأة.

حمدت الله أنني صرت أملك هاتفا خلوياً، مثل أي امرأة أردنية أخرى، فبإمكاني أن أتصل بإبني او بواحدة من بناتي، إنني لا أحفظ أرقام هواتفهم، وبإمكاني قراءة الأرقام والقدرة على جمع مبالغ النقود وطرحها، فرتب ابني هواتف اسرتنا برقم 1 و رقم 2 و رقم 3 الخ، فحين اريد الاتصال بابني أضرب رقم 1، وابنتي الكبري رقم 2 وهكذا.

المهم إنني سأواصل كشف المزيد عن خفايا حياتي كلما تذكرت شيئا، وأحمد الله ان يسر لي شخصا يدون حكايتي، وينقلها بأمانة وإخلاص، ومع هذا يساورني شك أحياناً، هل خطوتي صواب ام خطأ؟ لا أدري لماذا خطر ببالي ان أوافق على البوح بما مر في هذا العمر؟ وما الذي استفيده؟، لكن الرجل وعدني بأنني لن اخسر شيئا اولاً، ثم قد تقرأ حكايتي امرأة أخرى فتستفيد من تجاربي، ومما عانيت في حياتي، لعلها تتجنب أخطائي او أخطاء اهلي معي، تجارب عشتها تحت ظروف ضاغطة وقاسية أحيانا، اعتدت بعدها على بعض الأساليب، ولم يحصل لي ضرر شديد، مع انني كنت اتوقع الشر والمصائب تحل على رأسي، كلما أخطأت او اضطررت للوقوع في الخطأ، ولا أنكر انني تعرضت لمواقف خادعة، ووقعت في أخطاء نتيجة ثقتي بوعود زائفة، وفي حالات نادرة للدخول في تجارب، لعلي أتجنب الأحداث الخاطئة السابقة، وهل من وراء بعضها فائدة او لذة عابرة، وهل ستدوم او تتواتر؟، حياتي كلها امل على أساسات غير صلبة، وفيها الكثير من الخيبات، لكن الأمل لم ينقطع يوما ما ، وما زلت طامعة في حياة مريحة لي فيما تبقى لي من سنوات.

إن أهم ما أفادني وزاد من إعجاب الرجال بي، هو طولي وجسمي المنساب بقامة جاذبة، وملامح وجهي وبشرته الحيوية التي لا يلزمها اي مطريات او كريمات او تجميل، فهي وعيناي تشعان بالحيوية والصفاء والنظافة والجاذبية، لهذا وجدت كل من شاهد هذه المرأة الطويلة يهتم بها، ويتقرب لها ويتمناها صديقة.

والمهم ان تصرفاتي غير ثابتة، فتارة اكون عجوزا، وأخرى مراهقة، وأحيانا كنت أجد أنني تصرفت كطفلة بلا تجارب ولا خبرة ولا عقل، وأحيانا اخرى بلا ضمير. لكنني ماهرة في اكتشاف الزيف، وحين لا أخشى خسارة من أي علاقة لا أظهر الكثير من الحذر، بل أدع الأمور تسير حسب رغبة الآخر، لأعرف المدى الذي يريد، وكثيرا ما وجدت نفسي واقعة في مطبات لا أمل لي بالخروج منها سليمة اورابحة، بعدها يتيسير لي الانفراج بقليل من الاهتمام واللباقة، ومع هذا دأبت على الابتعاد عن مواقع الخطر، ليمضي الحدث دون أن أصاب بأذى او اتعرض لسوء السمعة، أعتقد أن الناس كانوا يشكون بي، أو يتهمونني، لكن لطفي وملاطفتي للناس كانت تشفع لي عندهم، أكرمهم واحترمهم وارحب بزياراتهم او التمس وسائل للتقرب منهم ومجاملتهم، كي لا يفكر جيراني وأقاربي بالحقد عليّ او الكيد لي، او ليغفرو لي مهما عرفوا عني من زلات، هي نمط حياة اعتدت عليها ويصعب تغيير مساراتي واسلوب عيشي، او طرق معاملاتي مع الناس والغرباء والمطموع بهم.

أحب الطبيعة والأرض والشجر والطيور والعصافير والرجال، تمنيت أن تكون لي ارض وحديقة، شجعت ابني وبناتي على تربية العصافير والحسون الذي يغرد، وشجعتهم على تربية السمك في البيت، وانا الذي كنت احضر هذه الأشياء لهم، إن لم أجد من اقنعه او يكرمني بشراء مثل هذه المخلوقات اللطيفة لنا، فتجارب الهجرة من قريتنا الأصلية ثم استراحتنا لأسابيع في منطقة الخليل، وانتقالنا لأريحا ثم لمخيم عقبة جبر، ثم لمزارع الغور، حتى استقر حالنا على عمل جميع أفراد اسرتنا الكبيرة في المزارع والزراعة، ثم انتقالنا مع اسرتي بتهجيرجديد إلى الضفة الشرقية، والتي أصبحت وحدها هي دولة الأردن بعد هزيمة 1967، تم طلاقي في عمان، ثم وزواجي ثانية ورحيلي للكويت مع زوجي الثاني، ثم تهجيرنا للمرة الأخيرة من الكويت عائدة إلى الأردن، وآمل ان يكون ذلك آخر تهجير، لقد كبرت وصرت لا أستغني عن الأطباء والمستشفيات، وبدلا من اهتمامي بجسمي بالتجميل والإغراء مثل ايام الشباب والكهولة، صرت اهتم بصحتي وجسمي كي أظلّ قادرة على الحركة والحياة، فأضطر للجوء إلى فلان أو علان، كي يساعدونني لدخول مستشفى او عيادة طبيب مختص، بسبب المتاعب التي اصبحت اعانيها واتعايش معها في السنوات الخمس الماضية.

لا بد أن تتأثر شخصية كل إنسان بتجاربه، فالتربية والطفولة ليست وحدها التي تشكل طبيعة تفكيرنا وتؤثر على شخصياتنا، فالمشاكل والصعوبات والتجارب تؤثر على أي إنسان، وتجعل منه وعاء تسقط فيه مفاهيم وأفكار جديدة تؤثر على طريقة حياته وكلامه وتصرفاته وافكاره، ولهذا تختلف شخصيات الناس حسب تجاربهم وحسب ما مر بهم من مواقف ولحظات فرح او حزن او ضيق او خداع، ثم إن الدين يؤثر فينا وعلينا، فالوالدين يسمعاننا الكثير من النصائح اعتمادا على ما يقوله المشايخ وعلماء الدين والمعلمون.

إنني لا أحس بالإحباط برغم كل ما عانيت من خيبات في حياتي، فأملي أن لا تكون حكايتي كلها حكاية ضياع وتيه وفشل، استفدت كثيرا مما مر بي من مطبات عجيبة وتجارب، ولحظات متعة قصيرة عابرة، وفي أحيان أحس أن لا مناص لي من قبول ما تيسر لي من عيش، ولا مفر لي من التمسك بكل ما أملك من مؤهلات دخيلة على حياتي، وأرى أنني أزداد قدرة على مواجهة صعوبات العيش مع ابني وزوجته التي تكرهني، وتتمنى موتي كل يوم.

لم أعد أقلق من مقابلة الرجال، كل الرجال، لذلك قلت في نفسي، لماذا لا أذهب للقاء الشخص الذي اتصل بي، وطلب مني ان ازوره في مكتبه.

كان مهيئا للقائي كما شاهدت، المكتب نظيف ومرتب وبرائحة جاذبة حلوة، وباقة صغيرة من الزهور الحمراء والبيضاء والزرقاء في مزهرية على يسار الرجل، رحب بي وسلم بطريقة عادية لا شبهة فيها ولا تصنع، تمتد يده لثلاجة صغيرة قرب كرسيه، ويسألني هل أحب المشروبات الباردة او يطلب القهوة او الشاي لي؟

- شكرا يا أستاذ، لا تقلق نفسك لأجلي، لا أشتهي شرب المياه الغازية الباردة، ولا أعترض على شرب القهوة مع حضرتك.

- مرحبا بك يا أم مسامح، عرفت من صديق عزيز عليّ عن رحيل زوجك منذ مدة، وأنا مع مجموعة من الرجال الأفاضل، نبحث دائما عن الأرامل المحتاجات للعون اوالدعم، فاتصالي المفاجئ بك، هو للتعرف على ظروفك ومتاعبك.

- شكرا سيدي على اهتمامك، لا شكوى لديّ، أهم ما يعنيني هو ايجاد وظيفة مناسبة لابني بدخل مناسب يكفي أسرته وأنا أعيش في معيتهم والا أدري أأقول لك انهم يشاركونني العيش في منزلي، او انني اشاركهم العيش في نفس المنزل. لكن أعرفك أنني أعين ابني مما يتيسر لي من المعونة الوطنية أو المحسنين، ليتمكن ابني من تغطية مصاريف حياتنا مع زوجته وأطفاله.

- أهلا وسهلا بك أم مسامح، وهذا المكتب مفتوح لك، وسأستمع لهمومك كلما ضاقت عليك الظروف، بشرط أن لا تخبري أحدا عنا، فلسنا بحاجة لضجة او التصريح بما نقوم به، فنحن نستخرج المحتاجين بجهودنا الخاصة، وبنشاطات أشخاص يخصصون بعض اوقاتهم لفعل ذلك بهدوء وفي صمت وإخلاص.

- يشرفني التعرف عليكم وعلى جهودكم المباركة، وأظن ان بلدنا بخير، وفيها أناس كرماء ممن أنعم الله عليهم بالخير، يقدرون الناس والمحتاجين، وبهذا الأسلوب يعيش الناس في صفاء وتسامح وتعاون، ويتم التخفيف عن المحتاجين والذين في ضيق، فالدنيا لا تخلو من الطيبين، وجهودكم هذه مباركة، وإن الله يرضى عنكم، وكل من عرف عن نشاطاتكم سيؤيدكم.

بعدها انشرح الرجل، وأحس بنوع من الرضا والراحة، فصار يخاطبني وهو سعيد مبتسم، ونظراته تتأمل ملامح وجهي ومواقع تهم الرجال، ولا أخفي، إن اهم ما يحذب الرجل هو صدر المرأة، وكأن كل الرجال أطفال في ثياب رجال، أعني ان الرجل يبحث عن أمّ له يلتصق بصدرها او يرضع منه، لكن انتباهي ذلك لم يضايقني، فبمعرفتي السابقة جعل مني إنسانة قوية متماسكة، حتى في أصعب المراحل، وبدأت أهم بالمغادرة، تمتد يده لدرج مكتبه، ويناولني مائة دينار، في ورقتين نقد من فئة الخمسين دينارا، وأضاف هذا رقم هاتفي، يمكنك التواصل معي إن ألمت بك ضائقة، ولا أتردد بزيارتكم لو صار ضرورة لذلك، او إن لم تتمكني من الوصول لهذا المكتب، وأملي ان لا تخبري ابنك ولا كنتك عنا.

وعند خروجي من مكتبه، شكرته من كل قلبي، على مساعيه، ابتعدت وأنا أسائل نفسي، كيف عرف هذا الإنسان عن ظروفي وحاجتي، ولكن لكثرة ما مرّ معي من مواقف، وأصناف الرجال، بقيت على قناعة بأن أي رجل لا يقدم لامرأة غريبة أي خدمة او جميل او مساعدة، إلا وفي نفسه أهداف أخرى، بعض تلك الأهداف قريبة، وبعضها بعيدة، لكننني لعنت الشيطان وقتها، على سوء ظني، لأن سوء الظن يغلب عندي الثقة والأمان، ولا أظن انني بحاجة للمزيد من التعلم والخبرة في تعاملي مع الرجال، لكن أشهد ان الرجل لم يتطرف ولم يلمح لأي غرض دنيوي او إغوائي، لذلك علي أن أشكر الله أن سخر لنا هذا الإنسان ليفك ضائقتي المادية في تلك المرحلة الحرجة، حيث كان حفيدي مريضا بالإنفلونزا ربما أو هي نزلة صدرية، ولا بد من أخذه لطبيب جيد، وسيطلب منا صور أشعة لصدره، ولذلك كنا ننتظر تناول ابني راتب الشهر في اليوم العاشر من كل شهر، أي أننا سننتظر ثلاثة ايام حتى يصبح لدينا النقود الضرورية لمعالجة الطفل، ولكن ما دام ان الله يسرها، فسأحمله اليوم لطبيب مختص في جبل الحسين، وسأسرع للعودة للبيت لأحضار الولد للطيبب.

**الفصل الثالث**

البيضة

تتوالي السنون ...وربما كان عمرها خمس سنوات أو ست، طفلة بريئة تحرص على طعامها وحريتها، يهيأ لمن يراها أن عمرها سبع سنوات او ثمانية بسبب طولها مقارنة بطفلات حارتها، في مخيم عقبة جبر، كان الرجل يراقبها حين حملت البيضة، تنظر حولها فلا ترى أحدا ، أناس كثيرون في المنطقة، لكن الجميع في انشغال دائم، ولا يتنبه أحد لطفلة، تحمل البيضة في خفة ورشاقة، تتأملها وتتلمسها ثم تعيد تأملها وتدويرها بين أصابعها، تقربها من صدرها وتلصقها بردائها، تعيد النظر حولها، بخفة وحنان، تدسها في جيبها وأصابعها تظل ممسكة بها، ثم تدير وجهها إلى الطريق عائدة من حيث أتت.

تنهض صباح ذلك اليوم مبكرة، تريد أن تقضي حاجتها، لا يوجد لديهم مرحاض، فهم يقيمون في خيمة من بين مئات الخيام، تجمعت في أريحا قرب نبع ماء عين السلطان، الجو دافئ في ذلك الصباح، ومع انه ه خريفي، إلا أن الحرارة كانت شديدة بعد الحادية عشرة صباحا حتى الحادية عشرة ليلا، لم تكن ترتدي إلا فستانا غير نظيف، التصقت بنبتة بندورة قوية ناجحة في تربتها، وتحت شجرة نخيل قضت تلك الحاجة.

وفي طريق عودتها اقتربت من بيت من خشب الصناديق والزينكو، فعثرت على البيضة في ركن قرب البيت الصغير، تمشي وتنظر حولها قلقة من أن يكون شاهدها أحدهم، لكن ما يحيرها أكثر هو هل تذهب بالبيضة للدكان لتقايض بها حلوى أطفال محرومة منها، أو تعود بها لوالدتها، خشيتها من كثرة الأسئلة، او قد تكون من نصيب والدها، غلبها التفكير فوجدت نفسها أمام باب دكان صغير في عشة من الخشب والقش، توقفت ثانية تتردد هل تضحي ببيضتها التي تملكها لأجل حبة حلوى او قطعة من الحلاوة الطحينية؟ شاهدها صاحب الدكان مترددة، أشفق عليها وربما خاف من مغافلتها له، فناداها سائلا عن سبب توقفها حائرة، طفلة في عمر خمس سنوات لا تفكر إلا بالسلامة والحلوى، أو من يحن عليها، أخرجت البيضة من جيبها الصغيرة، وناولتها للرجل العجوز، ماذا تريدين يا بنت، لم تجب الرجل، بل صارت تنظر حولها، ثم رجعت للوراء خطوة أو خطوتين تنظر خارج الدكان، كأنها تريد أن تتأكد أن لا احد يتبعها او يراقبها، فهي تخشي والدها، ولا تنسى صفعاته او غضبه، قالت لصاحب لدكان، أريد أن أشتري، أعرف أنك تريدين أن تشتري، لكن ماذا تريدين يا بنت؟ أشارت للحلاوة الطحينية المرصوفة على صندوق خشبي قديم، وزيت السيرج ينز منها ويغطي سطح الصندوق الخشبي، وبعد أن اقتربت اصابعها الدقيقة الرقيقة منها، شاهدت وعاء من القش المنسوج به أنواع مختلفة من الحلوى، وبجانبه وعاء من المعدن يحتوي على حبات من العلكة، ترددت هل تختار العلكة او حبوب الحلوى التي يحب الطفل أن يمصها، وتمكث في الفم لفترة اطول، اما العلكة فقد تعطي أمها حبة منها، وتعلك هي حبة، فوجدت نفسها تحمل عبوتي علكة، وفي كل منها اربع حبات صغيرات، لم يعترض صاحب الدكان على تصرفها، لأنه هو المستفيد، فبقرش واحد تستطيع أن تحصل على اربع عبوات من العلكة، نظرت له مستأذنة، فقال لها يالله يالله، روحي لأمك، مع السلامة، لكن اسمعي يا بنت، هل عندكم بيض كل يوم؟ لم تجبه البنت لأنها كانت تقف باب دكانه تتأمل الشارع لتضمن أن لا أحد يراقبها او يعتدي عليها، ولا تريد أن يأخذ منها كنزها الثمين، قال لها صاحب الدكان، كلما صار عندك بيضة أو بيضتين تعالي عندي لتشتري ما تريدين.

لم تجبه على سؤاله ولا على رغبته، فهمّها أصبح وقتها أن تعطي امها شيئا من الكنز الثمين الذي تحمله.

تبتعد الطفلة سمحة خطوات قليلة عن الدكان، وهي خائفة لكنها سرعان ما قفزت تركض عائدة إلى بيتها، سألها والدها حمشان: أين كنت يا سمحة، فأجابت امها فتوحة عنها بأنها خرجت لقضاء حاجتها، اصابعها تخنق كنزها، ورائحة انفاسها معطرة بالنعناع، تحس ببعض الحرقة، لكنها ترى كل البنات والأمهات يعلكن أحيانا، وكل حرصها ان لا يعرف والدها ما تحمله، تلحق بوالدتها خارج الخيمة، وتدس في يدها عبوة العلكة الصغيرة والتي تحتوي على اربع حبات، تشهق امها، لكنها تفطن فتخفي صوتها، تفتح الحاوية الصغيرة، وتلقي الأم بحبتين في فمها، ثم تخفي الحبتين الأخريين بين طيات حزامها الذي تلبسه فوق ثوبها التراثي السبعاوي الفلسطيني المطرز.

من أين حصلت على كل هذا يامنكوبة؟ من الدكان يا أمي، ومن أعطاك ثمنها، احذرك أن تأخذي فلوسا من أحد، هل تفهمين؟، كلا كلا يا أمي، وجدت بيضة على جانب الطريق، فاشتريت بثمنها العلكة لك ولي.

تخرج البنت للمنطقة التي وجدت البيضة بها صباح اليوم التالي، تجد بيضة أخرى، وقبل أن تلتقطها، يبرز رجل لها، ماذا تفعلين هنا؟، تلعثمت الطفلة سمحة، كنت أقضي حاجتي بعيدا عن خيمتنا كما أفعل كل يوم.

- هل سرقت بيضة يوم أمس من هنا؟ احمرّ وجه الطفلة، بدأت تتأتئ، ثم قالت:

- وجدت بيضة هناك، واشتريت حلوى بها، سامحني يا عم، سوف لن أعود هنا بعد اليوم.

- هل تحبين البيض يا بنت؟ ألا يوجد عندكم دجاج؟

- نسكن في عشة صغيرة، ووالدتي ووالدي يتصرفون ببيض الدجاجات الأربعة.

قال لها، انا أحب الأطفال، فهل أعطيكِ بيضة أو تعريفة؟

- أخشى أن تعاقبني والدتي، لا أريد تعريفة، ولا بيضة، أمسك بيدها ووضع نصف القرش بين أصابعها، حاولت فتح اصابعها كي تسقط التعريفة، لكنه ثنى اصابعها ودفعها بعيدا، شعرت بحريتها، نظرت للخلف لتتأكد أنه لا يريد أن يحبسها، ركضت قليلا، وقبل تخطي طرفحوشه الصغير، توقفت ونظرت للخلف ثانية، شاهدته ينظر لها، ابتسم، فركضت ثانية صوب الدكان، واشترت حبتين من الحلوى الصلبة، ولأن والدتها فتوحة اوصتها أن لا تأخذ فلوسا من أحد، وضعت الحبتين مرة واحدة في فمها، واحدة للجهة اليمنى من فمها، والأخرى للحنك الأيسر، فاندفعت خداها للخارج، وتباطأت في العودة لبيتها، حتى ذاب نصف الحبتين، وهي تستمتع بطعم الحلاوة والسكر الذي تمصه بشغف شديد، وتعود لمنزلها دون أن يسألها أحد، لكن والدتها لاحظت اختلاف لون شفتيها، فسألتها ما هذا اللون القرمزي على شفتيك يا سمحة؟، قالت البنت لا أعرف ياأمي سأمسحه، أخشى أن تكوني مصابة بالرشح أو إن حشرة مشت على شفتيك ليلا يا سمحة، هيا بللي خرقة وامسحيهما، ولا تستعملي ماءنا البارد الذي في زير الفخار.

كانت امي تحبني كثيرا لسببين، الأول كثيرا ما اخبرتني وسمعتها تحكي مع النساء الأخريات، ان والدها كان سيتركني في العراء أثناء هجرتهم من مدينة بئر السبع، لأن أفراد العائلة كانوا يحملون بعض الطعام والأغطية، فتعب والدي ووالدتي من حمل الطفلة الرضيعة سمحة، لكثرة صياحي من الجوع، ولم يكن في صدر والدتي الحليب الكافي ايام الهجرة والخوف عام 1948، مددني والدي على صخرة عالية نوعا ما، كما ذكروا لي، وغطاني بمنديل كبير كالمنشفة، ثم غادروا المنطقة، على أمل ان تلتقطني عائلة محرومة من الأطفال، والناس يتقاطرون هاربين خوفا من القتل والاعتداءات الصهيونية على النساء والبنات والشباب، كان الفزع يسيطر على الوالدين خوفا على أبنائهم، فكل أسرة ظل همها النجاة من منطقة الخطر واعتراض الصهاينة الحاقدين على الفلسطينيين الذين قاوموا سيطرتهم على القرى والمدن الفلسطينية، وبالإرهاب والتخويف والقتل والتعذيب اضطر جميع الناس إلى ترك بيوتهم، على أمل أن يحميهم العرب المجاورون لفلسطين، او يعيدونهم لديارهم، وخاصة بعد مذبحة دير ياسين، حيث قتلوا الكثير من الأطفال والشباب والصبايا، وبقروا بطون بعض الحوامل وهتكوا اعراض بعضهن، والعربي أكثر ما يرهبه هو هتك العرض وتعذيب النساء والأطفال، وكم من حالة قام الصهاينة المجرمون فيها بتجريد المهجرين من أموالهم أو حتى ملابسهم، وكشف عورات النساء بصفة خاصة، وتجريدهن من مصاغهن أثناء تفتيشهن قبل السماح لهن بمواصلة الرحيل.

إحدى نساء القرية شاهدت طفلة تبكي مبحوحة بحرقة وشهيق، ممددة على صخرة في الطريق إلى الشتات، أشفقت عليها وحملتها بعناء، وفي اليوم التالي صارت تسأل عمن أضاع طفلة من أهل البلد، سمعت والدتي بالخبر، فسعت لها وتعرفت عليها وحملت ابنتها سمحة منها وضمتها لحضنها بعد ان وصل المهجرون مدينة الخليل.

والسبب الثاني لتعلق والدتي بي، هو جاذبية ملامح وجهي وطولي الجاذب حتى في طفولتي مقارنة مع بنات بلدتنا وعائلتنا من الأطفال.

بعد بلوغي أربع سنوات من العمر، صرت أخرج أمام البيت، أراقب الناس، وصرت أتمادى في ابتعادي عن الخيمة التي نقيم بها عشرة امتار او عشرين مترا، ولا تزجرني والدتي، فصارت مداركي تتوسع حسب مستوى عمري وفتها، صرت اتأمل الناس، وأحاول التعرف على الوجوه، بعضها صار مألوفا لي، وبعضها كنت أخشاه وأنفر منه، أعطاني والدي مرة نصف قرش، فاحتصنته، ولم أدر ما أفعل به، لكن أهم ما حرصت عليه، هو الحفاظ على خمسة فلسات، بقيت حبيسة أصابعي في ذلك المساء، ونمت ويدي تحتضن نصف القرش، ثم دفنته في جيب لباسي، في صباح اليوم التالي فكرت وأردت تقليد الأطفال الآخرين وأخويّ كي أشتري شيئا من الدكان القريب، بهذه الفلوس الخمسة، فكانت اول مرة لي أدخل بها الدكان الصغير بمفردي.

كثيرا ما وجدت نفسي وقتها أنني وحيدة في خيمتنا، ووالدي وجميع اسرتي الأكبر مني يسرحون إلى مزارع الخضار والموز والنخيل في منطقة أريحا، كنت أمل من الوحدة، وأشعر بالجوع ولا أجد في خيمتنا الا الطحين والزيت والتمر القاسي، وربما أجد قليلا من الخبز، كانت والدتي توصي جارتها العجوز بمراقبة خيمتنا، كانت العجوز تدلل ولدا صغيرا، ونادرا ما تطلب مني أن أذهب للجلوس قربها، ووالداي كلاهما حذراني من مغادرة منطقة الخيمة، وأخبراني ان أسأل جارتنا العجوز عن اي شيء أحتاجه أو يقلقني. في تلك الأوقات، وبعد خمس سنوات من التهجير القسري، بدأ عقلي الصغير يتساءل عن امور كثيرة في الحياة، كيف يمكن ان آكل، وكيف يمكن أن أحصل على بيضة أخرى، أو نصف قرش لأشتري اي حلوى رخيصة من الدكان الصغير قرب خيمتنا. صرت احب أن أسمع قصص التهجير القسري والظلم الذي أحاق بأهلي عام 1948، لقد جرى ترحيل جميع سكان بئر السبع وقراها والعشائر المحيطة بها، وقتل عشرات الشباب الذين حاولوا مقاومة الصهاينة، أوالصبايا اللاتي رفضن الخروج من القرية، وبعض الناس خرجوا مضطرين قبل وقوع هجوم عسكري صهيوني منظم على بلدتهم، بسبب سماعهم بالأخبار عن قتل الفلسطينيين والفلسطينيات، وتعذيبهم قبل قتلهم، ثم إن معظم الفلسطينيين صدقوا وعود بعض الناس والإشاعاتبأن الخروج من بيوتهم هو مؤقت ولأيام قليلة أو لشهر على الأكثر، وستعيد الجيوش العربية الفلسطينيين الى بيوتهم واملاكهم التي تركوها، لذلك ترك الكثير من الناس كل ما جمعوه وخزنوه في بيوتهم من أثاث وفراش وتحف وأدوات منزلية، وأقفلوا أبواب بيوتهم وحملوا مفاتيحها وخرجوا، لكن لم يعرفوا ان كان اي واحد منهم يستطيع العودة لمنزله حسب قرار الأمم المتحدة، ثم لأنه ليس للصهاينة حق أن يحتلوا كل فلسطين، حسب قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود كما اقرته هيئة الأمم المتحدة عام 1947، لكن صارأي شخص يعود لبيته ليأخذ منه ما يشاء، ثم يغادر المنطقة ينتظر أن يشهد معركة التحرير الشامل، والتخلص من الغزاة الأجانب إلى الأبد.

كانت فتوحة أم سمحة تحمل طفلا كل عام أو عامين، وقد بان الحمل عليها في طفل جديد، في حين كان عمر سمحة خمسة شهور وقت التهجير 1948، وكان أخوها الأكبرعمره سنة وثلاثة ِأشهر، طلب والدها من زوجته أن تترك الطفلة في البيت، حتى يصلوا لمكان أمين ومعهم الأغراض الضرورية والتي يستطيعون حملها، ووعد بأنه سيعود لإحضارها بعد إنزال ما يحملون من أغراض مستعجلة تقيهم البرد والحر والجوع لأيام قليلة، مشددا على زوجته تنفيذ رغبته، ومستغلا جبروته وخشية زوجته منه، وطاعتها المطلقة له، قال لزوجته سنعود في اليوم التالي، لآخذ المزيد من الأغراض، ونحمل الطفلة معنا، ولا تخافي فالبنت بسبعة أرواح كالقطط، وما شاء الله عليها ناصحة ودبدوبة مثل البطة، لا خوف عليها من الموت أو الجوع او المرض، ثم قال لها: البنات اذى وتعبنا عليهن يذهب سدى، نربيهن لرجل غريب وقد لا يستحق الواحدة منهن، وعند عودتي بعد يوم او يومين سنغذيها و ننظفها ونحملها في رحلتنا الثانية.

سكتت والدتي، كأنها اقتنعت بكلامه، لكن زوجته وضعت الطفلة في كيس من الخيش خروقه واسعة، لم تناقشة في أمر الطفلة ولم تتفوه بكلمة، واظهرت كأنها تطيع اوامره، وأخفت أمر حملها معها عن زوجها، ارضعتها جيدا وهي نائمة على الأرض وعلى مرأى منه، ثم لفتها حتى لايسمع صوتها لو صاحت، وابقت فمها وانفها مكشوفا، ثم علقت كيس الخيش على رأسها، وكأنها اغراض للعائلة، كان والدي في المقدمة يحمل شقيقي الصغير ووالدتي وعمتي واختي الكبرى يسيرون خلفه، وفي الطريق صاحت الطفلة فغضب والدي على والدتي، وعاقبها بأن أخذ الطفلة وتركني على جانب من الطريق، حاولت والدتي التخلف في سيرها عن زوجها، فعادت برغم دفعه لها، ثم ألقمت الطفلة قطعة من الحلوى ملفوفة بقطعة قماش نظيفة، كما هي العادة عند الفلاحين، بدل المصاصة البلاستيكية والتي لم تكن معروفة ولا مستعملة في تلك الفترة من الزمن في فلسطين، حتى تظل الطفلة منشغلة بالرضاعة ومصمصة القماش لأطول مدة ممكنة، وبدون نقاش ولا جدل، حل الزوج حزامه وبدأ بضرب زوجته، لأنها خالفت كلامه، وطلب من زوجته أن تعود هي وابنتها لبيتهم في القرية، كان الليل قد قارب منتصفه، وقد غرب نصف القمر، وبدلا من الاستراحة قرر مواصلة السير في الأرض العراء، وأصر على عدم مرافقة زوجته له، وأمرها بالعودة للقرية أو البقاء في سهول منطقة بئر السبع الواسعة الخالية من العمران، بكت فتوحة الأم بمرارة، وتوسلت إليه أن يسامحها لأجل الطفلة سمحة، لكنه زاد من عقابها وضربها وركلها، وجذب الطفلة منها ثانية وتركها على الصخرة في مكان مرتفع بجانب الطريق.

إنهارت قوى والدتي فسقطت على الأرض برغم قوة جسدها وبنيتها وعضلاتها، جلست حائرة ماذا تفعل، وهي تراه سيتركها وحيدة مع طفلتها في ارض عراء وليل مظلم موحش، إلا أنه انتصر وأجبرها على مرافقته بدون الطفلة سمحة، وبعد ان قطعوا أكثر من عشرة كيلومترات مبتعدين عن بلدتهم ليلاً، تسمع أسراً أخرى مهاجرة مثلهم، نهرها والدي ليزيد من هلعها وتخويفها، وهددها بأن يتركها نهباً للفزع او الوحوش البرية أو الموت، وبرغم كل العذاب الذي تعرضت له، ظلت تسأله متى سنعود لإحضار الطفلة يا أبو سمحان؟ أجابها مرة قائلا، لو أشفقنا على الدجاجة ولم نذبحها سوف لن نأكل اللحم، او ستموت الدجاجة بمرض او كبر في العمر بدون فائدة لنا.

وصل حمشان وعائلته إلى قرية السموع، فقرروا قضاء الساعات القليلة من الليل هناك، بعد ان اطمأنوا ان الصهاينة لن يتبعوهم لتلك المنطقة، ثم لم يعرفوا أن الصهاينة لا يهمهم أن يقتلوا اي مهاجر، بل كانوا يقتلون من يعاندهم ويقاومهم ويصر على البقاء في قريته او منزله، أما من يهاجر فيسهلون له الطرق، ولا يعترضون على أحد، وقال شهود عيان، انهم استأجروا وخصصوا سيارات شحن وحافلات لحمل المهجرين الفلسطينيين بعيدا عن قراهم وبيوتهم واملاكهم لتشجيعهم على الهجرة والهروب.

وفي صباح اليوم التالي، سمعت والدتي من إحدى نساء المجدل المهجرات، أن اناسا عثروا على طفلة مهملة في طريق التهجير، وأنهم كانوا يسألون عمن اضاعها، فصاحت والدتي متألمة شاكية تطلب المساعدة، وصارت تمشي في الموقع تائهة ملهوفة، تعلن أنها أضاعت طفلتها، حتى دلها بعضهم على موقع العائلة التي تحتضن الطفلة.

**الفصل الرابع**

القهوة في الحوش

حين تدخل سمحة حافلة للذهاب للسوق او للسفر لمدينة اخرى، ستحتار اين تفضل الجلوس، هل بجانب النافذة، او على الطرف مع الممر، او في المنتصف بين اثنين، حياتنا فيها خيارات، ولكل خيار ميزة وعيوب، فإن كنت عند النافذة الزجاجية الشفافة فسترى الخارج بوضوح وتتأمل الكثيرمن المستجدات اوالأمور الجديدة، ولكنك سترى ايضا الحشرات التي تضرب الزجاج، وسترى سرعة غروب الأماكن والجماليات وهروبها منك، وستجد صعوبة كبيرة في الخروج من موقعك، وعندما تأخذ الكرسي الواقع على الممر، فسيكون بإمكانك التمدد وأخراج قدمك وتهويته في الممر اثناء سير الطائرة او الحافلة، ولكن ستجد ان كل من يمر سيحتك بك، وقد يدوس على قدمك او يصطدم بها، او قد يميل عليك بثقله ليتماسك حتى لا يتعثر، وإن اتخدت جلستك في الوسط، فلا تحصل على الميزات التي سيجدها الطرفان، وستجد انك متضايق من اليمين ومن الشمال، وقد لا تجد لديكك متكئاً، ولو نعس اي من الشخصين من الجهتين او غفا، فسيتكئ عليك، وربما تفكر مرة ثانية بعدم السفر، أو أن تركب حمارا او تستأجر حصانا تركبه لتقضي حاجتك، دون اللجوء للمواصلات مع الآخرين، او تمشي منفردا، إن كانت المسافة معقولة وتستطيع تحملها.

الحياة طرق متشعبة، تجد نفسك في طريق سهلة في بدايتها أحيانا، لكن بعد سلوكها تبدأ صعوبتها بالظهور، تجد نفسك مضطرا لمواصلة السير بها، لأن الرجوع يصبح أصعب عليك من مواصلة التقدم، وتغيير الطريق أكثر صعوبة عليك أيضا، وتخشى ان تضطر لصعود طريق اشد قساوة من تلك التي وجدت نفسك فيها.

برغم النكد الذي حطم الكثير من معنويات أم مسامح، بعد صدامها مع كنتها، إلا أجواء بداية شهر أيار والدفء اللطيف، ولد في نفسها الكثير من الأمل، فكانت إشعاعات شمس ذلك اليوم بعد الظهر تريح الأعصاب، وتشجع على تأمل الكون والخضرة والفضاء، تلاحقت غيمات متنوعة الألوان في السماء الزرقاء، فكل غيمة كانت تتدرج فيها الألوان من بياض يغلب الرمادي عليه، فيتكاثف ثم ينساب اللون ثانية للأقل غموضاً وتكاثفاً، ينظر بعض الأطفال لتلك الغيمات المبعثرة، وكأنهم يستمطرونها، أو يسألون السماء بمزيد من الظل كي تحميهم من حر الشمس، فيزداد الجو لطفا ورقة، يدفعني للابتعاد عن ظل شجرة الصنوبر، كي أنعم بقليل من دفء الشمس، وأتمتع بالتطريز العشوائي في سمائنا الصافية الجميلة.. تمر نسمة هواء خفيفة فتحرك أغصان الأشجار كلها، وأرى ظلال شجرة الصنوبر تتحرك على الأرض، وكأنها تمشي باحثة عن شيء مفقود بين الثرى.

تحضر الجارة (بكرج) القهوة على صينية مع فنجانين، وتجلسان متقاربتين، تتذكر الجارة، فتنادي على ابنتها لتحضر إبريق الماء الزجاجي مع كأسين للشرب، تمر سيارة من الشارع العام مسرعة، وتسمعان زعيق فرامل قوية، أزعجتهما السيارة بسبب سرعتها، لا شك أن سائقها شاب طائش، تقول أم مسامح، فتجيب الجارة، (لماذا هو مستعجل وطائر؟ ترى لماذا استعمل الكوابح بشدة)، تطل الجارة فتجد طفلاً هارباً خائفاً يركض، وسائق السيارة الشاب، وربما المراهق يلعن ويسب ويزمجر. تعود لمكان جلوسها، وتطمئن جارتها أم مسامح ان لا ضرر لأحد، ثم يواصلان ثرثرتهما:

- لا تشغلي بالك يا أم مسامح، ستفرج إن شاء الله، اسمعي تغريد العصافير ومناجاتها على شجرات حديقة جارنا، والله الشجر نعمة في البيت، ليس لثمره فقط، بل إن منظره وتحريك أغصانه تريح العينين، وظلاله وخضرة أوراقه والإزهار تنعش النفس، وتجلب لنا الطيور والعصافير من مختلف الأشكال والألوان، وتعرفين أن النفس تحب الألوان الجميلة والتنوع، وبشكل خاص نحن النساء، يستهوينا الطرب وشدو البلابل وأصوات جميع أنواع الطيور، ودعيني اقترح عليك، ما رأيك ان أحضرالمسجل ونسمع الأغاني التي نحبها ونحن نشرب القهوة، وسوف ننسى الهموم والناس والسيارات في غدو ورواح، شارعنا فرعي، ولا تمر به الكثير من السيارات، إحمدي ربك أننا ساكنين في حي هادئ، والجيران كلهم متفاهمين، وبدون خلافات أو نكد بينهم، وصدقيني هذه اكبر نعمة.

- كثرت السيارات في عمان بشكل عجيب، ولا أدري كيف سيكون الحال بعد خمس سنوات أو عشر، إذا كانت مدينة عمان الآن ضيقة وغير واسعة للسيارات الحالية، فكيف عندما يتضاعف عددها مرة او مرتين؟ والطرق التي داخل المدينة تظل نفسها، فكيف ستتسع للسيارات الأكثر، ولا نرى أي مشاريع تطوير او توسيع للطرق القديمة، سيصير الماشي يصل لأي مكان في البلد قبل السيارة. والله رايك مناسب ياجارتي،إذا مسجلكم صالح اطلبي البنت أن تحضره، من لا يحب الطرب والموسيقى؟؟ يالله اسمعينا عددا من الأغاني ريثما يرجع ابني من عمله، وعلى الله ننسى هموم الدنيا.

- يا إم مسامح كل ما تزهقي انزلي عندي، نتحدث ونشرب الشاي او القهوة، ونسمع أغان، ونستمتع بمنظر تنقل الطيور على الأغصان وبتغريدها، ونحن نحدث بما يروق لنا، وأنت عارفة كبرنا وما عاد يطلع لنا حرية العمل حتى في بيوتنا، انظري انظري، ذاك عصفور يتابع عصفورا آخر.. لماذا؟

- وتسألين لماذا؟ يعني هل يعقل انك لاتعرفين؟ اللاحق ذكر، والتي تهرب منه انثى، وراءها وراءها، وهل نحن سالمون، حياتنا مثل هذه الطيور البرية، لكن ليتنا نقوى على الطيران مثلها، حتى ننأى عمن لا نحبهم ولا نريدهم أن يقتربوا منا.

- والله كلامك حلو يا أم مسامح، خبيرة في كل شيء ياحجة سمحة، سمعينا الكثير من حكاياتك وأخبارك القديمة أيام شبابك، بصراحة الجلوس معك مريح، والتحدث معك مسلّ!

تسرح ام مسامح بعيدا بعينيها، تهمس في أعماقها، ثم تهمس قائلة، (ليس في الإمكان، أكثر مما كان) في إمكان الإنسان أن يعثر على اصدقاء بين المشاغبين والمتعبين وفي اي يوم، ولكن من الصعب ان نعثر عليهم بين الناجحين والمتقدمين، والناس يفضلون ما يصعب عليهم الحصول عليه عادة، تواصل سمحة التحدث بصوت هادئ خفيض، كأنها تحادث نفسها، هل هو التحدي او محاولة الانتصار على امر يستحق التعب؟ كثيرون لا يريدون الصحبة السهلة والرخيصة، خفت صوتها بحيث أصبح غير مسموع، تقول في سرها، كيف انجذبت هذه السيدة الجارة لي، لم نكن على وفاق عندما سكنا هنا، فهل هي من المشاغبين والأشقياء مثلي ياترى؟ هل تحاول التغطية على ماضيها، او تحفيزي للانفتاح معها، حتى تجد نفسها هي الأخرى آمنة للتحدث عن ماضيها؟ ما الذي أثارها للاهتمام المفاجئ بي؟ صحيح كما قال الشاعر العربي (ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا.....) ومع هذا عرفت من التلفاز والمسلسلات أن لابد من وجود إنسان على هذه الأرض تعجبه او يعجبك صوته او نظرته بعقلك او بعفويتك او عبر نبضات قلبك .

- أين سرحت بعيدا يا أم مسامح، اشربي!، اشربي قهوة، وهذا الماء امامك.

- شكرا يا جارتي ام رباح، غلبناك وغلبنا ابنتك معنا، لماذا لا تنادي على ربيحة لتقعد معنا؟

- بنات اليوم لا يعجبهن الجلوس مع الأمهات او كبيرات العمر، أمورهن مختلفة في كل شيء عما نعرف، او عما كنا نفعله ونفكر فيه في سنوات شبابنا.

- سبحان الله، والله انك بنت حلال، لاتذكريني بايام زمان؟ ياالله ما ألذ قهواتك يا أم رباح، صحيح قهوة معدلة، وغير ناقصة شيء، وعلى اصولها، تسلمي وتسلم تربيتك لابنتك ربيحة التي تتقن صنع القهوة.

(( منقول للاستفادة من بعض ما فيه عن اريحا والمخيم))

أول ما انتقلنا من أريحا لمخيم عقبة جبر، والمخيم صار يكبر ويزيد عدد سكانه، ولأن الغور دافئ، والملابس قليلة، والفلوس شحيحة، الكثيرون من المهجرين الفلسطينيين فضلوا الانتقال إلى المناطق الدافئة شتاء، ولو انها حارة صيفا، وفي السنة التالية أدخل والدي أخي للمدرسة، كنت أتابع أخي سمحان وهو يحاول ان يكتب، ومعه اقلام ملونة، أحاول أن أتعلم منه، لكن كثرة شكاواه من المعلمين، أخافتني من المدارس ونفرتني منها، وبسبب انشغال والدي بالعمل الشاق، لتوفير حاجات اسرته الكبيرة اليومية، كنت صغيرة عن عمر المدارس أيامها، لكن كنت أرافق والدتي للمسجد لسماع الدروس الدينية، سواء حين كنا في أريحا أو في المخيم، والأمراض في الغور كانت قليلة، ومن يمرض يذهب للمستوصف الذي كان به أجهزة بسيطة وأدوية مسكنة، مثلال أسبرين وكبسولات البنسلين، وأكثر ما كنا نعانيه هو الجفاف في فصل الصيف، لقلة المياه النظيفة والصالحة للشرب، ولارتفاع الحرارة، لكن الأغذية الأساسية كانت متوفرة للناس من وكالة الغوث، مثل الحليب الجاف والبيض وزيت السمك والسردين، لهذا لم تنتشر أمراض خطيرة بين الناس، ثم إن الفلسطينيينن أصلاً يحبون النظافة، وموظفو الصحة العامة دأبوا على استخدام المبيدات الحشرية في المنطقة، ورش رؤوس الأطفال وخاصة البنات بمحاليل قاتلة للحشرات والقمل، وبهذا كانوا يخففون العبء عن النساء، والأمهات بشكل خاص.

كانت والدتي وقريباتها يذهبن لجمع الحطب أو للبحث عن خضار برية في المناطق القريبة، والحطب نستخدمه لإشعال النار للطبخ أو تسخين الماء عليه، او لعمل الشاي، وحين صار عمري خمس سنوات صرت ارافق والدتي للبحث معها عن الخضار البرية، وكي تعلمني كيف اعرفها وكيف اقطعها واجمعها، مثل الخبيزة والسبانخ والسلق والبقلة، والعكوب والحميض وما شابه، ومع توالي الأيام والأسابيع، لم تعد المنطقة المجاورة قادرة على إمداد السكان بحاجتهم من الحطب أو من الخضار البرية، ما جعل عملنا يغدو مرهقاً، وكنا نخرج من الصبح حتى غروب الشمس في البرية، نقضي النهار بطوله دون أكل فيها.

كانت والدتي تطبخ لنا جميع الأنواع التي نتمكن من الحصول عليها من البر، او على أطراف السيول، أو ما نشتريه من السيارات المتجولة حين تتوافر مع والدتي قروش قليلة، وتنوع لنا والدتنا في الطبخ، ووالدتي ومعظم الفلسطينيات يعرفن طرقا مختلفة للتصرف بالخضار، فالبندورة مثلاً نأكلها اما سلطة او طازجة كأنها حبة تفاح، او مخلل مكبوس أو نجففها في الشمس لنستعملها شتاء، وكذلك الخبيزة كانت والدتي تطبخها لنا إما مع فتافيت من عجين طحين القمح، او لوحدها باوراقها الخضراء، والفقوس نأكله طازجاً، او نخلله لحفظه ليبقى عندنا طول السنة، او نأكله مع قليل من الملح، او نغمسه في السكر لنأكل الكثير منه.

ظل والدي مواظبا على البحث عن عمل يناسبة ويقدر عليه، ومن خلال معارفه وذكائه بقي يتواصل مع أناس واعين، فكان يذهب لأريحا مرة أو مرتين كل أسبوع، باحثاً عن بساتين المدينة ومزارعها والتعرف الى أصحابها أو من يديرها. وفي سوق أريحا، تعرف أبو سمحان على بعض المزارعين من أبناء أريحا الأصليين، وفي إحدى المرات التقى بصاحب أحد البساتين الكبيرة، فعرض عليه الرجل العمل معه، وقبل ان يوافق والدي على العمل، اطلع على أحوال البستان وما فيه من أشجار وثمار وخضروات، وبعد التعارف والحوارات والمناقشات، فهم الوالد عن طبيعة العمل المطلوب منه، فاستمهله والدي اسبوعا ليفكر ويبلغ عائلته، ويتدبر أمر غيابه عن أسرته التي تقيم في مخيم عقبة جبر، تحدث والدي مع زوجته، وأشبعها من نصائحه وتحذيراته، وأصرّ على أنه سيقبل التحدي ويعمل بعيدا عن الأسرة، لكنني سمعته يخاطب والدتي قائلا "أنا اعرفك يا بنت العم، أنت ام ناجحة وشريفة وغيورة على اسرتك وشرف العائلة، وغيابي عنكم لن يطول، فسأحضر آخر كل اسبوع لقضاء ليلة او ليلتين، لأطمئن على اسرتي، فالرجاء أن تهتمي بتربية اولادي وبناتي يا فتوحة، ولم يكذب من سماك فتوحه، فأبق عينيك مفتوحتين على الحياة والناس والأسرة، ومن جانبي سأعمل على توفير الحياة الكريمة لك ولأسرتك، والاتكال على الله" .

قبل والدي العمل في البستان الكبير، حمشان نفسه لم يكن على خبرة بالتعامل مع النخيل، لكنه بدأ يجهز نفسه للقيام بهذه المهمة الصعبة، وبالابتعاد عن البيت والعائلة للعمل الشاق والطويل، على أمل بتحسين الأحوال المعيشية لأسرته. فاقتنى له حمارا يركبه للمسافات الطويلة في البستان وما حوله، وللوصول إلى مضارب البدو المقيمين حول البساتين في تلك المنطقة، وحرص على اقتناء كلب بلدي، اهتم به ودربه على التنبه لحدود البستان، والنباح القوي كلما شاهد أحدا يقترب من حدوده، إذ كانت السرقات سائدة بدافع حاجة الناس للفواكه والخضار مجانا وبالسرقة، كان مسوراّ بالأسلاك الشائكة. بعيدا عن أريحا، وسط مساحات الغور الواسعة والجافة حيث الماء هي التي تعمر الأرض، والماء لا يتوفر في كل مكان في الأغوار، وخاصة ماكان منها بعيدا عن مجرى نهر الأردن، او بدون الآبار الجوفية، بدأ أبو سمحان يستدعي بعض أهله للعمل معه ومساعدته، صار يلح على ابنه الاهتمام بالمدرسة أو سوف يضطر لإحباره على العمل معه في البستان، وقد رزقت والدتي بابنتين وولدين آخرين، وظل والدنا يأمرنا بإطاعة الوالدة، زوجته العزيزة فتوحة التي نحبها كلنا، وحذرنا من مغبة عصيان أوامرها أو إغضابها في فترات غيابه.

أحب الحج حمشان العامل الفلسطيني الذي كان قبله في البستان، واسمه عرباوي، وهو بدوي فلسطيني من سيناء كبير في السن، كان الحج عرباوي يتمكن من العزف على الناي المصرية، وكان والدي يحب الطرب والغناء، مما زاد من حب والدي لعمله في ذلك البستان، وبدأت حالتنا الغذائية تتحسن، ونأكل بشكل افضل، وصارت والدتي تشتري للبنات ولإخواني بعض الملابس من اللاجئين الآخرين، لأن بعض العائلات كانت تتسلم البقجة من وكالة الغوث، ويجدون فيها قطعا تزيد عن حاجتهم او لا يحتاجونها، بسبب اختلاف العمر والأجسام، والمقاسات، وتحاول ان تتباهى بما تشتريه لنا، وتذكرنا بأيام البلاد والعز قبل التهجير القسري.

ولبعد البستان عن المدينة، ولا يوجد حوله إلا البدو الرحل بأغنامهم بحثا عن الكلأ والماء، والقلق كان يسيطر على والدي منهم، فهم الذين كانوا يحاولون الاعتداء على أطراف البستان، للحصول على اي ثمار، والبدوي قلق شكاك بطبعه وبسبب الظروف القاسية التي اعتاد عليها، في صراعه مع الطبيعة والبراري والإنسان الحضري، فتوارث البدوي طباعه الأصيلة في الغزو على الآخرين ومغافلتهم، وظل هذا الطبع اصيلا في حياة البدوي، ومع هذا كان يتم بعض الزيارات والتعارف والأحاديث بين والدي وبعض الرجال او النساء، ويتم الاتفاق على تبادل المنافع بتقديم لبن المخيض كمقايضة لموظفي البستان مقابل حصولهم على بعض المنتجات من الفواكه والخضار، مثل البلح والليمون والبندورة أو اي ثمار متوافرة.

وكلما زارنا والدي كل اسبوع، يحضر لنا الكثير من لبن المخيض، وأخبرنا انه اعتاد عليه وصار يحبه، فصرنا نحن وخاصة البنات ننتظر عودة والدنا لنأكل البلح او التمر مع لبن المخيض.

كانت تلك الفترة من أجمل الأوقات في حياة أم مسامح، بعد أن عانينا الكثير من البرد والحرمان والجوع ونقص المأوى،خلال السنوات الخمس الماضيات، منذ هجرة العام 1948، ولأنني اعتدت على اللبن الأسبوعي، صرت أطلب أن أرافق ابي للبستان، وبرغم طفولتي إلا أن حبي للبن المخيض جعلني أتردد على بيوت البدو وخيامهم القريبة من البستان، والجلوس مع أولادهم وبناتهم والنساء، فعرفت الكثير من الكلام والتصرفات منهم، وتذوقت طعم الحرية والاستقلال والجرأة أيضا معهم، وكنت استمتع جدا بحكاياتهم وأخبار غزواتهم التي ربما كانت خيالية او فيها الكثير من الكذب، لكنها متوارثة ويحفظون الكثير منها عن ظهر قلب، حتى اطفالهم والبنات خاصة ومن عمر خمس سنوات فما فوق، وصرت احب أغانيهم. وأحيانا كنت أرافق الراعي الصغير دون علم والدي، وبرغم صغره، كان أكبر مني في العمر بأربع سنوات، لكن كنت أعجب من خبرته ومعرفته بأشياء كثيرة لا أعرفها، فكنت أتبعه إلى المراعي الصحراوية القريبة حول البستان،عرفت الكثير من التعقيدات التي يلاقيها الناس في التعامل مع البدو، لكن مع الأيام، تعمقت معرفتي ببساطة البدو وطيبتهم، وتصرفاتهم وحريتهم التي يفعلون بموجبها اي شيء، بشرط أن لا يعلم أحد عن ذلك. ولمسني الراعي أكثر من مرة في اي مكان بطريقة خاطفة وكأنه يمازحني، العنه واسبه، ولكنني أجد أنني وحيدة بعيدة عن الناس ولا مساعد لي، فأسامحه ولا أرى في ذلك غضاضة، وحين عرف والدي أنني ابتعد عن البستان وارافق البدو عاقبني وضربني بحزامه وبيديه، وحرمني بعدها من زيارة البستان، وأوصى والدتي ان لا تسمح لي بالخروج من البيت إلا للمسجد فقط. حتى أنه حمل بندقية الصيد التي يستخدمها في حراسة البستان وتخويف المعتدين، وهددني بها، وأنه سيقتلني ويدفنني في نفس البستان كأي جيفة عفنة. انقطعت انفاسي وقتها، وشعرت بقرب الموت فعلا، وأنا أنظر لعيني والدي الغاضبتين والمحدقتين بي بحنق وألم.

كانت المواصلات بالباصات متوافرة بين المخيم ومدينة أريحا، لكن لأن البستان بعيدا أكثر من اربع كيلومترات عن موقف السيارات في المدينة، فضل والدي الذهاب لعمله في البستان على ظهر حمارته القوية الرفاصة، فمشوار الذهاب إلى البستان والعودة منه إلى مخيم عقبة جبر كان طويلاً ومملاً ومرهقاً، خاصة في أشهر الصيف الحارة، لكن حمارة حمشان كانت سمينة وقوية، خففت العبء عن والدي، الذي كان يقوم بزيارتنا عصر كل يوم خميس، يبيت ليلة بجانب والدتنا، ويغادرنا بعد عصر الجمعة، كنا ننتظر والدي لمعرفتنا بأنه سيحمل لنا معه فواكه او خضار او لبن المخيض، لم يكن الحليب مقطوعا في المخيم، لأن وكالة الغوث ا لدولية كانت توزع الحليب الجاف على العائلات، او يطبخون الحليب لمن يرغب، ويغرفون له من القدر الكبير، قدر لترين، وخاصة في أيام الشتاء الباردة، كانت والدتي فتوحه تنتظر زوجها بفارغ الصبر لتقدم له أعز ما تستطيع من طبيخها الذي يحبه والدي، وفي المقابل تجهز له لائحة من الشكاوي أكثرها ضدي، لم يكن والدي يتسرع في عقابي، كثيرا ما حصرني في زاوية وهددني بالضرب او الحبس، او انه سيأخذني للبستان ثانية ويربطني بشجرة بحبل طويل حتى اظل بصحبة الكلب قرب مضخة الماء التي لا تتوقف ليل نهار، أو انه سيضعني في العمل عند أناس ظالمين لا يعرفون الرحمة، قلت في نفسي أحيانا (سأجرب العمل في اي مكان، وليت ذلك يحدث يا والدي) لذا كنت أعاني صراعا نفسيا حادا، نهاية الأسبوع، أحب أن التقي بوالدي، وفي الوقت نفسه أكره يوم الجمعة لكونه يوم عقاب وحساب لي، أتنفس الصعداء حين أرى والدي وقد اعتلى ظهر حماره وأدار لنا ظهره عائداً إلى عمله. تناقض عجيب في نفسي، ومع كل هذا التناقض، كنت أحب والدي وأعجب به، وحين رافقته لشهر في البستان، كنت أشعر بالضيق حين أرى والدي مرهقا ومتذمراً، كنت أحرص على مساعدته قدر استطاعتي، او لو توقف لتجهيز الشاي او غسيل انية الطعام، لكنني بقيت عنيدة أحب حريتي، هكذا وجدت نفسي متمردةً على بعض تقاليدنا، وقد يعود السبب في ذلك، في أنني فتحت عيني على الحياة فوجدت أننا نعيش حياة قاسية، وأسرتي تعيش على ذكريات الضياع والهجرة، فكرهت الصهاينة والظلم وحكايات أهلي، فالتهجير القسري والحرمان الذي عانيناه في البداية، والقسوة التي عوملت بها، وقوة شخصيتي، وكلام الناس عن جاذبيتي، ثم وطولي وتفوقي على اي بنت في مثل عمري وحتى وعلى بعض الأولاد، كل هذه أثرت في شخصيتي، لكن ربما هناك اسباب اخرى لا أذكرها الان، جعلت مني إنسانا أريد العيش حسبما يروق لي قدر الإمكان، وأرى ان الرجل العربي يتمادى في امتهانه لكرامة المرأة وحريتها، فصرت أرغب في إثبات ان المرأة تستطيع ان تفعل المعجزات وكل ما يخطر ببالها ولو كان محرّما، ودون ان يعلم الرجل، ظانا انه ذكي وقوي وناجح في مراقبة أنثاه،تأثرا بما تعلمته من البدويات، ومخالفة بذلك أعراف عائلتنا المشددة وخلافا لجيمع إخواني وأخواتي.

**الفصل الخامس**

الشيخ

تدور الأيام والشهور بسرعة، حتى مع إحساسنا بثقلها، لكنها لا تتوقف.

بعد سبع سنوات من الهجرة، وما زلنا في المخيم، حضرت مع والدتي درسا دينيا في المسجد الصيفي القريب، وتجمعت نسوة كثيرات، كان الشيخ مصرياً أو انه يتحدث بلهجة مصرية، يتقن الكلام والتحدث عن الدين، وعن حقوق المرأة في الإسلام، وعن التوافق بين الرجل والمرأة والعلاقة بينهما، وربما تطرق إلى حق الحياة المقبولة لكل إنسان، وامور اخرى عن النظافة والتحفظ والحق والباطل، وان الله غفور رحيم إذا تاب الإنسان أو كلما تذكر وعرف انه اخطأ واعتذر لنفسه فالله سيغفر له، وكان يكرر دائما، (إن باب الرحمة والمغفرة مفتوح دائماً)، وبرغم صغر سني، كنت احب أن أسمع هذه المقولة، وأستبشر خيرا بها.

أي اننا لن نبقى مجرمين او فاجرين طول اعمارنا، فالتوبة مقبولة ومفتوحة للجميع في أي وقت، وخاصة كما كان الشيخ يقول، (إذا كانت توبة نصوحا: اي عن صدق وإخلاص)

كنت صغيرة لا أفهم كل شيء اسمعه، لكنني صرت أحب حضور درس الشيخ لكثرة مرافقتي لوالدتي، صرت أستأذن والدتي لمتابعة الشيخ وسماع حديثه حين تكون مشغولة او لا تريد حضور الدرس الوعظي، وحين أصبح عمري ثمان سنوات، لم يحضر احد سواي في أحدى المرات، او انني ذهبت في يوم لا يكون فيه درس ديني عادة، لم يستغرب الشيخ قدومي، بل بشّ لي، وسألني إن كان لدي سؤال او حكاية أريد أن أسردها عليه، لكن الشيخ ادرك بسرعة بأنني طفلة ساذجة أبحث عن الحقيقة والتعلم، خاصة وانني شبه أمية لم أذهب للمدرسة التي كانت في خيمة إلا شهور قليلة، ولم يفكر اهلي بإجباري او نصيحتي للذهاب للمدرسة، يجلس الشيخ كعادته وبدأ ينصحني، على قدر مستوى عمري وقتها، يحاول إفهامي بكلمات سهلة وابوية، كانت نظراته تظل مركزة على عيني ورجلي وبطني. تململت وبدأت أحس بالملل، فمد الشيخ يده يداعبني ويدغدغني، فأجفلت وأنا أقهقه ووقفت، وكان أن أبعد الشيخ الملل عني، وقلت له بسذاجة طفولية، سأرجع لوالدتي حتى لا تغضب مني، ناولني نصف قرش، مكافأة لي على مداومتي لتعلم دروس الدين، وكلما ذهبت للدرس بعدها أحسن لي او قدم لي شيئا من الحلوى، صرت احسّ انه يقدم الدرس لي وحدي في كل مرة، حتى مع حضور البنات والنساء الأخريات، وبعد زياراتي الكثيرة للمسجد الصيفي مرة وقد بدأت افهم الكثير مما يقول، همس الشيخ في أذني بعد الدرس، وطلب مني التأخر او العودة للمكان بعد خمس دقائق، صرت أحب شيخي وأستاذي كثيرا، لاشك انه أفادني كثيرا بأمور ديني، وتحدث في دروسه عن واجب الزوج وواجب الزوجة، وطاعة الوالدين وأولي الأمر، وضرورة النظافة للمسلم، بقيت أتشاغل امام ساحة المسجد الصغيرة،أردت أن أقدم خدمة لشيخي، لأنني توقعت أنه يريد أن أحضر له طعاما من والدتي، او أن أذهب للدكان لكي أشتري له حاجة ما، رجعت لأسأله عما يريد مني أن احضر له، بادرته بالسؤال إن كان يريد خبزا او من طبيخ والدتي إذا وجدتها قد طبخت يومها، فصار يسألني عن امي وعن علاقتها مع والدي، وهل ينامان متجاورين، قلت له إنني استفيق أحيانا واجد والدي ووالدتي ملتصقين متحابين ووالدتي بملابس خفيفة تكشف الكثير من جسمها، مد يده على كتفي ثم رقبتي، حاولت الانسحاب، لكنه دعاني أن أثق به ولا اخشى ضررا، وصارت يده تعبث بشعري من الخلف، وتتلمس رقبتي، شعرت ان ذلك اللعب مسل من شيخي الذي صرت احبه، وأنه يحبني، وكم كنت بحاجة لمثل هذا الشعور، برغم انني كنت قلقة من تصرفه الذي لم أعهده من أي شخص قبل ذلك، إلا انني أحسست أنني اقلد أمي باستسلامها لوالدي، مهما طلب منها او اراد، وكأنه إحساس واستطلاع لما يفعل الرجال، لكنه إحساس غامض، لم اشهده تفصيلا او بوضوح، فظل الأمر غامضا بالنسبة لي، ومحل تساؤل في رأسي.

أتململ كثيرا وهو يتلمسني برفق وبيد دافئة وحانية جداً، جذبني لألتصق بجانبه، لكنني قاومت قدر قوتي، وجدتني أسأله:

- ياعمي الشيخ لماذا تحبني وتقربني إليك، والدي لايحضنني، ولا يلمس جسدي.

ف وجي بسؤالي، اتسعت حدقتا عينيه، لاحظ انني أنظر له وأتوقع جوابا او اي كلام، نظر للأسفل هز رأسه ونظر ثانية صوب باب المسجد، تنحنح ثم قال:

- سبحان الله، كيف يهملك ولا يدللك ويتلمسك، امر عجيب، أنت بنت ذكية وتستحقين الاهتمام، وأنا احببتك، واريدك ان تصيري أفضل من البنات الأخريات، وحتى افضل من النساء اللاتي يحضرن دروسي.

لم افهم الكثير مما قاله، لكنني أنصتّ له باهتمام، ويظهر انني ابتسمت ببلاهة وسذاجة.

شعر بضيقي فقال لي:

- اذهبي لبيتك اليوم، وموعدنا للدرس بعد يومين، سأخصص لك درسا خاصا بعد الدرس العام المقرر بعد صلاة العصر، وسأخبر والدك انني سأحاول ان اعلمك القراءة والكتابة تطوعا.

أخبرت والدتي ان الشيخ سوف يعلمني قراءة القرآن والكتابة، ووالدتي اخبرت والدي بذلك، والدي مشغول يعرف الشيخ المصري، لكنه لا وقت لديه للذهاب للمسجد، مع ان والدي يؤدي الصلوات الخمس يوميا في اوقاتها، ويشدد علينا ان نصلي ونخاف الله. وهذا شجعني على التواصل مع الشيخ على أمل التقرب إلى الله وفهم امور ديني. وعلى أمل أن يبلغ والدي أنني أستفيد من دروسه، وأحب التعلم، والدتي إنسان متدينة، وتعرف أن علاقة وطيدة ما تقوم بين والدي والشيخ، فلم تنهني عن حضور دروس الشيخ، ووالدي عرف ولم يمانع من الذهاب لحضور درس الشيخ في المسجد الصغير.

**الفصل السادس**

سحابة فوق رأسي، تشحبر صفحة السماء...

لم يكن والدي حمشان يحب البنات، فبعد بلوغ ابنته سمحة سن السابعة، صار يأخذها معه للعمل معه في البساتين والمزارع، فيطلب منها جمع الحصى من الأرض أو قلع العشب، او المساعدة في التقاط الخضار الفاسدةأو تصنيفها، او جني البندورة والخيار والكوسا، لم يكن يشدد عليها، لكنه له أهداف أبعد ربما، فهمت بعد ان صرت مراهقة، انه كان يريد إبعادي عن زحام المخيم، حيث تضطر الكثيرات من البنات والنساء للاختلاط بالرجال او بفساد ما، لأن الزحام كان كثيفا في مناطق المهجرين الفلسطينيين في الغور، سواء في عين السلطان في أريحا او مخيم عقبة جبر، وجميع مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، حيث تكون الخيام او بيوت الصفيح متجاورة أو شبه متلاصقة، بحيث يتمكن الجار أن يسمع معظم حديث جاره الأقرب.

كنت كلما جمعت قليلا من الخضار، أذهب له وأخبره بما فعلت، ليمدحني او ليظهر رضاءه عني، فأنا أحب والدي وأحترمه وأطيعه، وأريده أن يكون راض عني، كان يفعلها أحياناً، فيربت على كتفي، ويطلب من الطفلة ان تذهب لتنزيل ما تحمله في السلال والأوعية الخاصة، ثم ليجمعها هو وشركاؤه في مكان مخصص في البستان.

لم يتمكن والدنا أن ينسى كرامته المهدورة، ووطنه المسروق، وخيبة أمله في العودة لخيرات املاكه التي كان ينعم بها، وبرغم وجودنا في مخيم، إلا أننا كثيرا ما أحسسنا ان الحياة مع العائلة هي جنة في جو التوافق والانسجام والتعايش، لكم شعرنا بأننا وحدنا نستطيع ان نعمر المخيم والمنطقة بنشاطاتنا وتعاوننا ومحبتنا لأسرتنا ولجيراننا، لكننا ما إن بدأنا نكبر حتى بدات الحياة تواجهنا بعبوسها، وبمصاعبها ومستحيلاتها، صرنا نشعر بأن التوصيات والخطط التي تواردت لأذهاننا، الطفولية منها والجادة ماهي إلا مهدئات او مخدرات تزيد من يأسنا أو الإحباط.

كان والدي من وجهاء البلد والعشيرة، ومنزله مضيف للغرباء والوافدين والسمار، قال الكثيرون عنه، لم تكن لوازم القهوة تفارق مجلسه للرائح والغادي، يعمل عنده عمال مصريون وولدان من بدو السبع، وكلما غضب او انتكس في خيمتنا في المخيم صرخ بنا قائلا، ألا تعرفون كيف كنت اعيش في بلدي وارضي وبيوتي؟ إنني لا أقبل الفقر ولا أريد أن أحتاج أحدا، علينا ان نصارع الحياة وننتصر، علينا العمل والصمود حتى نعود، نعم إلى أراضينا سنعود، ولبيتنا الجديد سنرجع، وبصمودنا سيمكننا الله لما نريد، بنيناه قبل هجرتنا بثلاث سنوات وسيظل عزمنا كالحديد، فإن لم نساعد انفسنا فلن يساعدنا أحد، وأحيانا كان يتطرق إلى بريطانيا وتآمرها على فلسطين، فكان يقول، بريطانيا الغادرة، ستعاني في مستقبلها، ستبتلى بأيام سوداء يوما ما، وستعاني في تاريخها القادم الكثير، لضخامة إساءتها لشعبنا الفلسطيني المسالم الغافل، وعلى الظلم الذي ألحقته بنا، كان الأولى بها أن تعطي الصهاينة جزءاً من أراضيها، بدلا من مساعدتهم ليغتصبوا بلادنا، ومن الواجب عليها أن تأخذ جميع الفلسطينيين ليصبحوا مواطنين بريطانيين على ارض بريطانيا، بدل تسليم اراضيهم وبلداتهم للصهاينة الغرباء.

وحين لايكون موسم خضار او تعشيب، أخذ والدي يدربني بعد ذلك على نكش الأرض، وحصد القمح والشعير، وفي موسم قطف الزيتون يصحبني ووالدتي إلى قرى نابلس للمساعدة في قطف الزيتون بإيجار بسيط جدا، مع المونة، صار بعدها يضمن بستان زيتون كبير لأحد كبار الملاك، ترافقه والدتي وأولاده ليقطفوا الزيتون مقابل نسبة من الثمار، لم يكن والدي رفيقا جدا معي ولا مع البنات عموما، كان يصارح والدتي ويقول لها، أخاف على هذه البنت، فهي فصيحة وجذابة، كان يحب امي كثيرا، ويفعل كل ما يستطيع لإرضائها، لكنه كان يقسو عليها في الوقت نفسه، كان ذو شخصية غريبة، والدتي فقط هل التي كانت تعرف كيف تتعامل معه، وكيف ترضيه، وكيف تمتص ثورته حين يغضب، ومع ذلك لم أسمع والدتي تشكو منه او من قسوته، وسرعة غضبه ولجوئه لعقاب المقصر حسب مفهومه، كان علي أن أواصل العمل معه او له، وانفذ كلامه حتى لا يضايقني أو يغضب مني، إذ إن إرضاءه كان غايتي أنا وأمي وأختي، وحين اقصر او أتكاسل أو أفكر أن آخذ نصيبي من اللعب واللهو كأي طفلة، يسارع بأن ينهرني ويضغط عليّ ويهددني ويخيفني، آه كم كنت أخشى عصا والدي وعقابه، بيديه او بخيزرانته او حزامه، فلكم عانى هذا الجسد في مواقع مختلفة من ضرباته الموجعة، ولكم نظرت له نظرة استجداء واستعطاف حتى يتوقف عن ضربي وعقابي، وحين ينسى امر مخالفتي اوغضبه علي، يصبح إنسانا عاديا مثل اي اب متوسط الحنان، كان الجد يغلب على محيا والدي دائما، ونادرا ما شاهدته منشرح الوجه أو ضاحكاً إلا إذا ارادت والدتي ذلك، او كان جوهما هادئاً ومريحاً، فنشعر نحن افراد العائلة وقتها بسعادة غامرة، وهدوء ومرح، ونصير نمزح مع بعضنا بعضا، ونتطارد كأننا في جو طبيعي، حتى يصرخ والدنا بنا فنوقف كل ذلك النشاط، ويعود جو الجد للسكن البسيط الذي يحتوينا، كان يضطرني للعمل الجاد والمتعب، لأنه كما كان يقول، يراني اكبر من عمري، ويسمعني كلاما يختلف عن مستوى فهمي، وكوني طويلة زيادة عن معدل الفتاة الفلسطينية، سبب هذا لي مشاكل كثيرة لاحقتني مدى عمري، فلم أكن طويلة وكفى بل وقوية وبصحة ممتازة، وجاذبة لفتت نظر كل من شاهدني، ولم يصدف أن طرحتني فتاة او تغلبت عليّ في المزاح او الصراع الجدي أو العبثي، حتى ان اخي الأكبر مني كان يتجنب العراك معي، كنت بعافية أفضل من إخويّ الإثنين الأكبر مني سنا، وبالطبع اقوى وأفضل صحة من أخويّ الإثنين الأصغرين والأختين. وحتى يشجعني والدي على العمل، صار يمدحني أحياناً ويقول لي: أنت فيك فائدة أكثر من إخويك الأكبر منك.

وحين لا يكون عند والدنا عمل أومشروع من أي نوع، يبحث عن معارف، ويأمرنا أنا وأخواني بالعمل عندهم، يتركني أحيانا يوما او يومين عند شخص من معارفه يثق به، كان يعرف انني أخجل من الغريب، وأعمل بجد مع الآخرين أفضل بكثير من عملي مع اهلي، حتى وأخواي كانا يعملان مع الغرباء بنسبة أكثر جدوى من عملهما مع والدي، ربما لأن الغريب لا يخجل او لايقبل التراخي والمماطلة، وعموما معاملة الغريب فيها بعض اللطف أحياناً، فعملت في حصد القمح او الشعير او العدس او المشاركة في قطف الخضار، او حمل ما يتم قطفه لتجميعه لنقله بالسيارة إلى عمان إو القدس.

لم يكن بمقدور سمحة ان ترفض طلب والدها، فالعقاب عنده جاهز وشديد، سرعان ما ينزع حزامه الجلدي السميك ويبدأ بضرب أي واحد من أبنائه او بناته، كنا كلنا نخشى غضبه ونرتجف بمجرد أن يحتد طبعه.

حافظت سمحة على امانتها وقوتها ونشاطها، فكانت تعمل بجد وإخلاص تارة، او خشية العقاب تارة أخرى، امها تنصحها بطاعة والدها حتى لايغضب عليها ويعاقبها، ومع ان عمرها تجاوز العاشرة، إلا أن انتاجها كان يعادل اي شخص في الخامسة عشرة، وقبل دخولها سن الثانية عشرة تظهر عليها أنوثة مبكرة وتزدادة قوة وجاذبية بشكل لافت للنظر، خاصة وانها كانت فارعة الطول، ففي تلك السنة كان الناظر لها يقدر بان عمرها خمسة عشر،ولكثرة مدح العاملين معها لها، يتشجع والدها حمشان فكلفها بنشاط أكبر من ذي قبل، صار يعهد لها بأن تعمل مع معارفه، لأن عمله نفسه في المزرعة التي يضمنها ومعه اولاده كاف له، فصار يضمن لابنته عملا آخر على مدى العام وفي كل موسم، ففي موسم الزيتون يتركها للعمل مع متعهد، وهذا المتعهد يتعاقد مع شباب وشابات لقطف الزيتون وجمعه، فتحتك سمحة بأناس مختلفي الأشكال والعقليات والطباع، وفي موسم حصاد القمح والشعير يتم الشيء نفسه، وأما الخضار فهي مضمونة للعمل بها على مدار العام في مزارع الغور، بسبب دفء الجو شتاء وشدة حرارته صيفا، لم تفكر سمحة في الاعتراض على طلبات والدها في البداية، ثم بعد أن تعودت على البعد عن عائلتها، وجدت إن من الأفضل لها أن تظل مبتعدة عن قسوة والدها بتفضيل العمل مع الغرباء أو أصدقاء والدها، ووجدت ان العمال يعاملونها والعاملات بلطف ويمدحونها.

تتنحنح أم مسامح وتحاول ان تطهر حلقها، تكرر النحنحة، تتحرك يمينا ويساراً محاولة ان تريح عجيزتها، تحني ظهرها وتشكو وتتمطى شاكية من وجع في ظهرها وركبتيها، تشرب جرعتين من الماء غير البارد، تحاول الابتسام، لكنها تخفي ذلك، فتنظر من النافذة، فترى صفاء السماء الزرقاء، تحمد الله على الصحة، وتدعو الله أن يزيد النعمة عليها وعلى ابنها وأسرتها، تمتد أصابع يدها اليمنى لتفرد ثوبها وهي تتحسس ألم ركبتها، تعيد دسّ أصابع قدمها الظاهرة، في حذاء خاص بالبيت، ثم تواصل حديثها.

كلما فكرت باستذكار ماضي حياتي، يبدو لي أن كل شيء أصبح نائيا، بل كأنه ضباب شاحب، لا أرى التفاصيل عبر أجوائه، بل هي لمحات وخواطر تتوارد بين الحين والآخر، وكأنها شريط فيديو لأحداث متقطعة ولقطات متباعدة أحيانا ومتقاربة في أحيان أخرى، وقد تبدو للحاضر والغائب أن لا علاقة بينها ولا ترابط، لكنني في الوقت نفسه اتذكر بعض اللحظات التي خطّت اجزاء من حياتي فيما مضى، خيوط متقطعة قصيرة خاطفة في معظم الأحيان، أسعد بها، لكنها سرعان ما تهرب من امام ناظري، وعلى الرغم من كل ما مرّ بي من اوقات فرح او حزن او نكد أو إكراه، إلا انني أحمد الله على نعمة الصحة والعافية، وإيماني بالله لا ينقطع، ولم أقصد يوما مخالفة اوامره، ولم يكن لي يد في الظروف التي فرضت عليّ وعلى شعبي الفلسطيني، فكل ما مرّ بي كانت فوق إرادتي، وأعتقد أنها فوق إرادة اي فلسطيني، فنحن شعب بسيط مسالم، لم نكن نكره أي عربي، ولا نعادي أي إنسان من إخواننا العرب وجيراننا، بل كانت بلادنا واسعة وخيراتها كثيرة، تتسع للملايين من البشر، لنعيش جنبا إلى جنب دون حروب ولا تشريد ولا قتل ولا إرهاب، تتأوه أم مسامح، ترفع رأسها وتحرفه للجانب الأيسر، تنظر لصورة معلقة على الجدار المقابل، تنفخ زفيرا طويلا ، ثم تواصل كلامها:فلسطين ارض السلام ونبع المحبة.

وفي يوم ماطر على غير عادة في مناطق الغور بين فلسطين والأردن، ازداد هطول المطر وانحبس الناس في بيوتهم الصغيرة، كل يحرص على أن لا يدلف البيت، او تتمزق الخيمة من عصف الريح الماطرة أحيانا، لم يكن المطر عاديا وكثيراً في منطقة الغور، لكن هذه المرة أحسّ جميع سكان المخيم بغرابة ذلك اليوم، فانقطعت الحركة من الشوارع والأزقة، فضاقت نفسي من الحشر في البيت، ومن البرد، ففكرت بالهرب والخروج دون هدف كي أمشي في شوارع المخيم، وبينما انا كذلك والريح تطيّر فستاني الخفيف، وتصل برودة الهواء إلى بطني وصدري من أسفل ملابسي، خطر ببالي ان أزور المرأة التي زارت والدتي قبل أسبوعين، والتي أعرف منزلها جيدا، إنها جارة لأهل البنت المرشحة لزواج شقيقي، طرقت بابها الخارجي متعجلة، فنظرت من الشباك الصغير وعرفتني، فطلبت مني أن أفتح الباب وأدخل، كنت متعجلة للدخول، لأنني كنت أحس بالبرد والضيق من الهواء العاصف، وما إن دخلت حتى شاهدت نارا مشتعلة، فارتاحت روحي وحمدت الله في سري، إنني سأتدفأ وأسخن قطعة خبز من عندها على تلك النار، وحين اقتربت أكثر وجدت رجلا ممددا، ينام على فخذ المرأة، ابتسمت ودعتني للدخول، ترددت في البداية وكنت انقلب خارجة، لكن طبيعتي ورغبة حب الاستطلاع عندي، جعلتني استجيب لدعوتها، فتقدمت بحذر، واقتربت من النار، لكن عيني ظلتا على الرجل الممدود، شاهدت يده تختبئ أسفل ثيابها، ويده الأخرى تعبث بالنار والجمر، فسألتني السيدة هل تشربين من الشاي الذي جهزناه؟، ولقد شربنا نحن حاجتنا، لم أجب كعادة الفلاحين في فلسطين، والسكوت علامة الرضا، أبعدت يد الرجل ونهضت لتحضر لي كأسا فارغة، تناول ابريق الشاي الموضوع قرب النار والجمر، وسكبت في الكأس، ففاحت رائحة الشاي بالنعناع، ثم قالت لاشك ان الشاي مع الخبز جيد في الشتاء والبرد، وهذه نصف رغيف تأكليه مع الشاي، واترك لك ان تضعي كمية السكر التي تعجبك، بعدها مد الرجل يده دون أن يتحدث بكلمة واحدة، وأدخلها في صدرها، من فتحة فستانها الواسعة وكأنها ممزقة أو مشقوقة بقصد وعنف، نعم أكلت الخبز الساخن وبسرعة، لأنني كنت فعلا جائعة، لكنني لم أكن مرتاحة لما أشاهده من غرابة، في ذلك اليوم البارد خارج البيت، فنهضت بهمة لمغادرة المكان دون أي تعليق، مد الرجل يده وأمسك بي، وطلب مني ان أرتاح بجانبهم، فحرك يده ودفع السيدة بلطف لتتمدد بجانبه، وطلب منها أن تقنعني بالبقاء والتمتع بدفء المكان، ظل ممسكا بي لأكثر من دقيقة لأقبل بالاسترخاء والتمدد معهمما، فقالت السيدة لا تخافي ولا تجزعي، هذا الرجل طيب ويحبني كثيرا، وسوف نتزوج بعد أن يحصل على وظيفة، وهو ينتظر الدور والوعد بوظيفة تناسبه، ألا ترين لطفه وجاذبيته؟ هل تحبي أن تكوني صديقة له ولي؟ فأجبتها، إنني ما زلت صغيرة على الزواج ولي أصدقاء أتسلى معهم وألعب في الشارع أمام كل الناس، ولو عرف والدي لعاقبني وحرمني من مغادرة باب منزلنا، لم أفهم يومها لماذا يلتصق هذان الشابان، وكيف يحدث ذلك في مخيمنا، لم أطل الوقوف عندهما، بل أصررت على المغادرة، خاصة حين امتدت يده للأعلى واقتربت من ركبتي لملمت نفسي وركزت نظراتي على يده الأخرى العابثة بصدرها، فارتخت يده الممسكة بساقي، وانتهزت الفرصة وانسحبت بعيدا صوب الباب، لكنها ظلت مستمتعة تضحك وتتهزهز، غادرتهما ولم يشعرا بي، وكأنني لم أكن موجودة عندهم، وعدت مسرعة إلى والدتي، لعلي أجد والدي هما الأخرين ملتصقيين ببعضهما من البرد في ذلك اليوم، لكنني لم اجد في بيتنا نارا، ولا وجود لوالدي في البيت، أما صورة المرأة والشاب فظلت ماثلة أمام عيني دون أن أجد لها أجابة او تفسيرا، لقد أدخلت في روع الطفلة سمحة تساؤلا محيراً، لم يسبق أن شاهدت في أسرتها شابا غريبا يلتصق بامرأة ليست زوجته، أو والدته.

حين تمّ توحيدنا مع اهلنا في الأردن، أثبت الشعب الفلسطيني إخلاصه للبلدين وللشعبين، وعملنا معا على الحياة بأخوة ومحبة وما زلنا نتعاون على الخير، تقاسمنا لقمة العيش في كل موقع، وعمرنا أرض الأردن بالخير والبركة، وملأنا البلاد في كل موقع، ودون تمييز، فالفلسطيني هو إنسان عريق في المحبة والعمل والتعايش، وهو عربي قومي الشعور بالفطرة، يشعر بارتباطه بالأرض العربية ومع كل من يقيم على الأرض العربية، بحكم نشوئه في أرض مقدسة لكل الأديان السماوية، فلا حقد ولا ضغينة تدوم في نفوسنا، بل إن شعبنا متسامح، ومهيء دائما للتسامح والتغاضي عن صغائر االأخطاء والذنوب والخلافات، نحب الحياة والسلم والأمان والحرية وربما الكرامة، لكن اين كل ذلك؟ إن الكثير من الأسئلة التي تدور في عقل إي فلسطيني او فلسطينية لا جواب عليها، وسنظل معذبين في ظلام الحيرة والقلق مادمنا لا نجد الحرية والكرامة والمساواة والعيش الآمن على أرض فلسطين، وسيظل العرب وجميع العالم شقيا ومتعبا مادمنا محرومين من حريتنا، وممنوعين من العودة لأرضنا وبلادنا الأصلية، والعرب والعالم والشرق والغرب مخطئ ومضلل إن ظنوا ان العالم سينعم بسلام وأمان مادمنا محرومين من حرية العودة إلى فلسطين، والصهاينة سيندمون على كل تطرف قاموا به، وما زالوا يقومون بأنجس التصرفات وأخسّها، وأشدها قسوة على شعبنا الفلسطيني، نعم سوف يأتي يوم يندمون فيه على اليوم الذي أعلنوا فيه دولة لهم على أرض فلسطين.

على الرغم من أنني أمية لا أتقن القراءة ولا الكتابة، لكن كل ما قلته نابع من سماعي ومتابعتي لتاريخ شعبنا الفلسطيني، وما نسمعه من الأخبار والتلفزيون والمسلسلات التاريخية والوطنية، ومن معاناة وخبرة من واقع ما مرّ بي وبأهلي، وما سمعته من والدتي اولا ثم ووالدي، وسأتابع سيرة حياتي بكل إصرار، حتى يعلم العربي قبل الأجنبي، مدى ما وصلت إليه امور شعب قاسى الأمرين، وما زال يقاسي من الحرمان، وسيكون بعض العرب أكثر النادمين لتقصيرهم معنا، وتضامن بعضهم مع خطط الصهاينة ومن يؤيدونهم، أنا امرأة لا أستطيع ان أضرّ إنسانا او حيوانا، لكن أبناءنا الذين نربيهم ونغذيهم محبة الوطن، ونخبرهم عن قسوة الأهل والجيران علينا، سيجدون لهم دروبا ووسائل يحققون عبرها حريتهم وأهداف شعبهم المهدورة، وكرامة المرأة والرجل المظلوم، وستصحو القبيلة والعشيرة على ما أساءت وما تنكرت له في أوقات عصيبة، قد ينسى فرد فلسطيني أوعائلة واحدة أو أكثر، لكن عامة الشعب لا ينسى والتاريخ يدون ويحفظ كل المآسي والحسنات والسيئات، وسيقف الله معنا في الوقت المناسب، لنفتح عيون الفاسدين والضالين والظالمين، وأدعو الله أن يديم السلام والمحبة بين شعوب العرب، حتى لا تنقلب العداوة والبغضاء بينهم إلى حروب مدمرة، بدل مواجهة الأعداء والصهاينة ومن يناصرهم من الغرب او الشرق.

أشعر بمرارة وتعب ضاجّ في صدري، أحسّ بنبضي يزداد، ورأسي به مطرقة او طائرة حوامة، تتململ سمحة وتزفر نفسا طويلا، تنهض بتثاقل لتطلّ على بستان صاحب العمارة، فترى في بستانه، وحوله طفلان يلهوان، يقطف حبات من التين او قليلا من العنب عن اشجاره، ويقدمها للطفل الصغير السعيد، ينأى الطفل هاربا من والده، يريد مواصلة تتبع السلحفاة الصغيرة التي تسير خلف امها ببطء شديد، يمد يده ويلتقط السلحفاة الصغيرة، فتحرك قوائمها بسرعة وعصبية، فتلامس يده، يجفل منها خائفا، ويلقيها بعيدا عنه وعن امها، ينهره والده ويهجم على السلحفاة يقلبها لتقف على قوائمها، ثم يحملها ويسير بها يضعها قرب امها. يقترب الطفل يشاهد تقدمها، ومحاولة ابتعادها عن خطر الإنسان، يتوقف قط صغير الحجم، يراقب السلحفاة الصغيرة، فربما يهجم عليها، جذب الرجل ابنه ليعودا لمتابعة المشي عبر ارض الحديقة الصغيرة، تقدم القط مسرعا نحو السلحفاة الصغيرة، فانكمشت واختبأت داخل حصنها: قوقعتها، حاول تحريكها وتقليبها، لكن لم يستفد، فتركها وعادت تسير على حريتها في عالمها البسيط الصغير، راضية قانعة تنشد الحياة والتكاثر على طريقتها.

تحسنت حالتي النفسية لحظتها، وراق خاطري، تذكرت ابني وجهودي التي بقيت أبذلها وما زلت لدعم ابني، صرت أمشي على شرفة المنزل ذهابا وإيابا، اراقب المارة في الشارع العام قليل الزحام، أطفال يلعبون كرة القدم، بعضهم كان حافيا، والبعض كان بملابس نظيفة غالية الثمن، وآخرون بملابس قديمة بالية، توحدهم وتقربهم لعبة الكرة التي كانوا يحاولون ان يمارسوها برغبة وحماس وبسعادة، مما أدخل المزيد من الراحة لنفسي، وصرت احلم بموعد زواج إبني، وإنجاب طقل له أرعاه وأهتم به وأشجعه على اللعب والنشاط بحرية وكرامة، عاملا كل ما أستطيع لأضمن له حياة آمنة وحماية تجعله قادرا على مواجهة ظروف الحياة، والسعي للنجاح والاجتهاد في العلم والعمل، لحظتها حمدت الله انني ما زلت قوية، وبصحة مقبولة كي تظل شجرتي عبر ابني واقفة، تنتب أغصانا جدية وتعطي ثمارا طيبة.

الفصــــل السابع

دخلت في أجواء من فوضى لبيت والديّ بعد طلاقي من ابن عمي، اضطربت امي وابتليت بحزن لازمها ولا يقدر أحد على مساعدتها، زادت ملامح والدي تقطيباً وكلامه قل، وإن تكلم فبعصبية ونكد، لا يرضيه شيء مهما فعلنا له او احترمناه، ازداد تضامننا انا واخواني واخواتي وتقاربنا اكثر، صار الكل يتجنب بحث موضوعي، بل يكرهون هذه السيرة إن صدف ودخلت في مجرى الأحاديث البيتية.

ابتعد والدي عن والدتي، وصار يسهر خارج البيت إما في المقهى أو مع صديق له او أكثر، وأحيانا يخبرنا بأنه سيسافر إلى عمان ويغيب يوما او يومين، وحتى ثلاثة في بعض الأحيان، أما أنا فانتابتني مشاعر متضاربة، ويلي ابني المقعد المعوق والذي اضطررت لتركه في عهدة والده ثم والابنتين.

وويلي همومي في بيت أهلي، وضخامة المسئولية على والدي، اعرف موقفه وحزمه وتبرمه، مع ان والدي صامد صلب يقوى على احتمال اقصى العقبات والهموم، لكنني لا أستطيع احتمال نظراته القاسية، ولم اتمكن من معرفة أهو نادم على تزويجي لابن اخيه، او غاضب مني؟ لكن ما يخفف عني انه وافق على تركي ابن عمي، بل شجعني، ودليل ذلك حرمني من اصطحاب ابنائي الثلاثة، ولا أنسى طريقة كلامه لي، يخاطبني ويخاطب جميع الأسرة بقسوة، أو بشبه اوامر مقتضبة وباختصار شديد، ولا يعيد اي كلمة او يطيل في طلبه، حتى لو لم نسمع امره، فلا يزيدنا توضيحا لو سألناه عما يريد، كان هذا يحزننا جميعا، ويقلقنا، نحس بأن العالم صار ضيقا، وان بيتنا زنزانة فرضت علينا، ذلك البيت الطيني، والذي سقفه من القش والحصير وسعف النخيل، صار محبسنا، نضيق به، ولا نقوى ان ننأى عنه.

كل فرد في الأسرة يكاد ينعزل عن الآخر، ولا يريد ان يبوح بما في نفسه وكأننا كلنا فقدنا فردا عزيزا على جميع اسرتنا، ننظر للأرض او للسماء او للأفق البعيد بلا هدف، وكأننا نهرب من نظرات بعضنا بعضا، أهي الحياة هكذا يا ترى، هل عثر أي منا على طريق لغد أفضل؟ الناس كلهم في همومهم ومشاكلهم، والكل يخفي عن الكل حاجاته، الكل يحادث الآخر باسما او جادا، لكنه يحاول الابتعاد كثيرا او قليلا عن خصوصياته، ولي أنا نفسي خصوصيات لا يعرفها أحد، ولا يقبلها أي فرد في أسرتي، على الرغم من مشاركتي لأسرتي وحزني على فراق ابني وابنتي من ابن عمي، إلا انني اشعر بقوة جديدة، دخلت تجارب قاسية وصعبة وخرجت منها منتصرة، فكيف سأهتز أو أنهزم، وقد تحصنت بخبرات وإمكانيات تحسب لصالحي؟

لكن لا بد من الصبر والتفكر في اموري بجد، وعليّ أن أحاول ان لا أبوح بم مر معي لأختي أو اخبر والدتي عن كل ما جرى معي، علما بأنها تعرف حادثة واحدة حين ازال الرجل المزارع بكارتي رغما عني في المرة الأولى، بعدها بدأت أعرف الرجل والحياة ومتطلبات المعاش والمجتمع، واستفدت كثيرا من تعامل والدي معي ومع والدتي وإخواني واخواتي، إنه إنسان نظيف شريف مستقيم جاد، يعرف ماله وما عليه، ويقوم بواجبه خير قيام وقدر استطاعته، لقد شقي وعمل بجد واجتهاد ليحمينا من حاجة الناس، وبقينا نشعر في ظل حرصه علينا بأننا أفضل من الكثير من الأسر التي تشاركنا في التهجير القسري، وفي الإقامة في مخيم تأسس أصلا لنا، لللاجئين الفلسطينيين الذين يرغبون الإقامة في أجواء الغور، فلا ميزة لشخص على آخر، كلنا في مخيم، وكلنا نعتمد في طعامنا ولباسنا على الإعانات الدولية، وكلنا في بيوت ضيقة او واسعة لكنها كلها من الطين وسقوفها من القش، وبعض البيوت من الصفيح والأخشاب غير المنتظمة، والدتنا ظلت تطيب خواطرنا، وتقول لنا احمدوا الله على نعمة الحياة وعدم حاجة الغير، تمدح زوجها وتقول (والدكم يحرص على حمايتكم وتأمين الضروريات لكم).

لم يصبر والد سمحة على ابنته طويلا بعد طلاقها من ابن عمها، بل صار يبحث لها عن زوج يسترها، كان لوالدها حمشان علاقات جيدة ومتشعبة مع الكثير من المعارف، من اللاجئين أنفسهم ومن أهالي بلدتنا الذين اقاموا معنا في المخيم، او ممن اقام في شرق الأردن، فدله شخص ما على شخص توفيت زوجته حديثا، وعنده الكثير من الأولاد، ويبحث عن زوجة تملأ الفراغ الذي خلفته زوجته بعد مرضها ووفاتها، ولخدمة اطفاله الستة، فتحدث حمشان مع ابنته كي تقبل ان تترك ابنتيها وابنها المعوق لرعاية والدهما الكسول، رفضت سمحة الفكرة في البداية، رغبة منها في إبقاء اطفالها الثلاثة معها، وخاصة وان ابنها ولد معوق حركيا، إن عقله سليم، لكن يديه ورجليه ولسانه كلها معوقة، لا يستطيع تحريكها بإرادته، ولأن والد سمحة لا يريد ان يربي اولاد ابن اخيه لأنه هو نفسه مرهق من الاهتمام بعائلته، فهو في ضيق دائم ويعاني ألما نفسيا حادا، فضيقه من حاله وحال أسرته التي تعاني مثله، لايجعله قادرا على احتمال المزيد من العناء والمصاريف والخدمات، وقد يسبب له تعباً ونكدا مع زوجته فتوح التي يحبها كثيرا، ويحرص على إبقائها على طبيعتها، دون ضغط، ويكرر قائلا دائما، يكفيها مالاقت من عناء وظلم بعد تشريدنا وحرماننا من النعمة التي كنا عليها قبل التهجير، وكما يقول المثل، الفقر يعلم قلة الأصل، أي عدم الاهتمام بحال الآخرين، ويتذكر الأثر السائر بين الناس، ((لوكان الفقر رجلا لقتلته)) ولآنه دأب دائما على تذكير كل من يحادثه عن البحبوحة التي كان يعيشها في منطقة بئر السبع قبل التهجير، فهو ناقم على الأعداء والدول العربية وكل العالم الظالم وتكالب القريب والغريب على الفلسطينيين، ثم يرى أن أسرته كبيرة، همه أن يقوى على تأمين حياة معقولة ومقبولة لهم، كان يتمنى أن يكمل أبناؤه التعليم الثانوي، وربما الجامعي أيضا، لكن الظروف والضيق الاقتصادي، لم تسمح بذلك، فأودع اولاده للعمل في أي شيء منتج، ليخففوا العبء عن والدهم، لكل تلك العوامل، رفض والد سمحة تحمل المزيد من المسئولية برعاية أطفال إبن أخيه الساذج، وأصرّ على ابنته أن تقبل أي زوج يغير حياتها، حتى لا تظل مهمومةبأطفالها من ابن عمها، أو تضطر للعودة لهم.

وقعتُ في حيرة شديدة، بقيت متعلقة بابنتيّ وطفلي المعوق من ابن عمي، لكن شخصية ابن العم الساذجة والذي لا يهتم بأسرة ولا بعمل ولا بارتباط، جعلتني في قلق دائم، ويتركني أفكر بما يلزمني وما يجب عليّ فعله، إنني أستطيع أن أعمل في أي مكان كما فعلتها قبل الزواج، ويمكنني إتقان أي مهنة زراعية او خدمية لإعالة اطفالي الثلاثة، لكنني سأظل في شقاء وبلا مستقبل كغيري من النساء، لأن ابني المعوق سيظل عبئا والتزاما علي كاهلي، ويحرمني من كل حياة او راحة، سواء قبلت العيش مع ابن عمي الساذج، او افترقنا عنه، وبقائي مع رجل ساذج كطفل، حارسة وراعية لإبن معوق يجعل مني أنسانا مسحوقة لا أمل لي بحياة تشبه الحياة العادية للمرأة العربية، ومن المؤكد أن ذلك لا يفيدني لا في الحاضر ولا في المستقبل، وسأظل محرومة من كل مذاقات الحياة وتائهة،ورهن إشارات الرجال عاملة لإرضائهم بجسمي وجاذبيتي التي يصفون، وهذا الشعور يجعلني اتوافق مع والدي بأن لا مستقبل لي ببقائي مع ابن عمي، او ببقائي مطلقة عزباء، ولا ادري إن كان من حسن حظي او سوئه، بأن الله خلقني طموحة أتطلع للحب والأمن والجمال والحياة المعقولة، فما الحل يا ترى؟ استغل والدي حيرتي هذه وسمع مني بعض الشكاوى والتوافق معه، وليس كل ما فكرت به شكوته له، فلجأ إلى والدتي لتساعده على إقناعي بالزواج من رجل جديد، عنده أسرة كبيرة بعد وفاة زوجته.

تدخلت والدة سمحة واقنعتها ان مهمة رعاية ابنها هي مهمة صعبة، ولابد ان ندع امره لله وللدولة لتربيته لعله يتقدم او يتحسن. وكالعادة والتراث تواصل الرجال مع بعضهم، وتضافرت جهود الوسطاء، فعرض علي والدي ذلك الشخص الأرمل، والقادم من الكويت باحثا عن زوجة ترافقه وتقبل إدارة المنزل وتربية أطفاله، اتفقت فتوحة مع زوجها، وأقنعت ابنتها سمحة على قبول رأي والدها بالزواج من درويش والد الأطفال الستة الذين ماتت والدتهم، على أن يتم الزواج بعد أسبوعين، ولترافقه إلى الكويت، بعدها صارت سمحة تتذكر كيف أجبرها والدها على الزواج من ابن عمها، وزادت آلامها كثيرا وهي تتذكر تلك الأيام والسذاجة التي جعلتها تقبل الزواج من رجل ليس كالرجال، وضياع اكثر من خمسة عشر عاما تحت طائلة الشعور بضرورة الطاعة واحترام التراث والتقاليد.

عندما تم زفافي لابن عمي، لم يعرف أحد من أهلي أنني لم أكن بكرا وقتها، فقد عرفت علاقة الرجل بالمرأة حتى قبل أن تأتيني العادة الشهرية، هل أضرّ بي صاحب المزرعة؟ أو انه أفادني كثيرا؟؟ عرفت الحياة الجنسية في سن مبكرة جدا، تذكرت الألم الذي أصابني وقتها، والدم القليل الذي نزل مني، واستمر ليومين، انقطع بعدها وشفيت تماما، لكنني أحست بوجع حين ارادني الرجل بعدها بأربعة ايام، أجفلت وصحت، ربما كان ذلك قلقا، لا ألما حقيقياً، فغير الرجل من تصرفاته وصار يتقرب لي ويقبل يديّ وخدي وجبهتي وفمي، فأشعر بأهمية خاصة، وأنا أنكمش في حضنه مستدفئة مسترخية، بعدها سرق كل خوفي حين مارس الجنس خطفا، كنت أخشى شدة الألم، لكن لمساته الناعمة كانت كالمهدئ أو المثير لحاجات هذا الجسد.

تصمت سمحة وتسرح بنظراتها بعيدا وتتنهد، تضع يدها على قلبها دون ا ن تفصح ان ألما ما أرهقها، ثم تبتسم وهي تهز رأسها، وتقول إنها الحياة، أحيانا تظن أنك سعيد، لكنك تكون في عمق التعاسة، وفي أحيان أخرى تحس بشقاء لأنك تعيس، في حين أنّ غيرك يتمنى لو يتمكن من العيش مثلك، لكن الأهم هو الرضا بحالك أو عدم الاستسلام، ومادمت تملك عقلا وبصحة جيدة، فيمكنك تغيير مساراتك دائما لكي تصل إلى مرحلة وسطى بين القبول وبين الرفض، ومن أوتي حظا فقد ينتقل للطمأنينة والاستقرار النفس والعقلي.

لكن الرجل صاحب المزرعة ذكّرها ان والدتها عانت الألم المؤقت نفسه، وكذلك زوجته، لكن كل ذلك لا يدوم، بل تلك النوبة هي مفتاح لحياة جديدة ينعم فيها الجسد بما خلقنا له، ففتح الرجل عقلها على أمور لم تفكر فيها كطفلة، وأشغلها بأماني مزيفة وبأيام قادمة، صدقت وعده لها بأنه سيزوجها لابنه، فصارت تفكرمتى ستجد نفسها زوجة لابنه كما وعدها او لشخص من اقاربه، ومناها ضامن المزرعة بالإحساس بلذة ومتعة كبيرة في الأيام والشهور التالية، في المرة الثالثة ومنذ الدقيقة الأولى اصبح كل شيء عاديا، لكنها لم تكن تشعر باللذة التي ذكرها الرجل لها، لكنها كان يعجبها احتضانه لها، ولملمة جسدها وإشعارها بانها مهمة وعزيزة عليه، لم تعتد على ان يهتم بها اب ولا اخ ولا عم ولا أي شخص من عائلتها من قبل، كانت تستجيب للمسات الحنان وتستسلم لها، وترى ايماءات الشوق والاستجداء في عيني ذلك الرجل والرغبة، وهو رجل المزرعة وصديق والدها، فتزداد ارتخاء واستكانة لتصرفاته وحركاته إرضاء له، وإخفاء لما حدث لها معه، وفي داخلها كلام كثير أهم مافيه، إنها لا تملك أي خيار، وكثيرا ما تساءلت هي نفسها عن حاله، هل الاعتراض والرفض سيريحانها، ام سيكون مصيرها الطرد والسجن في بيتها مع والدتها، وماذا سيحدث لو عرف والدها؟ فتنكمش وتتراجع إلى ضعفها واستسلامها، حتى تفكر بما يمكن أن تفعله مع المزيد من الوقت.

تمنت الطفلة المراهقة سمحة كثيرا لو واتاها المنطق والمعرفة، لتقول الكثير من الضيق الذي تعانيه والرعب، لو كشف أمرها، فقتلها لاشك فيه، وسيتم قتل الكثيرين اولهم ذلك الرجل الكهل، وأهلها وعشيرتها يتمسكون بالعشائرية وشرف العائلة، وما زالت روح البداوة تسيطر على عقول رجالها، وقد تتوالى الانتقامات بين العشيرتين. تجد الطفلة سمحة نفسها حائرة عاجزة عن إتمام أي فعل او قول، لا شك انها كانت تدرك انها طفلة وقتها، والطفلة تحتاج لحنان وتدليل، فهل كانت تأخذ بعض حقها مع ذلك الرجل،والذي أخذ على نفسه ان يدربها لنفسه فقط، وبأنانية وخيانة لثقة والدها به وبدناءة، بينما هي بدأت تتعلم التصرف بجسدها على طريقتها، لتتقبل مواقف تريحها هي الأخرى اولاً.

ففي ليلة ظلماء تقرر زفافي لابن عمي، لم يحصل عرس كبير لي مثل غيري من الفتيات، اقتصرت الحفلة على دعوة بعض أقاربي والجيران في مخيم عقبة جبر، وسهرة بسيطة في الشارع العام، النساء يغنين ويرقصن في المنزل، والرجال يشربون الشاي والقهوة والدخان في الشارع العام على كراسي قش قصيرة، غنى عجوز من لاجئي مدينة يافا بعض الأغاني الشعبية، وطبل له شخصان آخران، وبعد الحادية عشرة أطفئ مصباح الشمبر الذي يعمل على البترول، وتقدم ابن عمي وجذبني من بين النساء وخرج بي إلى غرفته الصغيرة بجانب بيت اهله الطيني.

ارتحت كثيرا ليلتها ان ابن عمي لم يكتشف انني لست بكرا، لم أكن قلقة في الواقع لهذا الأمر، فقد كنت أكملت الخامسة عشرة قبلها بشهور قليلة، وعرفت العلاقة بين الرجل والمرأة بشكل افضل بكثير من معظم السيدات اللاتي تزوجن قبلي بسنوات طويلة، كنت مهتمة ومتعجلة بعدها لتمام الزفاف على ابن عمي، لا رغبة او حباً به او بالجنس معه، لكن حتى أقنع نفسي بأنني أصبحت امرأة ولست ابنة بكر كما يظن والدي وعائلة عمي، فبعد أن اخترقني ذلك الرجل العجوز، واستغل وحدتي وانشغل اهلي عني، بدأت بالبحث والأسئلة بيني وبين نفسي، وأحيانا بيني وبين ذلك الكهل ، حيث صرت اتكلم معه كأنه مرشد او حكيم او شيخ مسجد او معلم، فيستغرب بعض أسئلتي عن البكارة والحمل وطرق ممارسة الجنس، وكيف تكون اللذة وما فائدة العناق او الاحتضان للمرأة، وهل الرجل يحب ذلك او لا يؤثر كل هذا على رغباته، ولماذا يشتاق الرجل للمرأة؟ لم اكن اشتاق لذلك الرجل جسديا، ولا لأي رجل آخر، بل تربيت على النفور من الرجال اصلا، بل حياتي كلها ابتدأت بالخوف منهم، اشعر دائما وما زلت انني عرضة للعقاب من الرجل، او من والدي أو من الله، كان صاحب المزرعة يستغرب حين أسأله عن شعوره، ولماذا لا يمارس الجنس مع زوجته ويكتفي بها؟، لكنني كنت احب ان اتلصص على ما بين فخذيه، وبعد شهور قليلة، صرت احس برغبة بسيطة في اقترابه مني ولمسي، وصرت أتمنى أن أظل موظفة عنده وعاملة مادمت أحظى باهتمامه، وبدخل ثابت دون قلق، فليواصل فعل ما يريد، ولأكن صريحة ما يريد كلانا، لكن دون ترحيب مني، وصار شعوري بالألم النفسي يقل أسبوعا بعد أسبوع، إذ خف كثيرا شعوري بلوم نفسي على فعلنا، فهل هو التعود ياترى؟ أو حاجة الجسد؟ او هي الخوف من الظلم والعبودية والسجن والتعذيب؟ كنت أكاد أحطم حياتي ندماَ وخوفا حين مارسها اول مرة معي، وحين وجدتني مضطرة لذلك، فكرت كثيرا بالموت وقتل نفسي بأي طريقة، كي أرتاح وأسلم من عذاب أهلي لو انكشف امري، لكن بعد مرور مغامراتنا الأولى بسلام، صار الندم يتناقص في نفسي، بل صرت أحس بانجذاب غريب في جسمي لما سيفعله الرجل بي، ولمرة واحدة أسبوعيا، دون أن أعرف سبب ذلك.

وبرغم مرور العشرات من السنين على تلك الأيام في الغور، ما زلت أذكر تلك اللحظات ولكم اتمنى لو يحدث معي الآن مثل ذلك، ولكم تمنيت لو ان ذلك الإنسان ما زال حيا، لقمت بنفسي بزيارته ومحاولة استرجاع سهرة معه.

بعد أسابيع وشهور من زواج سمحة من ابن عمها، كثيرا ما تذكرت حماس رجل المرزعة، ونظرات الجذب والشبق في عينيه، مقارنة بما يفعله زوجها ابن عمها، كان ابن عمها يطلبها للاستلقاء اي وقت يشاء ليلا أو حتى نهارا، فإذا شاهدها ترفع لباسها عن ساقها لتغسل الصحون، ناداها وطلب منها ان تنبطح دون تمهيد ولا كلام، وحين تماطل، يمد يده ويجذبها للأسفل، دون تجهيز ولا خلع ملابس او استحمام، ولا حتى تجفيف يديها من ماء الصابون والغسيل إن كانت تعمل بذلك، سرعان ما يمارس رغبته، ودون أن يلمسها او يتقرب لها، ثم يغادر البيت دون أن يخاطبها بكلمة ما، ولا تسأله هي عن وجهته، عرفت سمحة الممارسة الجنسية من قبل لكن بطريقة إنسانية وعاطفية وإغرائيه، اما زوجها الساذج ابن عمها، فبطريقة لم تسمع عن مثلها وتعرف انه حتى الحيوانات لا تفعل ذلك.

وما إن دخلت غرفة ابن عمي ليلة الزفاف، حتى طلب مني أن أنزع لباس العروس الأبيض الخفيف رخيص الثمن، تباطأت خجلا وحرجا وانا افكر ماذا عساه يفعل بي لو اكتشف انني لست بكرا، سبق وأبلغت والدتي بما سبق وحدث معي خلال ثلاثة أعوام في المزرعة، لطمت خدودها وبكت وصرخت وهي تكتم فمها حتى لا يسمعها احد، ثم صارت تضرب رأسها، بعدها هدأت ثم حمدت الله أنني صغيرة لم احمل، وبصراحة لم أكن اعرف انه لا يمكن ان تحمل المرأة إلا بعد ممارسة الجنس، المهم جهزت لي والدتي قطعة شاش غير ناصعة البياض، وعليه دم من الديك الذي ذبحناه قبل أيام قليلة، لفتها في منديل آخر، وأدخلتها في حقيبة قماش صغيرة، رافقتني حين خرجت من بيت أهلي، تباطأت في تبديل ملابسي، ففوجئت بضربة قوية على كتفي وظهري من عريسي ابن عمي، يأمرني بسرعة تبديل ملابسي وإلا تعرضت لعقاب شديد. لم يكن ابن عمي قويا ولا طويلا، أحسست وقتها برغبة مني للانتقام من الرجال، وشعرت انني أستطيع الإمساك به وصرعه والجلوس على صدره حتى يختنق ويموت، لكنني تذكرت انه لا ينوي أن يضرنياولا، وهو ابن عمي، ثم إنني لن أحس بألم ثانيا، بعدها سأصبح زوجة لرجل ما، وبعيدا عن والدي،وسأكون قادرة أن أرى نداء الطبيعة وبحرية اي وقت اريد. أحسست برغبة قوية لأرى جسد ابن عمي، لأنني كنت أحس بلذة ما مع الرجل الكهل الذي يثق به والدي في الأسابيع الأخيرة،علما بأن والدي حرم عليّ العمل مع رجال آخرين، بعد أن بلغت سن المراهقة، ونما جسمي بشكل لافت للنظر، لم أكن أفهم سبب اهتمام الرجال من كل الأعمار بي، لولا كلام بعضهم ووصف قامتي وجاذبية نظراتي ووجهي، وجمال تدويرة صدري على قامتي الممشوقة.

نبشت حقيبتي التي حملتني اياها والدتي، ثم سرعان ما بدلت ملابسي، لكن ابن عمي امرني أن انام في الفراش ولا داعي للبس الفستان الفلاحي الفلسطيني، لأن الوقت وقت نوم، ولما مد يده ليخلع سروالي ساعدته لا شعوريا وبحركة اوتوماتيكية، لا أدري كيف تم ذلك، ندمت على مساعدتي له في تلك المهمة، كان عاريا وقد سبق وخلع ملابسه، شاهدت أن جسده غير جذاب، أدار وجهه جهة الجدار كي لا أرى أعضاءه التناسلية، لكنني بقيت اتحرك حركات بطيئة ومتأنية ومماطلة، لكي أشاهده بوضوح، لأن الضوء كان ضعيفا جدا في غرفتنا الضيقة، أردت أن اقارن بينه وبين العجوز الذي اعتدت عليه خلاف ما يقرب من ثلاثة أعوام. سرعان ما أنهى ابن عمي مهمته، عاد واسرع بارتداء ثياب نوم ساترة، نام بعدها بعمق حتى الصباح، ونمت انا الأخرى براحة خاصة، ودون قلق من اهتمام ابن عمي ببكارة او مثل هذه الأسئلة.

سمعت قرعا على الباب صباح اليوم التالي، فإذا بحماتي تدعوني للنهوض من الفراش، والتوجه معها لغرفتهم لشرب الشاي مع الكعك والزيت والزعتر، افاقت ابنها، وطلبت منه أن يتبعنا. سررت باهتمام حماتي وابنتها بي، وأحسست انني صرت أحصل على شيء من الاحترام. وأكثر من سعد بعدها والدتي، حيث دأب لسانها على الشكر لله الذي سترنا، وعلى سذاجة ابن عمي وطيبة والدته، واحترامها لي، أحسست بعدها ان حياتي أصبحت لها قيمة نوعا ما، وأنني صاحبة بيت جديد، واكتفيت بابن عمي ليسترني، ويحميني من شرور الفساد واستغلال الرجال لجسدي، بسبب الحاجة، لأنني شابة ويلزمني ملابس نظيفة وطعام يكفيني، وسأظل مكافحة قوية قادرة على العمل والإنتاج، دون صغار ودون استغلال لحاجتنا، والأهم بالنسبة لي أنني وجدت ان لي بيتا يخصني، نعم إنها غرفة صغيرة لا سرير فيها ولا خزانة، لكنني شعرت أنني أمتلك بيتا وموئلا أشعر أنني حرة فيه، وقتها شعرت بأهمية الحرية والكرامة، أول ما فطنت له أن أشكر الله، وأشكر والدي الذي سـهّل زواجي، والدتي وخالاتي وجميع النساء الكبار اللاتي عرفتهن سمعتهن يقلن، (إن كل فتاة أوامرأة مصيرها الزواج، وإلا فالضياع، فالزوج هو البيت، والمحظوظة هي التي تجد لها بيتا تعيش فيه وتنام بحرية وفي أوقاتها التي تناسبها) لم أفكر بعواقب الزواج أي زواج، لم أفكر بأنني سأصبح أما بسبب صغر سني، وسذاجتي، وقلة المعلومات، لكن الذي لم أنسه وما أعرفه جيدا، إنني فلسطينية لاجئة، لا بيت لي ولا لوالدي ولا لمئات الآلاف من شعبي ولا استقرار لنا في الشتات، فحصولي على غرفة صغيرة وجدتها لي وطنا صغيرا، أحمل هويته ويؤويني ليلا أو نهارا، لم يخطر ببالي ماذا يريد زوجي مني، المهم انني أحسست براحة نفسية بطريقة ما، وبحرية أكثر بكثير من عيشي تحت سلطة والدي وبيتنا المزدحم بالإخوة والأخوات، وليت الأمر اقتصر على هذا، بل ولأن والدي كان معروفا وشيخ قريتنا وعشيرتنا، فكان الضيوف عنده لا ينقطعون، في الصيف ينامون في الحوش الصغير أمام البيت بعد أن نجهز لهم الفراش، وفي الصباح نعود لطيه، أما في أوقات البرد الشديد، او إن خشينا المطر، فيضايقوننا وننحشر كلنا في الغرفة الوحيدة للأسرة، نصطف بجانب بعض، كأننا جذوع أشجار مصفوفة على الأرض.

لم أكن على تواصل مع ابن عمي قبل الزواج، كنت أشاهده، وأعرف أنه إنسان ساذج كأنه مستهتر أو سكير، لكنه لم يكن يعرف السكر ولا اي شيء يخالف عاداتنا، إنما هكذا خلقه الله، لا يجالس الناس، ولا يتعلم أمور الحياة معهم، مما جعله يزداد جهلا على جهل، حتى انه إذا جلس على المقهى فلا يجامل احدا، وإن حاول احدهم أن يداعبه، سرعان ما يغادر المكان دون كلام، لا يستمع للراديو الذي كان وقتها أهم جهاز للتسلية والتعلم ومعرفة الأخبار، كانت غرفتي بجانب غرفة حماتي وابنتها. أحسست وقتها بأنه ابن العم، ولا بد من احترامه، ويجب أن يتميز على الغريب بأشياء كثيرة، فلم أفكر وقتها في ضعف شخصيته واستهتاره بالحياة والعمل والرجولة المطلوبة في رب الأسرة، ولا حتى في المطلوب منه او مني بعد اسبوع او بعد شهر او بعد سنة مثلا. المهم وجدت ملاذا أهرب إليه من الاعتداءات على حريتي وجسدي، ومحاولات لأغيار تطويعي حسب رغباتهم، او لأكون محطة متنقلة لكل طامع بسبب ظروف التهجير الفلسطيني، لكن انصب حرصي على أن أعيش كغيري من البنات والنساء اللاتي يجدن البيت والطعام واللباس كما يلزمهن، لا ألوم والدي ولا أكرهه، فهو محط أنظار الرجال في نجاحه وشهامته، لكن حرصه على بناته واسرته والعمل الجاد لتأمين عيش كفاف على الأقل لنا، جعله يقسو علينا جميعا ليس عليّ وحدي، وحسب رأيه بأنه يعمل على تنشئتنا لنكون مهيئين للمستقبل وهمومه وصعوبته، وأعترف أنني كنت ألمس انه يفضلني ويحبني اكثر من باقي افراد أسرتي، وكل ظنه أنني قوية وبشخصية لا رغبات لي تشغلني عن جمع الفلوس او العمل الجاد، لم أكن أشعر بحاجة لإشباغ رغبات جنسية او شوق او حب، بل كنت أعمل فعلا حسبما يطلب مني والدي، لتأمين دخل له أو لمساعدته في إعالة اسرتنا الكبيرة، وخاصة وأنني لم أقبض أي دينار نتيجة عملي عند الناس او معهم، بل كان والدي هو الذي يتولى تشغيلي وقبض نتيجة أعمالي، لم أفكر بالتذمر، بل كان همي إرضاء والدي أولا، والمساهمة في تسيير امور اسرتنا على أمل ان تتحسن أحوالنا وننتقل من الضيق في السكن وبيوت الصفيح لبيت يشبه او يقارب بيتنا الذي دأب والدي التحدث عنه في بئر السبع.

**الفصــــــــــل الثامن**

تتوالد الهموم من الهموم، وتنناسل الصغيرة من الكبيرة أو العكس ..

تتنهد والدتي فتوحة وتتحسر، تلملم اطرافها، وتضم كلتا يديها أسفل بطنها وهي جالسة على الأرض، وتخفيها بين ركبتيها، وتتذكر بعض ما جرى ليلتها، قبل سبع سنوات.

- سهرنا ليلتها في جو عائلي وفرح، بعد أن تعشينا أكلة المفتول الفلسطينية (الكسكسي) بحضور شقيقتي مدعوة هي وزوجها عندنا، لم ينس زوجي حمشان دعوة أخيه مع زوجته للأكل معنا، سهرنا بعد العشاء لأكثر من ساعتين، نشرب الشاي والقهوة، واكلنا المكسرات المملحة وبذور البطيخ، كان الوقت في فصل الصيف وشدة حرارته، وقبل انفضاض الجلسة الجامعة، سمعنا كلبا ينوح بصوت حزين جارح، قالت زوجة أخي:

- الله يستر، فال الله ولا فالك ايها الكلب الحزين، هل من شخص يبحث عن مكانه، وينهره او يطرده إلى مكان بعيد عنا؟فأجابها شقيق زوجي حمشان:

- وهل علم الغيب يوحى للكلاب؟

- لكننا عرفنا وسمعنا، انه حين يجوح الكلب او ينبح مثل النواح والتألم لا بد ان تحصل مصيبة وموت لأسرة قريبة من ذلك المكان.

- خافوا من الله يا ناس، هانحن كلنا مثل العفاريت، وما الذي سيجري لنا، ولا يشكو أحد حسب علمي من عائلتنا من مرض، ولا حتى من الجيران، توكلي على الله سيدتي، والكلب حيوان ولا يهمه شئون البشر، إلا خائفا او جائعا او حاميا لشخص أو غنم، هذه معارفنا وحاجاتنا للكلب في القرية.

تجيب زوجة شقيقي:

- أنا قلت الله يسترنا هذه الليلة او غدا، وإن شاء الله يكون الكلب يبكي لألم في جسمه أو شيخوخة، او جوع.

تفرق الجمع وانصرف كل إلى بيته، ونمنا ببطون مملوءة بما لذّ من طعام تراثي محبب، وما تلاه من مشروبات وتسلية ونقاشات واحاديث، تخللها ضحكات ومرح، شعر الجميع وقتها بحلاوة العمر وجماليات العلاقات الأسرية والتوافق والانسجام، وقرب طلوع الفجر، او مع الدقائق الأولى لبدء النهار في الإشراق، أقلقت منامنا قنابل ثلاثة بدويها في أطراف البلدة، ثم تلا ذلك سيول من الرصاص الحي، صوب المدينة الفلسطينية بئر السبع، لم تكن مدينتنا كبيرة بمثل معنى المدينة الحالية، لكن عدد سكانها لا يزيد عن خمسة عشر الفا من السكان في صيف ذلك العام 1948. سمعنا صياحاً وتألماً، وصراخا يدعو للهرب من الهجوم الصهيوني على مدينتنا، فلم نتمالك إلا وجدنا انفسنا نعمل للنجاة من الموت والخوف والرصاص، ولم يتمكن الناس من التقاط أنفاسهم، ولا حمل ما غلا ثمنه من بيوتهم، فالكل كان همه النجاة من الموت، ثم للابتعاد عن موقع الخطر، حتى تهدأ الأحوال، ويعود الناس إلى بيوتهم.

كنا نشعر ان اليهود في فلسطين هم مواطنون مثلنا، ولم نتوقع انهم يريدون البلد لوحدهم، قال زوجي حمشان، ربما يطاردون بعض المعارضين لسيطرتهم، أو يريدون الانتقام من شخص او أشخاص سبب لهم اضرارا، وماذا سيحصل لو غادرنا بيوتنا ليوم او اسبوع او اسبوعين فاليهود فلسطينيون مثلنا مثلهم، وكل الأمور تحل بالسلم وليس بالعداوة او بالانتقام، فبالتفاوص والتصالح تحل اكبر المشاكل، ولا ندري سبب الهجمات والتمردات التي تحصل على مدن وقرى أخرى، ما الحكاية؟ وهل يعقل ان يترك الناس بيوتهم وتظل البلد فارغة؟ اليهود لا يملأون مدينة واحدة في فلسطين، هل يريدون البلاد فارغة من السكان، ومن يزرع لهم ومن يعمل في المطاعم والمقاهي والمصانع الفلسطينية واليهودية؟ وماذا عن المساجد والكنائس والمدارس؟ ونخشى ان يهمل الأولاد مدارسهم وهم يرافقون أهاليهم هاربين؟ وفلسطين واسعة للعرب والمهاجرين الأوربيين الذين اضطرتهم عداوة هتلر النازي للهرب بحياتهم، فلم يضايقهم احد وهاهم يعيشون احسن عيشة بيننا ومعنا، ولا بد ان يتم التفاهم بيننا، كشعب واحد، والسلاح لا يحل كل المشاكل إن حصلت، فبلادنا فلسطين واسعة للمسلمين والمسيحيين واليهود. ضاعت كلمات حمشان في الهواء، ولم ينتبه لها أحد، صار يكلم نفسه ويحوقل ويتحرك بسرعة ليضمن سلامة أسرته، صاحت النساء وبكى الأطفال والكل يجري على غير هدى للخروج للشمال صوب اقرب موقع امين، وهي قرى محافظة الخليل والمدينة نفسها.

في الساعات الأولى من الخوف والتهجير القسري عرفت فتوحة أنها وصلتقرية السموع اولاً، وتقع هذه القرية جنوب الخليل، تأخر الكثير من الرجال يراقبون ماذا سيفعل الصهاينة المهاجمون، كان بعض الصهاينة الغرباء قناصين، وبعضهم غزاة بسيارات او بمجاميع مسلحة بأسلحة حديثة، ولديهم كميات كبيرة من الذخيرة، يطلقون جميع انواع الأسلحة صوب القرية والناس بلا تمييز، لا يتوقف إطلاق الرصاص وبعض القنابل طول الوقت، ويقومون بنسف بعض البيوت في أطراف أي قرية يصلونها، لإرهاب الناس وإكراههم على الهرب، وكل من وقف او برز أمام تلك الأمطار من الرصاص استشهد، وداسته سياراتهم أو أقدامهم، وإن كان مجروحا أكملوا عليه بقتله او تشفوا به أوتركوه يتعذب وينزف حتى الموت، بعد تفتيش جيوبه، كأنهم عصابات حاقدة، ويريدون من الفلسطيني كل شيء نقوده وبيته وأرضه ومدخراته وحياته، وكأنك تشاهد أفلام مهاجمة الرجل الأبيض للهنود الحمرالعزل، كان الفلسطيني أعزلا وغير مهيأ، لم يتوقع الفلسطينيون الحرب والهجوم المنظم عليهم يوما ما، وجد الفلسطينيون أنفسهم في موجة مفاجئة من العداء والاضطهاد على ارضهم وفي بلادهم فلسطين، بعد أن كانت بلاد السلام والأمان لكل الأديان، وحين تفاجأوا بتلك الهجمات العسكرية المتواصلة والهمجية، ولم يستطع الناس الحصول على السلاح للمواجهة السريعة والمفاجئة، ولم يكن في فلسطين اي منظمة او جماعة عسكرية منظمة قبل عام 1948، لمعرفة الناس أن الصهاينة قليلي العدد، ولعدم توقع أي إنسان لمثل هذا العداء السافر والمفاجئ وباستعداد كبير، وبأسلحة حديثة سريعة وقوية، ولم يتوقع أحد أنهم سيتمكنون من السيطرة على مشاعر الشعب الفلسطيني، بالترهيب والتعذيب والقتل الجماعي والبشع، لذلك لم يكن عند الناس احتياطات او استعداد لمثل هذا التطور غير المتوقع، فتولى مهمة المقاومة المزيفة أناس غير مؤهلين ولا مخلصين، ادعوا انهم متطوعون من الشعوب العربية المجاورة، ولكن تبين بعدها أن بعضا منهم كانوا ممولين من أجانب أو مخابرات دول تؤيد الصهيونية، وربما من العصابات الصهيونية نفسها او من فرنسا او بريطانيا، بهدف إلهاء الشباب الفلسطيني، وليثق الناس بهم، ويركنوا عليهم، لكنه ظهر للكثير من الفلسطينيين ان تلك كانت كذبة كبرى، ولم يستطع معظم الشباب المتطوعين الحصول عى اي قطعة سلاح مناسبة، بل اقتصر الأمر على الاجتماعات والخطابات وتدريبات المشي او المخيمات أو الحصول على ملابس شبه عسكرية، وحين اشتدت المعارك انسحب القادة المتطوعون لتدريب الفلسطينيين، وتركوا الشباب بلا أسلحة ولا ذخائر، فلسطين كانت ملاى بالشباب الجاهز للمواجهة والقتال، والوطني الوحيد الذي كان مخلصا وصادقا ومدربا على المواجهة العسكرية هو عبد القادر الحسيني، لكنه لم يتمكن من الحصول على السلاح وفي وقت قصير، تقاعست كل الدول العربية عن تزويد المجاهدين الفلسطينيين بالسلاح، واستشهد البطل الفلسطيني عبد القادر الحسيني مقهورا، في معركة القسطل، لأن الاسلحة كانت محظورة ومراقبة جدا من بريطانيا الغادرة أثناء انتدابهاعلى فلسطين، في حين تسهل السلاح للمنظمات الصهيونية وتدربهم في معسكرات جيشها مختلفة المواقع في فلسطين، ثم أن قادة الجيوش العربية كانوا أنفسهم بريطانيين أوفرنسيين او عملاء مدربين لخدمة اغراض السياسية الأوربية، وكان أي فلسطيني مهما كان غنيا، لا يقوى على تسليح نفسه وأولاده بأسلحة حديثة، وحتى لو تم ذلك فالذخيرة مكلفة ولا بد من توافرها وتواصل وصولها، مع ان الصهاينة كانوا يتلقون ملايين الرصاص التي يطلقونها يوميا على الفلسطينين أو عبثا في الهواء يتدربون بها، فهي تأتيهم تبرعا وسيولا من كل مكان في اوربا وفي أمريكا والدول الشيوعية أيامها، ولا توجد دولة اوربية لم تساعد الصهاينة بهذا التسليح، عدا عن أن دعم أمريكا وأموالها التي بدأت تنصب على العصابات الصهيونية بحجة مساعدة اللاجئين اليهود المساكين، للإقامة والتوطن في فلسطين الفارغة من السكان، حسب ادعائهم، ولذلك افرغوا معظم فلسطين من السكان، حتى يعرف العالم ويشهد، أن اليهود تسلموا فلسطين خالية من السكان تقريبا، على كل حال هذا الكلام يعرفه الغريب والقريب، وهو إعادة وتكرار بسبب القهر المكبوت في نفوس الفلسطينيين المهجرين.

في أطراف بلدة السموع، صارت والدة سمحة تبحث عن زوجها واهلها، لم تكن وحدها بالطبع بل جرت العادة وقتها ان تغادر النساء قبل الرجال لضمان وصولهن مع الأطفال لمكان آمن بعيد عن رصاص وهجومات الصهاينة، كان الفلسطينيون متعاونين مع بعضهم اثناء التهجير، فكان أهالي القرى والمدن التي لم يصلها التهجير يساعدون كل من هاجر، او اضطر للهجرة، يؤوون بعضهم أو يقدمون الطعام والماء وبعض الأغذية إن لزم ، فكانوا يشاركون المهجرين طعامهم مهما كان بسيطا.

توصلت أم سمحة لكبار السن من أقاربها للتوسط مع زوجها حتى يسامحهاعلى مخالفة كلامه، فسكت الزوج حمشان وظل مطرقاً كأنه نادم على فعلته، او يتمنى لو انه لم يترك زوجته في عزلة العراء والظلام، لكنه لم يفه بكلمة، وكأنه اصابه نوبة من الخرس والاستخذاء والندم، تكاثر المهجرون حول تلك القرية، ولخشية الناس من أن يتابعهم جنود الصهاينة الهاغاناة والأرغون وشتيرن، كان الجو قد بدأ يبرد ليلتها بالنسبة لأهل بئر السبع المعتادين على الدفء، فقرر حمشان والد سمحة أن يتبع نصيحة خبراء اللاجئين، فواصل ابتعاده عن ديرته إلى الغور حيث الدفء والمساحات الواسعة، وكان أول ما يبحث عنه اللاجئون هو الماء، فوصل مع اسرته إلى نبع عين السلطان في أريحا، حيث أمضى قرابة العامين هناك، لكنه لم يعجبه تزاحم الناس على نبع العين، ولا كثرة الناس في شوارع أريحا، وفي نيسان من العام 1950 انتقل إلى مخيم صغير جديد صار يتشكل واسموه مخيم عقبة جبر، حيث عمل هو وزوجته واولاده وبناته، فبنى لأسرته غرفتين من الطين مح حوش صغير أمامهما، صار بعدها يبحث عن عمل يشغله أو يجني منه دخلا يساعده على العيش كغيره من مئات الآلاف من اللاجئين، وقبل أن تنفذ الخمسين جنيهاً فلسطينياً من بين يديه، صحيح ان وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة كانت تزود الناس بالقليل من الطعام الأساسي، وبعض الملابس المستعملة، والحليب والزيت، لكنه يعرف أن ذلك لن يتواصل، بل لفترة بسيطة، إلى أن يدمن الناس على الوجود والغربة،وينسوا بيوتهم واملاكهم ونعيمهم الذي تركوه مضطرين، هاربين من الموت او التعذيب والحصار، فالخمسون جنيها قبل عام 1948 كانت مبلغا كبيراً، وفرها من نشاطه وعمله في معسكرات الأنجليز، ومن بيع منتجات ارضه وحيواناته القليلة التي كان يجني منها الحليب والجبن والمواليد.

تقول سمحة، اعرف أن حكايتنا مل الناس من تكرارها، وسمعت أناسا كثيرين في بلدنا الأردن يقولون، مللنا من حكاياتكم وكثرة شكاواكم أيها الفلسطينيون، تتكلمون كثيرا، ولا تفعلون شيئا لبلادكم، ثم تستدرك قائلة، كم رددنا على أمثال هؤلاء، كأن نقول لهم، اعطونا سلاحا، او اسمحوا لنا بالتسلح، واسمحوا لنا عبور الحدود، وابتعدوا عن حدود فلسطين، ونحن النساء سنقارع الأعداء إن تقاعس الرجال عن هذه المهمة، والكل يعرف ماذا يحدث لأي شاب او شابة تتقدم من حدود محتلي فلسطين، ثم إن الحدود كلها مزروعة بالألغام من الطرفين، فكيف يمكن أن نتقدم او نجتاز الحدود لمواجهة الأعداء او الهجوم عليهم؟؟؟

تكبر سمحة في المخيم ويصير عمرها ست سنوات، ومع مرور السنين، وفي عمر الكهولة لم تنس البيضة والتعريفة التي كسبتها من خروجها وحدها، أرادت أن تعود لنفس المكان، أحست الطفلة بشيء من أمان، فسألته بسذاجة الطفولة، (هل عندك قروش كثيرة ياعم؟ والدي لا يعطيني قروش، وسيضربني لو عرف أنني أخذت منك، أحبت الطفلة سمحة الرجل بعد المرة الأولى، فرجعت لزيارته حين غافلت والدتها بعد أربعة أيام، جذبها وقربها لحضنه، وكطفلة أن تلتصق به وتهدأ، وهو يقول لها سأعطيك قرشا وبيضة إن باضت دجاجاتي، قبل جبهتها، وهو يضمها له، كان وحيدا في خيمته وليس عنده زوجة ولا أطفال، أمسك بيدها ومشيا لقن الدجاجات الأربع المجاور للخيمة، فتحه فوجد بيضتين، وحين رجعا داخل الخيمة، قال لها بيضة لي وبيضة لك يا سمحة، أمسكت سمحة بالبيضة، فوجدتها دافئة، أدخل يده أسفل فستانها وهو يحتضنها، وتأكد انها لا تلبس سروالا، وطبطب على لحم بطنها، قائلا انت بنت حلوة لكن بطنك فارغة ونحيفة، ألا يطعمك اهلك طعاما كافياً؟، خذي البيضة والقرش، قالت له، لا أريد البيضة، حتى لاتضربني امي، وقبل مغادرتها، طلب منها ان تقبل وجنته ففعلت، فقبل وجنتيها، وأبقى فمه مدة أطول على خدها، ثم ركضت صوب الدكان، فاشترت حلوى رخيصة جديدة لم تجربها من قبل، لكنها حرصت على أن لا تعرف والدتها عنها، تباطأت الطفلة سمحة كثيرا في سيرها وهي تنظر فزعة حولها وخلفها، ودارت في الشوارع الضيقة والمتعرجة بين الخيام والعشش الصغيرة، حتى تأتي على كامل ما اشترت من الحلوى، حلوى صلبة وحلوى طرية، وبسكوت محشي، وشاهدت الكثير من الأطفال يلعبون مرحين، وقفت تشاهدهم، حسدوها على ما تأكله من الحلوى وما بقي منها في يدها، أعطت نصف بسكوتة صغيرة لطفل صاح يريد مما معها، دعوها لمشاركتهم اللعب، فاعتذرت ووعدت بالعودة للعب معهم بعد أن تخبر أمها، بقيت تراقبهم وهم يلعبون التخفي والحجلة والرفس والسباق، أحبت تلك الحارة، ولكنها تذكرت أنها خرجت مبكرة صباح اليوم، وعليها أن تعود للبيت، وبعد أن أنهت كل ما حصلت عليه من حلوى في ذلك اليوم، عادت لبيتها وكأن شيئا لم يكن.

**الفصـــل التاسع**

أصبحت الطفلة سمحة تحفظ تفاصيل المخيم عن ظهر قلب، الطريق إلى الفرن، والطريق إلى مكان توزيع المؤن، والطريق إلى مدرسة البنات، والطريق إلى الدكاكين القريبة والبعيدة، والكلاب التي تتجمع في الشوارع نهارا، وتصبح أليفة، لكنها مزعجة في الليل، وحين تبعد إلى أطراف المخيم، تصبح حرسا، تنبح على أي شخص يقترب منه، حتى تتأكد انها تعرفه، ويسهل عليها اكتشاف الغريب !!.

تتكاثر النباتات الصغيرة، ويكبر بعضها بسرعة قرب البيوت أو في ساحاتها الخارجية، يظهر ان الفلسطيني كما قالوا عنه هو شعب الخضرة والزراعة، حين تشتد حرارة الشمس أثناء تجوالي او ذهابي للمسجد او للدكان البعيدة، اقف في ظلال شجرة امتدت وعلت قامتها، وخاصة في فصل الصيف الحار، تكون الحرارة شديدة في جميع انحاء فلسطين والأردن، فكيف بها في الغور أخفض منطقة على وجه الأرض، في ظلال الشجرة أشعر بنسمة خفيفة تمر على عرقي الذي يتصبب على جبيني وأسفل ملابسي، فأشعر ببرود ناعم جميل، وعرقي يجف قليلا، فيزيد من إحساسي بالابتراد، تلفت نظري ألوان الأشجار التي اضافها اللاجئون الفسطينيون امام بيوتهم او في ساحاتها الداخلية، يروونها من الماء الشحيح المتوافر لهم، وأتنبه لتأثير تبدل الفصول والأشهر على مختلف انواع النباتات، تفوح ائحة الخبز من الفرن القريب، فتنتعش شهيتي للطعام، وأتمنى رغيفا ساخنا، للتو طالعا من النار، في أيام الشتاء، والهواء مشبع بروائج الطبيخ او الشاي بالنعناع، من البيوت المتلاصقة او المقهى حين تهب عاصفة او نسمة هواء قوية نوعا ما، أراقب ابواب البيوت تنفتح وتنغلق، وأرى الكثير من المتربصين، ينظرون خلفهم او يتلصصون على غيرهم والبضائع، لعلهم يجدون فرصة لاقتناص ما تطلبه نفوسهم، او يتطلعون له، وتظل السماء مجالي الرحب لإطلاق نظراتي للبعيد نحو الحرية والتسامي مع الأحلام، سماؤنا الزرقاء الصافية صيفا تحملني إلى عالم بريء نظيف، تهدئ أعصابي، وتجعلني أحس ان الحياة سهلة وجميلة في أجواء سماوات فلسطين الهادئة الناعمة، وتجعلني اتصور حيوانات بلادي حرة سعيدة، تتوالد وتتكاثر وتتجول بحرية واستمتاع، لا يضايقها عدو ولا كاره ومعتد أثيم.

يمتد المخيم ويتسع يوما بعد يوم، ومن لم يعش في مخيمات اللاجئين، فلا يستطيع أن يتصور كيفية حياة الناس وتعاملهم وتزاوجهم وتجانسهم، المخيم عالم مليء بالأسرار والغموض والحقائق، عالم المخيم نابض بالحياة والنماء والأعمال الصالحة والطالحة، لكن ضجيح عالمه الفريد، يظل يعمر الأرض والسماء في تلك المنطقة، خيمة السماء الزرقاء تظلله، وعين الشمس والقمر تراقب وتشهد على كل ما يجري به، تتمنى لو كانت لها لسان ينطق، إن الأرض والظلام والاختباء يخفي ماكان مخالفا للنظام والمألوف، وعقول الناس كنوز لا تمتلئ، وأجسادهم لا تعرف الشبع، فمن الناس من ينكشف وتحترق سيرته وحياته، ومنهم من يصعد على مرار الغير، او تمتعه العابر دون أن يعرف عنه أحد، والنساء هن الجدار الأوطأ كما يقول المثل في تلك المرحلة الزمنية، فالكل يحاول التوقف عند ذلك الجدار وامتطائه، (الحيط الواطي)، تتقابل الرغبات او تتقاطع كالطرق في نقطة أو نقاط معينة، يحصل توقف أحيانا أو وراحة، او هي خطة لانتقاء طريق لتنفيذ رغبة الطامع، وقد تطول طريقه، ومع الإلتواءات في شوارع المخيم وضيق بعضها، إلا أن الساعي لمصالحه قد يلف ويدور ثم يعود للطريق الأسهل والأسلك، وهناك وسائل أخرى للنساء وللرجال على حد سواء في المخيم لمن يريد أن يتصيد فريسة، معظم رجال المخيم يخرجون باحثين عن عمل، او يجلسون على المقاهي، للتسلية وقتل الفراغ الذي يقتل أعمارهم بلا هدف، وبضياع لا يعرفون بدايته ولا نهايته، فلا أرضا تنبت، ولا عمرا يتوفر، فابن المخيم يعيش يوما بيوم، لا يدري أيبقى في ذلك المخيم أو يضايقه جاره، أو تحركه قوة النظام والحكم، إلى مكان آخر، فوطنه ومقر إقامته هو في عقله، يعيش اللاجئ على التردد في خواء وخوف وقلق من الغد المجهول، فهو مخيم، والمخيم في الذاكرة هو مكان مؤقت ولا بد أن يأتي بعده مرحلة للاستقرار، او العودة للمكان الأصلي والتاريخي، والعدو ليس متوقفا عند حد يعرفه الناس، والإنسان العربي ضعيف في فلسطين وفي الأردن، وفي كل جبهات القتال التي تحيط بالعدو الصهيوني المحتل لفلسطين، بعض رجال المخيم الكسالى يقولون، ((إن مؤونة العائلة والأولاد مضمونة تأتيهم من الأونروا، فأين يذهبون ليجدوا عملا؟ قلنسترح لنرى ماذا يكتب لنا القدر في عيشنا المؤقت في مخيم))، وآخرون اتخذوا المقهى مكانا للتعارف وتبادل المعرفة والهموم او للتقارب مع الناس، حتى إن أصحاب المهن والأعمال صاروا يرتادون المقاهي، ليرفهوا عن انفسهم، أو ليسألوا عمن بحاجة للعمل، ولا عمل للنساء إلا تجهيز الفراش والنسيج والخياطة وبعضهم انشغل بصنع الحـُصُر او البسط، لعائلاتهم او لبيعها، وراجت مثل هذه التجارة في الخمسينات من القرن العشرين، والمرأة التي تعرف أي صنعة، تقوم لتساعد زوجها أو أهلها في إعالة الأسرة، او على الأقل لتأمين مصروف بسيط لها، وأغلبهن يقتنين اربع دجاجات إلى خمس بسبب ضيق البيوت والأحواش، ليحصلن على بيض للطعام عند الضرورة، أو لبيع البيض القليل للدكان والمقايضة به بأي لزوم لها، او بالحصول على ثمن بيضها نقدا، تشتري به لاحقا او تخزنه للحاجة الضرورية، اعتادت الطفلة سمحة على خروجها اليومي كغيرها من أطفال المخيم، لم تتشدد أسرتها بإرسالها لمدرسة بنات اللاجئين، فبعد انتهائها من الصف الثاني، تمردت البنت لأن معلمتين عاقبتاها على شقاوتها خلال العام الدراسي، ورفضت العودة لمواصلة دراستها في الصف الثالث، وكان بيتهم بعيدا عن المدرسة، وقلة من البنات كن في منطقة سكن أهلها، أهمل والدا سمحة امرها ولم يقنعاها او يكرهانها على العودة للمدرسة، فتوافر للطفلة اوقات كثيرة نهار كل يوم، فصارت تلعب وتتلهى في منطقة بيتها، ثم تجرأت بعدها لتبتعد عن بيتها قليلا قليلا، حتى تجد طفلة مثلها او ولدا مسالما تتسلى معه، دون أن يتابعها احد، ولا أن يسألها عن وجهتها، وتعلمت مبكرا فنون إخفاء ما تحصل عليه من أي شخص، ولأجل القرش وجدت أن ذلك الرجل الأعزب يحب أن يلمس جسمها في كل مكان، واعتادت هي على ذلك لأنه لم يكن يحصل لها ضرر مع تكرار الأيام، ولأن منطقة اريحا دافئة، بل وحارة صيفا، ولطيفة جدا شتاء، فكانت والدتها فتوحة لا تكسوها بملابس ثقيلة، ثم بسبب صغر سنها، ووالدتها فلاحة لا يخطر ببالها اي شك بابنتها الطفلة، ولا تخاف عليها، وتعرف انها لا تغادر بعيداً، ولم يكن يخطر ببال فتوحة أن يحدث لابنتها الطفلة اي شيء غريب، ولم تسمع عن مثل ذلك في بلدتهم التي تركوها في منطقة بئر السبع، لم تعتد ابنتها سمحة على لبس السراويل، لأنها طفلة وتعتقد انها في محيط السكن والعائلة، ولا تتوقع أي شرّ عليها، لثقتها بالناس وبالحارة والجيران الذي توطدت علاقاتها بهم، ثم بسبب ضيق الحال وقلة المال، فتهيأت الفرصة لذلك العجوزكي يلمس أي جزء من جسد الفتاة الصغيرة دون انتباهها، ووصل الأمر حتى لتأمل جسدها، قال لها كنت أرفع ثياب زوجتي حين تنام بجانبي، فاقتنعت البنت الصغيرة بكلامه،ولأنه لا يؤلمها ولا ينوي أن يضرها، بل يكتفي بتلمس جسدها في كل مكان، لم يكن يقفل باب غرفته الصغيرة، ولو أقفلها لما قبلت الظلام والحصر، تقول سمحة أم مسامح:

- كان يتلمسني وعيناي على الباب، اطل على السماء الزرقاء، واشاهد بعض المارة في الشارع، تقع عيناي على أرجلهم الحافية، وشاهدت امرأة تضرب ابنتها لأنها تلحّ على والدتها ان تشتري لها حلوى من الدكان، جاول عصفور أن يجد له مكانا ينزل عليه لالتقاط بعض فضلات الطعام عن الأرض، لكنه حام وحام، ولم يشعر بأمان ثم ابتعد، بسبب تكرار مرور الناس وسيارتين قديمتين، عفـّرتا جو المنطقة حولنا، تمنيت لو ان لي أجنحة مثل ذلك العصفور، لأطير إلى بيتي حتى لا يراني احد أو يعرفني وانا عائدة.

كانت سمحة تعرف أنه سيناولها القرش بعد دقائق، يمد اصابعه ويلامس بين فخذيها، تفاجأت الطفلة سمحة بان العجوز يناولها حلوى على شكل قطة، اشترى لها لعبة صغيرة، وطلب منها أن تلعب بها وهو يلعب بجسدها بين ساقيها، لم يؤذ البنت، لكنها كانت تحس بأصابعه تتلمس، ويقبل وجهها وأحيانا يحاول ان يقبل فمها، تجفل البنت من رائحة فمه والدخان، ومن منظر أسنانه المسوسة السوداء، لكنها تحتمل لمساته كي يتركها ومعها قرش سمين.

عادت متأخرة يومها، وصادف أن كان والدها في البيت، ففاجأها بضربات مؤلمة حتى قبل أن يسألها عن سبب تأخرها فتلعثمت، ووجد معها لعبة تحملها، تدخلت فتوحة امها فقالت له، وجدتها أمام إحدى الخيام، فحملتها، فطلب منها ابوها أن ترجعها من حيث اتت بها، لكن والدتها اعترضت قائلة، إذا سأل أحد عنها فسنعطيها لهم، فاضطر السكوت دون قناعة.

والد سمحة رجل اعتاد على الجد والعمل، ويحب أن يكون معه فلوس زائدة، كما كانت حالته قبل طرد الفلسطينيين من ديارهم ليصبحوا لاجئين، ظل يستغرب كيف أجبر على ترك ارضه وقريته في منطقة بئر السبع، حيث كانوا يهتمون هناك بتربية الأغنام سواء كانوا بدو أو فلاحين، إلى حانب زراعة الأرض الصالحة للزراعة، ثم والعمل في مصانع النسيج التي اشتهرت بها مدينة بئر السبع، فكثيرا ما كان يكلم نفسه ساهما صامتا كأنه في ذهول، يسائل نفسه كيف اضطروا أن يتركوا بيوتهم والنعمة التي كانوا يعيشون بها، وفي أوقات كثيرة كان ينحى باللائمة على الجيش المصري، وكان يبدي استغرابه في كل محفل بين الرجال، كيف استطاع اليهود الضعفاء، أن يهزموا الجيش المصري، ولماذا انسحب جيش اكبر دولة عربية، وترك الفلسطينيين تحت رحمة عصابات اليهود المسلحة، ولماذا لم يسلم الجيش المصري سلاحا للفلسطنيين؟ ولماذا لم يدربهم على القتال والدخول في صراع مع الصهاينة، وإلا لماذاحضر الجيش المصري أصلا؟ أليس ليساعد الفلسطينيين وحمايتهم وضمان بقائهم في أملاكهم؟ يقول والد سمحة، اعتمدنا عليهم وتركنا مهمة حماية الأرض والوطن الفلسطيني للجيوش العربية، وتقاعس العرب من حولنا ساهم في وصولنا لهذه الحال السيئة واليأس، فلو لم يحضروا لوجدنا طرقا كثيرة لمقاومة عصابات الإرهاب اليهودي، ولاعتمدنا على انفسنا، او لتفاهمنا مع الصهاينةعلى الأقل وبقينا في مناطقنا وبيوتنا، او لتدخلت الأمم المتحدة وأوجدت لنا حلا وسطاً، المهم حصل ما حصل، فوصلنا إلى هذه الحال المزرية، لنعيش مشردين في الخيام، والعشش وغرف الصفيح، ولا ندري كيف نربي أولادنا، ولا كيف سنتمكن من العيش بلا أرض ولا دخل ولا مصانع ولا وظائف، ثم يواصل كلامه مخاطبا غيره في المقهى او أمام المسجد الصغير:

- ظل اليهود غير قادرين على إشغال بيوت مدينة بئر السبع لما يقارب سبع سنوات، وقلة من اليهود رغبوا في منطقة بئر السبع والسكن بها، ولولا إغراءات حكومتهم وانتشار الكهرباء والماء والتسهيلات المادية الأخرى الكثيرة لهم لما أحبوا منطقتنا التي عشنا بها وتعودنا على ان نعشقها لأننا تربينا بها، لقد تسللت مرات عدة ونبشت عن بعض مدخراتي في بيتنا الجديد، وأحضرت منه بعض التحف والأغراض الخفيفة، تمنيت لو كان بإمكاننا الحفاظ عليها، لكننا اضطررنا وبعناها هنا لسداد بعض حاجاتنا البسيطة، وأعتقد أنه بعد أربع سنوات او خمسة لم يسكن بئر السبع اكثر من ثلاثين عائلة يهودية، لأن جو منطقة بئر السبع حار وأمطارها قليلة، واليهود المجرمون اللقطاء أتوا من اماكن غنية ومختلفة من العالم، جاءوا معتادين على الماء والكهرباء والمشاغل والمصانع والبنوك، نعم كانت الكهرباء متوافرة في نفس مدينة بئر السبع، لكن القرى ومضارب البدو كانت تعاني من شح الماء وعدم وجود الكهرباء، فكانت الحياة صعبة علينا، لكنها بلادنا التي نحبها وقد اعتدنا عليها، ولا نفضل اي مكان عليها حتى لو في جنات من نعيم، ولم يكن في بئر السبع إلا مصانع القماش وخاصة أقمشة الديما والقنباز الفلسطيني وبعض اقمشة ملابس النساء الناعمة اوالخشنة مثل الموسلين والبوبلين والبفت للعمل او للتطريز عليها. وبعد التهجير القسري، لم تعد النساء يستخدمن القماش الخشن، بل بدأن يتعودن على الملابس القديمة والمستعملة والجديدة، حيث أثرت في الناس اشكال وموديلات الملابس والموديلات الأوربية، والتي كانت تصلهم بالبالة المجانية، والتي كانت توزع كمساعدات على اللاجئين ليتمكنوا من الحياة والعيش بدفء، لكن جزءا كبيرا من هذه الملابس كانت تختفي ليراها الناس في مخازن التجار أو لدى كبار المسئولين، ثم اعتاد الناس على التجارة بتلك الملابس المستعملة. تقول سمحة:

أشعر ان كثيرا من الناس سيحاسبونني ويلومونني على على تكرار الكلام، وكثرة الحكي عن الماضي، صحيح انا لم اع العيش في بئر السبع، لكن والدتي ووالدي لا يتوقفان عن الحديث عن أيام زمان، والتي يقولون عنها انها كانت أيام عز، وكما يقول المثل، حب الوطن من الإيمان، فحفظت كل الكلام الذي اعيده عن حياة اهلنا الماضية في الوطن قبل التهجير القسري.

اضطر حمشان والد سمحة أن يعمل في مزارع أريحا عاملاً، وقبل أن يتعرف على صاحب المزرعة الكبيرة، وتعهده لها، حاول مرافقة زوجته وطفله الأكبر للعيش والعمل في المزارع، وخاصة أوقات الزراعة او أوقات جني المحصول، كانت الماء كثيرة في غور الأردن، بعد أن نفذت منظمات دولية قنوات ري في أراضي الغور الشرقية والغربية، لمساعدة وتوطين اللاجئين الفلسطينين حول نهر الأردن، ، ليجدوا أعمالا في الزراعة، تيسر له بعدها العمل مساعدا في بستان نخيل وعنب وموز وخضار متنوعة، كالبندورة والخيار والكوسى والباذنجان، كان يعرف جيدا كيف يعتني بهذه الأنواع، وكيف يزرعها، حمشان حاول أن يدرب زوجته لتساعده واولاده وبناته الثلاث، فيخصص هووزوجته فتوحة قسما صغيرا من الأرض، يستغله لمؤونة عائلته، لكن حين بلغ ابنه الأكبر سن المراهقة، زاد المساحة المزروعة، بينما صار عمر سمحة أحد عشرعاما، وولدان أصغر منها وابنتان، ولأن اكبر اولاده اسمه سمحان،عرفه الناس حمشان باسم (أبوسمحان)، وبعد مدة ملّ من صراعه مع ابنه الكبير، والذي ناف عن الستة عشر عاما، فأهمله ولم يعد يطلب منه أن يرافقه في أي عمل، أما الولد الثاني، فعمل مع والدي ما يقارب السنة ونصف، لكنه وجد عملا في بقالة، فتوقف عن العمل مع والده، فظل الحمل والضغط على سمحة لمرافقة والدها أو للعمل كما يطلب منها ولكي يحصل على راتبها، أما زوجته فتوحة، فقد كثرت عليها أعمال البيت، لكثرة أفراد أسرتها، فلم تعد قادرة على مغادرة البيت لمشاركة زوجها العمل في الحقول.

**الفصل العاشر**

ابن العم الساذج

شاهدت في شبابي رفا من الطيور المهاجرة تهبط على الأرض، واحد منها تعثر وانقلب حين هبط، درج معظمها بيسر وانتظام، سحرني توافق تلك الطيور رغم كثرة عددها، لكن الطائر الذي انقلب، ظل يقفز على ساق واحدة حتى يتابع رفّه، لأن ساقه الأخرى مكسورة، مضطر ان يتقدم بحثاً عن الطعام مثل رفاقه، الطعام والصحة هما شرط الحياة الطبيعية، تمنيت لو يتوقف ذلك الطائر، لكي أحضنه وأحاول أن أداوي ساقه او اجبرها، أو اريحه من تعب المشي، وأؤمن له طعاما في قفص يرتاح فيه طول عمره، لكن ما إن اقتربت قليلا حتى حلق الرف جميعه، ومعه الطائر ذي الساق الواحدة.

عمت الفوضى بين الصهاينة أنفسهم، حين نجحت خططهم، وتلاقت مع التخاذل العربي، فأصيبوا بالذهول والدهشة، كيف سيعمر مائة ألف يهودي، مدنا وقرى لمليون فلسطيني هجّروا من أملاكهم؟ ولم يكن هناك دولة منظمة لليهود، بل كانوا جزءا من الشعب الفلسطيني، والمصيبة أنهم لم يكون موحدين ولهم جيش واحد او نظام أمن واحد، فكانوا عصابات كثيرة مختلفة، اتفقت على طرد الفلسطينيين، واهم تلك العصابات كان ما يسمى الهاغاناه، والأرغون وشتيرن وغيرها، فكل عصابة منهم كانوا يهاجمون ويقطعون الطرق دون تنسيق مع العصابة الأخرى، لأن كل واحدة منهم، كانت تريد أكبر مساحة تضمن لها حرية الحركة في فلسطين، فحين تم التهجير والاستيلاء على ثلاثة أرباع فلسطين، اندهش جميع اليهود الموجودين في فلسطين ايامها، فصار هم كل رجل وامرأة وعجوز وطفل أن يدخل أي بيت فلسطيني في أي مدينة او قرية، ليحصل على ما يرضيه وما ينقصه وما يعجبه، فكل البيوت الفلسطينية كانت عامرة جاهزة وعلى مدى قرون، ملاى بالخيرات والمصاغات والخزائن والآثار والتحف والمناظر والكتب التراثية القيمة، وما غلا من الأثاث والملابس واسرّة النوم، والفراش الوثير، عدا عن فخامة بعض بيوت الأثرياء الفلسطينيين، مسحيين ومسلمين، فكانت بعض البيوتات مثار فخر واعتزاز فلسطيني، يتمنى كل إنسان ان يزور مثل تلك البيوتات والقصور والفلل الشامخة، او يأخذ الصور التذكارية قربها، ولا تسأل عن بيوت الترفيه والمقاهي والفنادق ودور السينما، وأهمها دار سينما الحمراء في يافا، والتي زارها محمد عبد الوهاب وام كلثوم وفريد الأطرش، إذا كانت فلسطين أكثر الدول العربية تحضرا وتقدما، ومدينة يافا كانوا يسمونها (عروس البحر الأبيض المتوسط) ترك الفلسطينيون كل هذا، وفي الوقت نفسه أدهش عدوهم، وجعله يحتار كيف سيدير وينظم الحياة ويملأ ذلك الفراغ، حتى إن بعض الصهاينة صار يختار البيت الذي يريد، وحين يجد بيتا آخر فارغا افضل، ينتقل له دون علم أحد ولا مشاورته، فمدينة يافا وحيفا وعكا واللد والرملة وبيسان والناصرة كانت مدنا كبيرة وعامرة، تم إفراغها من سكانها، وما دام إن العرب لم يتحركوا لاستعادة مافقدوا، فلماذا لا يتم استيراد مئات الالاف من اللاجئين واليهود من مختلف انحاء العالم لملء تلك البيوت والفراغ، والعيش في أمان؟ وفي بحبوحة في أجمل بلد في الدنيا من حيث مناخها وخيراتها وبساتينها وبيارات الحمضيات التي كانت الأشهر والأوسع في العالم.

بقي الصهاينة قلقين ومضطربين لخمس سنوات بعد عام 1948، وهم يفتشون وينبشون كل بيت، فملأوا بيوت المدن الفسطينية بالمهاجرين، وقرروا إزالة جميع قرى فلسطين ونسف جميع بيوتها وآثارها ومعالمها، لتصبح سهولا وحقول زراعية أو لإنشاء مدن وكيبوتسات ومستوطنات يهودية جديدة، وفي العامين 1951 و 1952 كان الناس القريبون من خط الهدنة في فلسطين، يشاهدون بأم أعينهم الغبار المتصاعد، وأصوات الانفجارات من أعمال الصهاينة في إزالة وردم معالم كل قرية فلسطينية، يرون آثارهم وبلادهم تمّحي، والحسرة تملأ نفوسهم، يتنفسون الضيق والألم والحسرة، دون أن يكون متاحا لهم ولا مسموحا أن يحاولوا الانتقام او مهاجمة الصهاينة، فالجيوش العربية أصبح واجبها حماية الحدود، ومنع أهل البلد الأصليين من الاقتراب من تلك الحدود، او حتى محاولة حمل السلاح، فالسجون والتعذيب والإهانة كانت نصيب كل من يجرؤ على ذلك، والمخابرات تملأ المدن والقرى.

برغم مرور السنوات الطويلة، لا أنسى ابن عمي ، ولم أنس أولادي منه، لا أنسى أن ابن عمي برغم سذاجته، لم يضايقني ولم يؤذني، وبطول مكوثي معه، ومحاولاتي تهذيبه، تعلم الكثير مما يلزمه، ولم يتعلم أي شيء مما يلزمني، نشأت في أسرة تحترم الرجل وتهابه، لم أكن أخشى ابن عمي، ولا أخاف منه عقابا، لكنني وجدت والدتي تطيع ابي، وحين تزوج أخي، وجدت زوجته تطيعه، ووالدي وأخي كانا يعاقبان زوجتيهما، ولا تعترض الأنثى، او تضطر للبقاء في بيتها تحضن اولادها، وتعزي نفسها بأن لها بيتا يضمها ويخصها، بعيدا عن أسرتها وأهلها، ربما سمع ابن عمي من رجال آخرين، او جالسهم وحكوا له عن العلاقة الجنسية الأحسن بين الرجل وزوجته، او بين أي ذكر وأنثى يختليان، وأتذكر الحديث او الأثر الذي سمعنا الناس يرددونه، (ما انفرد رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما)، تعلمت حب الالتصاق بالرجل مبكرا ومنذ طفولتي، واحب ضماته ولطفه وحنانه، وأحب إكمال متعتي برضاي وقناعتي دون إكراه، لم أكن اعتبر ابن عمي رجلا عاديا، بل مثل أخ أشفق عليه لسذاجته، ولذلك كنت في حيرة وقلق حين اضطرني والدي من الزواج منه، لم أكن لأرفض ابن عمي، لأنني لم أكن اكرهه، بل اشفق عليه، واعتدت على تردده على اسرتنا ويأكل معنا أحيانا مثل إخواني، وكم من مرة أشفقت عليه، وقدمت له بعض الحلوى مما كنت أخفيه عن أسرتي، وأحصل عليه في مناسبات شرود عابرة، أو من عملي في المزارع، وأفراد عائلتي كلهم صاروا يعرفون ومقتنعين بأن سمحة صارت خبيرة في الزراعة، وفي الاهتمام بالحقول والبساتين، وهي مطلوبة من أصحاب المزارع، بل ويرحب أولئك بها، وظهر لأهلي أنني (رجولية أو رجالية) كما يقولون، أي انني لا أخشى الرجال، وأستطيع العيش بينهم محافظة على نفسي وشرفي وسمعتي، وكثير منهم صاروا يلقبونني بأنني (أخت رجال)، ولكوننا في الأصل بدو، من بئر السبع في فلسطين، فتطابق المثل عليّ وعلى أسرتي، والإنسان بطبعه أناني يستغل كل الظروف لصالحه، وهذا جعلني أحاول أن اعيش حياة عامرة بالحب والثروة وعدم الإحساس بالحرمان من اي شيء في الحياة، وسترني الله وما زلت مستورة، أعيش حسب ما يمليه عليّ ضميري، وقد شبعت من كل ما يخطر ببال امرأة إنسان، وأستدرك انني لم أسبب الضرر لمخلوق ولا حتى لحيوان.

لا أستطيع أن أنسى موقفا مؤثرا حدث معي عن علاقتي مع ابن عمي رعّاش، استحم الرجل بعد صلاة العشاء في ليلة ما، وكان ذلك بعد ست سنوات من زواجنا وقد رزقنا بثلاثة أطفال، وعمر الصغيرة ثلاث سنوات، وتعطر بنوع رخيص جدا، تزول رائحته بعد دقيقة، تلكأت في النوم، وانشغلت في تنظيف ساحة غرفتنا الخارجية، مع ان الظلام كان مخيماً، والفصل شتاء، والكل ينشد الدفء والراحة والنوم، نادى عليّ فنهرته، ولم يعد لها، رجعت بعد ذلك للغرفة، رددت الباب ولم أقفله، ونمت بملابسي العادية قرب ابنتي الأصغر، احتضنتها ومددت يدي صوب البنت الأخرى، أما الطفل المعوق فكان بعيدا عني قليلا، وكلنا ننام على ارضية الغرفة، لكن فراشنا كان دافئا ومريحا، يتمدد زوجي رعّاش على فرشة مجاورة، وبعد دقائق تمتد يده نحو جسمي، حاول إثارتي كما سمع من الناس، لكن نفسي كانت وما زالت تشعر انني مذنبة بزواجي من ابن عمي، وأنني سببت له ضرراً كبيرا، لأنني لم أستطع أن اعطيه اي راحة نفسية، أو معاشرة متوازنة متبادلة، لم أقاومه كالعادة، فعل ما أراد ولم انزع ملابسي، لهث بعدها قليلا، ثم عاد وتمدد في فراشه ينعم بنوم عميق ومريح له، بينما بقيت ساعة او اكثر، أعاني من ندم وأسف، على نفسي اولاً، ثم على ابن عمي المحروم من الحياة الطبيعية مع زوجته، وفي الصباح صحا مبكرا، واشتري لنا الفول والحمص والفلافل، وأضفت الزيت والزعتر كعادة كل عائلة فلسطينية لطعام الإفطار، وبعد الطعام، انشغلت البنتان في عبث يخصهما في الغرفة، ولم نخرج لشدة برد الصباح في ذلك اليوم، وقد قاربت الساعة العاشرة صباحا، ونحن نجلس قرب بقايا اطباق الطعام، فوجدت زوجي رعّاش يخاطبني بمرارة قائلا:

ياسمحة يابنت عمي، والله إنني أحبك، واحب أن ارضيك وأسعدك، صحيح إنني كما تقولين عني إنني درويش وربما تظنين أنني أهبل، لكنني في الواقع إنسان مسالم، وأعترف بضعفي وعجزي عن فعل المزيد، لكن قلبي يعشقك وعيناي، اقترب منك وانت تبتعدين، وفي الأمس حاولت الالتصاق بك، لأدفئك وأريحك، وكلما اقتربت من صدرك او بطنك، رفعت يدي ودفعتها لكي تبعديها عنك، وحين كانت يدي تمتد إلى ثوبك لأرفعه، تعيدين تغطية جسمك، لا أعرف ماذا اقول لك، إنني أكره ان أعاملك مثل الرجال الآخرين بقسوة، ولا أحب أن أفرض عليك رغبتي، وأعرف انك تستسلمين لي، لكنني أسأل نفسي، هل تكرهني ابنة عمي؟ او هل هي في غنى عني؟ أو هل تجد حباً والتصاقا من رجل غيري؟ أستغرب منك يابنت العم، أنت زوجتي وشريكة عمري، نعيش على الحلال وحسبما امرنا الله، وأنا أشكر الله ان رزقني بزوجة هي ابنة عمي، أغار عليها واحبها، وأتمنى أن أجد السعادة معها، وأقدم لها ما يسعدها قدر استطاعتي، فيا ليتني أعرف ماذا تريدين يا بنت عمي؟ وما الذي يخطر ببالك حين أقترب منك وتنفرين مني ومن لمساتي وتقرُّبي، والأهم من ذلك أريد أن أعرف ماذا تخسرين لو تعاشرنا او تلاصقنا واستمتعنا؟ ماذا ينقص من جسمك او من عقلك لو نمنا معاً كل ليلة؟ او كل يوم مرتين مثلا؟ أريد ان تخبريني ماالذي سينقص من جسمك، وماذا سيحصل لك؟ السنا زوجين شريكين في الحياة والعمر والبيت والوقت؟ هل نخالف الله او العادات او تقاليد الأسرة لو نمنا كل ليلة سعداء نمارس رغباتنا وننعم بما وهبنا الله من قدرات وفرص؟ هل تشعرين بتعب او مرض حين نمارس رغبتنا مشتركين متبادلين؟ هل تفضلين أن أكرهك على ذلك؟ إنني إنسان بسيط وأبحث عن سبب او تفسير لنفورك مني، هل سمعت ان النساء الأخريات يفعلن ذلك؟، حدثني رجال متزوجون، إن زوجاتهم يغضبن جدا، إن لم يلتصق بهن أزواجهن، او إذا هجروهن أكثر من ليلتين، فهل أنت امرأة مختلفة؟، او لا يوجد لك رغبات جسمانية، او هناك أمور أخرى لا يدركها هذا الإنسان الذي تسمينه الأهبل؟ لم أدعه يكمل حديثه وتأنيبه لي، بل قاطعته بقهقهة عالية ممطوطة، وبضحك متواصل، بعدها وجدت أن دموعي تنزل كحنفية ماء وتقطر على صدري بغزارة، انفجرت بعدها ببكاء، وألقيت بنفسي على الفرشة البسيطة تحتنا للجهة اليمنى بعيدا عن مقابلة ابن عمي، وعلا صوت بكائي ونحيبي، واستمر بأنفاس متقطعة كانني سأختنق، حاولت التماسك، والتخفيف من بكائي، فنهض ابن عمي وبحرص شديد، مد يده ليربت علي، خشية أن أنفر منه أو ادفعه بعيدا، وكلما لمسني او تحركت اصابعه على كتفي ورأسي كلما ازددت شهيقا وحرقة، تسأءلت اثناء ذلك في نفسي عن سبب بكائي، فلم أستطع ان أجد لي سبباً، تشجع ابن عمي، وزاد اقترابه مني، وصارت أصابعه تتحرك على ظهري، وكتفي وفوق شعري الغزير، نفضت لباس رأسي الذي كان يطوق عنقي، لأنني شعرت انني اختنق، فداعبت اصابعه شعر رأسي، ولمس خدي صدفة ربما، فاسترحت قليلا، فتشجع اكثر وابقى كفة يده على خدي، وبرغم سذاجة رعّاش وقلة معرفته وخبرته، إلا انني بقيت أتساءل في نفسي ليلتها وحتى هذه اللحظة وبعد مرور سنوات طويلة على طلاقنا وافتراقنا، كيف اهتدى لكل ذلك الكلام؟ او هل لقنه احد او سمع من غيره او والديه ذلك الكلام المؤثر والفاعل، نعم تأثرت جدا، واحترقت اعصابي، وشلني الندم على بعض ما فعلت دون علمه، أو خفية عنه، عرفت ان الحياة الزوجية قيد داخلي، وليست قيدا بالتخويف او الرقابة او الأكراه والعقاب، هل ساعدته الطبيعة والعفوية كثيرا على تهدئتي ليلتها والعودة لتوازني قليلا قليلا، همدت وبقيت متمددة على الأرض، وأبقي ثقل يده على كتفي، نسيها او انه شعر بأنني أرتاح وتخف نوبتي، نسيت أن النهار يقترب من منتصفه، جاءتني موجة من الرغبة في النوم والاسترخاء، وشعرت بطفلتي تجلسان خلف ظهري، وتضع كل منهما رأسها قرب جسمي، وانا ما زلت مستسلمة قلقة، خشية أن تعود نوبة الألم والندم لي لو جلست، او لو شاهدت زوجي يجلس بجانبي وهو يلمسني بعطف وحنان وتهدئة.

أحسست وقتها انني ظالمة ومذنبة في حق زوجي وهو ابن عمي رعّاش، وشعرت أنني اسرق عمره دون أن أقدم له اي عون او اوقات تسعده او تريحه، فاقتنعت بأن عليّ أن أفعل اشياء مختلفة في حياتنا معا، فإما أن اكون زوجة صالحة اهتم بزوجي وأطفالي، او اخرج من هذه العلاقة ليرتاح ابن عمي ويجد له شريكة تقبل به وتقتنع بشراكته في كل امور حياته، لم يخطئ معي ولم يحاول ان يؤلمني، وليس ذنبه أن كان بهذه الشخصية الضعيفة والجاهلة الساذجة، لكنني بدأت من يومها أعطف عليه وأكره نفسي على مسايرته، وفي الوقت نفسه أقنع نفسي بأن علي أن أكون عادلة منصفة له ولمشاعري في الوقت نفسه، لقد كانت تلك النوبة وحديثه لي، فيصلا في حياتي مهدت لي السبيل لأتمكن من إقناع والدي، بأن حياتي مع ابن عمي رعّاش هي عبث، وتلاعب بمصيره وأعصابه، ضارة له ولأطفالنا ولعمري الذهبي، وقد أصبحت في الثلاثينات من عمري، وسبق لي وعرفت الحياة والرغبات المتبادلة بقناعة ورضى. فلماذا أقبل أن اعيش بقية عمري وأنا أحسّ بالظلم والدونية، وبرفقة إنسان ساذج لايهمه من الحياة الا الطعام والجنس، ولا أجد أي ميل له، ولا أشاركه أي رغبة في حياته، وهو بلا أي ثقافة او فهم لتعقيدات الحياة ومتطلباتها. ومن أمثلة سذاجته، أنه كان يقول لي حين أطلب شراء ثوب جديد، يقول لي عندك ثوبين، فعندما يهترئ اي مهما سنشتري لك ثوبا جديدا، كلما اتسخ اغسليه، حتى يهترئ، قلت له مرة الثوب لن يهترئ، قبل خمس سنوات إو عشر، فهل أبقى بنفس الثوب لعشر سنوات؟ فأجاب، (وشو فيها يابنت عمي، مش الثوب هو لستر الجسم والدفء؟ وشو الفرق بين هذا الثوب، والثوب الجديد إذا اشتريناه؟ ولماذا نخزن ملابس زائدة، والدتي تقول الغرفة صغيرة (يا دوب واسعتنا) بحاجاتنا الحالية، فلماذا نظل نأتي باشياء جديدة ؟ مما يضطرنا بعدها أن نرمي القديم.

**الفصـــــــــــــــل العاشر**

تصحو والدتي مبكرة كل يوم، لتجهيز ما يلزم لوالدي قبل خروجه، ولتضمن ان يشرب قهوة الصباح، او يأكل أي طعام متوافر في بيتا الطيني في مخيم عقبة جبر، في ذلك البيت نشأت وتعلمت من والدتي، اعتدت أن أفعل مثلها كذلك، وكأنني أمرأة رديفة لوالدتي، أساعدها واتمم كل شيء تبدؤه، أو أنفذ أي طلب لها مهما صعب، طاعتي لها تتم دون نقاش ولا معارضة، وكأنني أحيا لأجل إرضائها وإشعارها بهناء وراحة، ولكي تفتخر بي وتتباهى في كل محفل تحل فيه، لا بل أجد أنني راضية عن نفسي كلما أقدمت على فعل فيه راحة لوالدتي، او ساعدتها، والدتي إنسانة لا أعتقد ان امرأة أخرى مثلها، فهي مثلي الأعلى في الحياة، وأتمنى لو أتيح لي بيت أخدمه مثلما تفعل والدتي، ولكي أقدم كل جهد ممكن لإسعاد الرجل، إن كان يفهم واجباته ويعرف أصول المعاشرة الإنسانية، مثل ارتياح أبي ورضاه عن والدتي...

بعد أن تدربت سمحة على العمل مع والدها حمشان في الزراعة وجني المحصول، أصبح عمرها يقارب الاثنتي عشرة سنة، ولحرصه على عدم تركها في البيت، لكثرة تمردتها، وفصاحتها وجرأتها في الخروج والتحدث مع اي إنسان، وسمع الناس يتحدثون عن شكلها وجمال طولها، فقرر أن يبحث لها عن صديق له يأتمنه عليها، ليضمها إلى فريقه من العمال صغار السن، ليس لمصلحة مادية كما يظن بعضهم، بل لإبعادها عن الفراغ والتجوال المجاني في شوارع المخيم، أو العبث مع بنات أخريات لا عمل لهن إلا الثرثرة والمشاكسة، ومعظم من يقبل تشغيل صغار السن، كان يستغل حاجتهم لنقود قليلة، يدخنون بثمنها، او يشترون بها حاجيات أساسية لا يقوى أهاليهم على شرائها لهم، فيعملون ساعات طويلة أعمالا خفيفة، مثل جمع الثمار،او إرواء النباتات أو ترتيب الخضار والفواكه، او تعبئتها في صناديق، وللمساعدة في أشياء بسيطة أخرى، جرب سمحان وتركها تعمل مع مزارع من معارفه، ويعمل لديه بنات وأولاد، مدح الرجل عملها ونشاطها، فأوصاه حمشان أن يهتم بابنته سمحة، وأن يراقبها جيدا لأنها متفتحة مبكرا، وجسمها يشير إلى انها أكبر من عمرها، وشدد عليه ان يحول بين مزاح الأولاد معها، او التصادم معهم، وتمنى ان تظل عاملة مع مجموعة من البنات والنساء، اعتاد حمشان بعدها ان يترك ابنته سمحة للعمل في المزارع، بعد أن ثبت له أنها مرضيّ عنها وعن عملها وسلوكها، ولم تسبب أي مشاكل مثل مراهقات أخريات، ولاعتقاده بأنها مازالت طفلة ولا خوف عليها في تلك السن، وفي الوقت نفسه يظن أنها صعبة وقوية لايخشى عليها من الرجال، يوصي صديقه صاحب العمل بأن لا يتركها طويلامع العمال، وإن تأخر في العمل لما بعد الغروب، يمكنه أن يحمل سمحة معه إلى بيته، تبيت مع بناته أو زوجته، طمأن صاحب العمل والد سمحة، وأنه ستكون موضع اهتمامه، وتحت رقابته مباشرة، فأجابه حمشان:

- إن سمحة مثل بناتك، وأنا أثق بك، واثق بها وبعصمتها وقوة شخصيتها، ومادام أنت موجود هناك فلا خوف عليها لو قضت في بيتكم ليلة او ليلتين تحت رعايتك.

قلقت فتوحة والدة سمحة كثيرا على ابنتها حين أخبرها زوجها بأنها ستبيت ليلة او ليلتين في بيت رجل غريب عنداللزوم، ولو ان ذلك حالة نادرة، وقد تحدث في فصل الصيف اكثر من مرة في الشهر، تذمرت فتوحة وتألمت وقالت له:

- ابنتنا فصيحة ومتمردة، وقد كبرت، وإن تركها تعمل مع الناس بعيدا عن رقابتنا خطر كبير، ونخشى عليها من الأذى والفضيحة، وسمعتنا أهم علينا من الفلوس والرزق يا أبا سمحان، فتبرم زوجها وأجابها بعصبية:

- قلت لك إنها برعاية صديقنا المزارع،أعرفه وأعرف أهله وأصله العربي والقبلي، وسمحة مازالت صغيرة وعفريتة، إذا انا وانت واخوانها عاجزين عن تطويعها، فكيف بشخص غريب عنا وعنها؟ لكن فتوحة دأبت على سؤال زوجها حمشان وخشيتها من تأخر ابنتهما سمحة، وعدم عودتها للمنزل أحياناً، فيطمئنها حمشان قائلا: وماذا سيجري لها؟ إنّ سمحة إبنتنا تربية رجال، احنا ربيناها حسب الأصول، وعمرها لا يسمح لها بالتفكير بالحب أو العشق والضياع، الناس زهقانين من البنات اللواتي عندهم، لاتظلي تزعجيني انت في ابنتك؟، تفضلي شوفي لها عمل على طريقتك، او تريدينها أن تقعد لك في البيت لتسبب لك الجنون؟؟ أو ان نتركها لواحة للبشر في المخيم؟، مشرقة مغربة في حارات المخيم وأزقته،بلا عمل الا مطالعة الناس والشباب والثرثرة أو الكسل والنوم؟؟؟ فضامن المزرعة يستخدم بنات مثلها ومراهقات ومراهقين يستغل نشاطهم في أعمال خفيفة وبأجور زهيدة، وهي في مزرعة، وليس في مصنع كل موظفيه من الشباب والرجال؟.ومدير المشروع يحمل زوجته وأطفاله أحيانا للعمل معه.

فتوحة تتأوه خفية، وتلوي وجهها متألمة غير مقتنعة بكلام زوجها، لا تجرؤ كمعظم النساء القرويات وقتها على مواجهة الرجل، بل بقبول أحكامه حتى دون مشاركتها او دون قبولها، وبعدم الاعتراض على زوجها، بل تهمهم لولديها الأكبر من سمحة، فلا يجرؤ اي منهما على التحدث او الاعتراض، لأنّ سيطرة حمشان كان على كل مقدرات الأسرة، وهما يرافقان والدهما برضاهما او بالإكراه للعمل معه في المزارع، وقد يتركهما هما الآخران للعمل مع معارفه.

أحبت الطفلة سمحة العمل مع الرجل المزارع، لكثرة ما كان يلاطفها ويظهر احتراما لها لم تعتد عليه من قبل في بيتها، ولم تلحظ مثل ذلك اللطف في جميع بيوت جميع أقاربها، فزادت من حماسها وطاعتها لكل ما يطلبه منها، وكلما شجعها او ابتسم لها او ربت على كتفها، كلما ازدادات حماساً ورغبة في العمل، وكان رضى والدها ووالدتها اهم دافع لها على هذا الثبات في العمل، لأنها عرفت ان الرجل يدفع لوالدها أجرتها كل أسبوع، ويزيده كلما تقدم الوقت، وصارت والدتها تنال بعض الرضا من زوجها، وتسمعه يدعو بالسلامة والسعادة لابنته التي زادت من دخل الأسرة، وكانت الوالدة تزيد من دعائها لسمحة، وتقول لزوجها حمشان، ألا ترى ان البنات افضل من الأولاد؟ هادئات ومفيدات، وخاصة البنت الأصيلة التي مثل ابنتنا، ويظهر ان تربيتنا لها أثمرت جيدا، وجعلت منها فتاة مبروكة يحبها الناس، وكلما كبرت ازدادت خبرة في التعامل والمعاشرة مع الأفراد الذين تضطر للتواصل معهم والعمل.

وبعد عصر يوم عمل شاق، استعدت سمحة للعودة مع غيرها من العمال والعاملات الى البيوت، لكن صاحب المشروع حضر في اللحظة الأخيرة، وطلب منها أن تساعده في رش الخضراوات في المساء، حسب الأصول، حتى تؤثر العلاجات الكيماوية في قتل الأمراض النباتية، وقال لها سأوصلك لمنزلك بعد انتهاء مهمتنا، وما هي إلا ساعة أو ساعتين وننهي العمل، كان القمر بدرا، ولم يكن الظلام عائقا له عن العمل في رش الخضراوات، مع ان هناك ضوء مصابيح زيتية معهما، مع ضوء القمر، ومصباح كهربائي ينير غرفة موتور مضخة الماء وأمامها.

سمحة عنيدة وحين البأس لا تستسلم ولا تخضع لضغط مهما كان، وفي الوقت نفسه لم تعتد سمحة على معارضة الرجال إن كانوا ودودين معها، ومع انها كانت في الثانية عشرة من عمرها، إلا أن ضامن المزرعة يعتقد ان عمرها اربعة عشر عاما أو خمسة عشر، عملت سمحة مع الرجل لساعة أو اكثر قليلا، ثم أخبرها بأنه تعب، وسيكمل العمل صباح اليوم التالي مبكرا،بمساعده احد العمال قبل أن يتبخر الندى بفعل الحرارة، فطلب منها أن تشعل النار حتى يشربا الشاي، لكنه أحضر من سيارته بيضا وزيتا ولحما مفروما، وقاما بتجهيز طعام لعشائهما. نظرت إلى الحقل بعيدا، فشاهدت رفا كبيرا من القبرات تحط على المرج الأخضر، هززت يدي معجبة بتآلفها، فأجفلت ثم حلقت بعيداً عن الخطر، وتنزل ثانية إلى الأرض تنبش بحرية، وتبحث عن رزقها، سحرني ذلك التوافق والتضامّ؟ في مثل هذا الحمع المسالم والمتوافق، سيجد كل طير في الرف ضالته ورفيقه، وحين يحلقان يشعران بسعادة غامرة، وأنهما يمتلكان الفضاء والحياة، وعلى امل استغلال الفضاء الواسع الجميل لحياة منتجة كلها نشاط ومرح وسعادة.

فجأة صرت وديعة أكثر من ذي قبل، نسيت الليل والظلام، وصرت أرسم لوحات زاهية ليومياتي عندما اكبر، كنت سعيدة برضاء صاحب المزرعة عني، وزاد من اعجابي به انه يعاملني افضل بكثير مما يعاملني والدي، مد يده إلى جيبه وناولني دينارا أردنيا أخضر جديدا، كان ذلك عام 1960فرحت به كثيرا، وأصبحت ودودة له أكثر حتى تمنيت لو أجرؤ على تقبيل يده او خده، كما أفعل لوالدي، قلت في نفسي، هل سيكون زوجي في المستقبل مثل هذا الرجل اللطيف الكريم؟ ولماذا لا يكون والدي هكذا؟ كانت اجرة الطفلة سمحة اليومية ثلاثين قرشاً، وبين لي الرجل أن الدينار كان مكافأة لي على تأخري في المزرعة ومساعدته، وليس بدل إيجاري في ذلك اليوم، وبعد الطعام وشرب الشاي، قال:

- نسيت كل التعب يا سمحة، لا بل أشعر براحة وسعادة وهدوء الليل مع صحبة القمر المشرق، وإن وجودك ولطفك يا سمحة أنعشني مع مرافقة القمر لنا، جعلني أشعر أن الحياة جميلة هذه الأمسية، لم أكن افهم جيدا ما يقوله، لكنني انا الآخرى راودني شعور بالراحة والسعادة بعد الطعام اللذيذ الذي لم أعتد عليه، وبعد تعب اكثر من عشر ساعات، تبدأ انسام الجو تتحسن بعد الساعة العاشرة مساء، أحسست أنني مفعمة بالحياة والنشاط، نسيت ساعات العمل الطويل، وكأنني استيقظت من نوم مريح لساعات طويلة، وتمنيت لو الليل يطول وأفعل المزيد لإرضاء صاحب العمل، على أمل أن يزيد رضاء والدي ووالدتي عني، صرت أتنفس بعمق واسترخاء، وتخف شدة حرارة الجو في منطقة الغور، وتزداد طراوة الهواء والأجواء، كثرة الأشجار حولنا والنباتات الخضرية والأعشاب ساهمت في شعوري ذاك، فصرت أستنشق الطبيعة وتماهيت معها، أحسست أنني أتلمس نمو الأشجار والأعشاب والأزهار، فاستندت إلى مسند بسيط اسفله حجر او هي لبنة أسمنتية بجانبي، وشعرت بأن طعم الشاي مع النعناع الطازج، له طعم مميز ولذيذ، لم أعتد مثله من قبل، وهدوء الليل يضفي راحة إضافية، النور قريب مني بمصباح بترول، ونجلس قرب غرفة مضخة الماء ومصباحها الكربائي ينير حولنا، والقمر البدر يزحف بطيئا متهاديا مختالا في السماء، وينظر لي ويطمئنني وكأنه يحادثني ليسليني عن بعدنا عن البيت، يزداد إحساسي بالأنس كلما رفعت رأسي صوب قمري، وأطلت النظر لصفحة لمحياه المشرق، ثم أتذكر أنني أرافق رجلا كريما يحترمني ويحميني، وهو من أصدقاء والدي او ممن يتعاونون معه، فكيف لا أحسّ بمشاعر الراحة والسعادة بعد الحصول على دينار أخضر جديد، فوق أجرتي التي يستلمها والدي من الرجل مباشرة، كل أسبوع، وبينما انا في أفكاري المريحة، بدأت أحسّ بأن عليّ أن أجهز نفسي للعودة للبيت، مع انني لا أتمنى أن أفارق قمري تلك الأمسية، مد الرجل يده صوب كتفي ولمسه بلطف ورقة، وسألني:

- مالي اراك سارحة وصامتة؟ لم يخطر ببالي جواب يناسب سؤاله، بل أحسست بخجل ومزيد من ارتخاء، وكأنه يشجعني على الاسترخاء والاستعداد للمغادرة بعد دقائق، لكنه بدأ يحادثني بأي كلام، حتى أنطق او اقول اي شيء، ثم صار يستخدم كلام البنات والأولاد الذين في مثل عمري، يجذبني برقة وحنان كي انحني صوبه وأنا جالسة، ثم يمد يده برفق يجذب يدي او قدمي، يقترب مني أكثر ويواصل المزاح معي، أحاول أن أدفعه بعيدا عني برفق وبدلال طبعا، فينبطح ويصير يشكو ويضحك من ضعفه، ويشكو من خشونتي، يحاول بعدها ان يصرعني او يبطحني، ثم يتراخي كي أكون فوقه ويدعي انني هزمته، كنا اثنين والقمر ثالثنا، لم أتصور أن شيطان القمر يسخر منا يزيدني انسجاماً، صار الرجل يمدحني كثيرا بسبب قوتي وقدرتي على مقاومته وبطاحه، وفجأة حنى ظهره وحملني بين يديه الإثنتين، ورفعني للأعلى بأقصي ما يستطيع، وهددني بأنه سيلقيني على الأرض إن آذيته، صرت أتلوى بين يديه، وأضحك، ولم يداخلني اي رغبة او شك في حركته تلك، لكنني أدركت مدى قوته وعزمه، أنزلني بعدها بكلتا يديه على الأرض بخفة ولطف، أحسست براحة وسعادة لأن الرجل يسليني ويداعبني في وحشة الليل بلطف، قلت له:

- خشيت ان أسقط على الأرض وانا بين يديك في الهواء فتتحطم عظامي،

ضحك كثيرا، وقال:

- أنا أحبك، و كيف سأقبل أن أضرك، وانت امانة عندي، أهتم بك لتظلي سعيدة وعاملة عندي مادمت في العمل الزراعي، بعدها حنى ظهره وأمسك قدمي الاثنتين، ثم رفعني في الهواء عاليا، فنزل ثوبي عن جسمي، أمسكت بساقيه الإثنتين، فخشي السقوط لشدة قبضتي عليهما، أنزلني بعدها وظل ثوبي مرفوعا فوق وجهي ويدي، لم يكن الأمر سهلا عليه، وجدني انني مروضة على القوة والمراوغة كأسد السرك، أحسست ان تمردي يزيد من شجاعته وإثارته، وكأنني أتحدى ما يفكر فيه، أبقى حصاره لجسدي بيديه القويتين وتمدد بجانبي، وجسمي الأسفل شبه عار، وسروالي الذي كنت ارتديه كان واسعا جدا، لأنه من مخلفات والدتي، صار يداعبني كاننا في مصارعة حقيقية، ويلمس كل جزء في جسمي بلطف ودون اذى، لم أكن مستسلمة له بل كنت اقاوم قدر استطاعتي دون اي شعور بالخوف او القلق، علا ضحكي واختلط ضحكي بصياحي مما جعلني أتعب من مقاومة جسده وثقله، لكن يديّ صارتا تعملان على إعادة ثوبي ليستر بطني وفخذي، لم أغضب لأننني كنت أشعر أن الليل يخفي جسمي، ولا أحد يشاهدني، فازداد ضحكي واستمتاعي باللعب بصوت عال، وصرت أصيح عليه كي يرخي قبضاته عني، وأرجوه كي أعيد فستاني ليسترني، فطمأنني وقال لي لا تخافي، إنني امزح معك ولا أضرك، ومثل ما بطحتيني أريد أن أبطحك، حتى لا تفضحيني أمام العمال، دفعني وأدخل رأسي أسفل جذع شجرة قديم طويل ثقيل ملقى على الأرض، واسرع بحزامه وربطني بالخشبة الممددة فوق صدري، حتى لا أتمكن من الانسحاب أو النهوض او دفعه، بعدها صار يضحك، ويقول:

هل ترين كيف هزمتك وضحكت عليك، غافلتني في الأول فصرعتني، وها انا اصرعك واثبتك، هيا تفضلي قومي لتصرعيني ثانية إذا تقدري، اختلط ضحكي مع صراخي، كما سمعت من قصص وحكايات عن شهرزاد وقاتل النساء شهريار، أدركت وقتها أن شهر يار لم يستسلم للطف شهرزاد، ولا تقتصر رغبته على ان يسمع آغانيها وقصصها في تلك الليلة، صرت ابكي وارجوه أن يطلق سراحي، فطمأنني ثانية قائلا، ستظلي حرة فلا تخافي ولا تحزني، انت حبيبتي وانا احبك ولا اسبب لك ضررا، لمس رأسي ثم وجهي، وحاول فسخ ساقي عن بعضهما، فقاومته، ففتح ساقي وجلس بينهما، ثم صار يلمس ساقيّ وفخذيّ، ووصلت اصابعه لتداعب مابين فخذي، وأنا اقاوم بكل ما أوتيت من قوة، واتلوى للخلاص من الرباط القوي الذي ثبت جسمي العلوي فيه، تذكرت العجوز الذي كان يعطيني البيضة والقرش، وتذكرت شيخ المسجد، آآه إن الرجال صيادون، المرأة اللاجئة فريسة، وبرغم صغر عمري، إلا انني كنت أصغي للكثير من احاديث النساء، سمعتهن يقلن في أكثر من مناسبة، ان المرأة غزالة ضعيفة المقاومة، الإنسان والأسد يحبان الغزالة، ويتمنيان الاستمتاع بلحمها، وقتها نسيت الشعور بخطر الموت، لأنني غزالة مع إنسان وليس مع أسد مفترس، خامرني أحساس ببعض امان لكن سمعت أن الإنسان أيضا غدار، تقدم الرجل الخبير كان بطيئا ومدروسا، فلم يحاول إيذائي، كنا اثنين والقمر ثالثنا، لكنني لم أتصور أبدا في البداية ان الشيطان كان ثالثنا، تراخت الغزالة وقررت مواصلة استئناسها بالقمر ليكون شاهدا ومراقبا، أليس هو ثالثنا في تلك الأمسية؟ أحست بأصابعه دافئة وبإحساس مريح وغير مزعج، لكنني بقيت أقاوم قدر استطاعتي وارجوه أن يطلق سراحي، ووعدته بأنني لن اصارعه ولن اغضبه بعد اليوم، إذا أطلق سراحي، أضحك من محاولاته لثوان معدودة، أرجوه تارة، ثم ابكي تارة اخرى، فتح ساقي اكثر واكثر، وشعرت بإصبعه في داخلي، وهويضحك ويمزح، يشاغلني ويدغدغني في كل مكان في جسدي، اضحك وابكي، اتململ واتحرك أحاول التحرر والتملص منه، حرك أصبعه قليلا، فسألته ماذا تفعل بي، تخطرني ذكرى الرجل العجوز الأول في مخيلتي، وانه كان يلمسني في نفس المكان الذي يضع هذا الرجل اصبعه فيه، ثم يعطيني بيضة او قرشا، لم أتألم من أصبعه، لكنني بكيت وصرت ارجوه ان يرفعه، أخرج اصبعه وتأمله، عاد ووضعه ثانية بعد أن مسحه، ازداد صياحي وتلويت، لكنه زاد من ضغطه على حسمي النحيل الضعيف حتى يوقف مقاومتي، بعدها فسخ ساقي وربطهما بجذع الشجرة لجهتين متباعدتين، استجاب لشيطان القمر ليلتها، وبدا يمارس لعبة الحياة، برغم مقاومتي الضعيفة، تعبت من كثرة المقاومة والشد، شعرت بهزال وباستسلام وعجز عن فعل اي شيء، خاصة بعد أن هددني بالعقاب الشديد، وأكثر ما كان يرعبني هو القتل في مكان معزول، بعيداّ عن أي شاهد أو معين، وذكرني بأننا في البر والمرزعة بعيدة أكثر من خمسة كيلومترات عن اقرب بيت، حاولت أن ارفسه، لكنه يقول إنه يحب رفسي ويجده لذيذاً، كان ثقل جسمه اقوى مني، حاولت أن احل الرباط، لكنه كان يجذبني للأسفل ليظل الحبل مشدودا، وجذع الشجرة يحول دون وصولي يدي لجسمه،لم استطع أن أعض يده أو أقترب بفمي منها، ولم استطع منعه من الشيء الدافئ بدل اصبعه، لكن الألم الذي أحسسته كان اقل من الإصبع، ثم صار ينظر بين فخذي وهو سعيد، يقترب بوجهه ويقبل اسفل بطني، لم ينهض ليلبس سرواله، بل بقي جالسا يتلمس أسفل جسمي، تعبت من كثرة حركاتي ومحاولاتي التملص منه، طبطب على بطني وسرّتي، وأراد أن يقبل فمي وبطني ، وشعرت بأنفاسه حارة لاهثة، بعدها سرعان ما مد يده وفك وثاقي ونصحني بالراحة ومواصلة النوم،شعرت بحاجة للراحة فعلاً، وصرت اتنفس محبطة وشاعرة بضعفي وشبه يائسة، حاول أن يمد أصابعه لكي يتحسس كل مكان اسفل سرتي كما كان يفعل وانا مقيدة، لكنني منعته، بدأ الألم يخف، شاهدته بعدها يسند ظهره للجدار القريب، فرأيت شيئا منتصبا اسفل بطنه، استغربت كثيرا لماذا هكذا، ولكنني ادركت وقتها ماذا فعل، وتذكرت كلام امي وهي تحذرني من الرجال الغرباء، وقبل أن يفك أسري أخرج دينارا ثانيا من جيبه، حركه امام عيني، ثم وضع الدينار في يدي، قبل رأسي وشعري، وجبهتي وأنا في يأس طفلة معزولة بعمر اثنتي عشرة سنة، ضمني إلى صدره، واحتضنني، وكأنه ابي، وقال:

- لا تلوميني إن كنت آلمتك، فأنا أحببتك كثيرا يا سمحة، ولم أدر كيف تصرفت، سأفعل المستحيل كي أسعدك، أحست الطفلة بشيء من أمان، وأدركت انني نجوت من الموت، لأنني كنت أخاف ان يقتلني في ذلك المكان البعيد المعزول، استرحت قليلا لكلامه الذي كان لطيفا وفيه الكثير من الاحترام والتقدير، فابي لم يسبق له أن قال لي مثل ذلك الكلام اللطيف، لكنني قلت له بعتاب وسخرية من كلامه، لماذا ربطتني وفعلت ما تريد غصباً، تلعثم ثم فطن انه مازال لم يلبس سرواله، فتركني واعاد ترتيب ملابسه. أحسست بإرهاق وبحاجة ماسة للنوم، كنت متعبة جدا، فانقطع كلامي، لم يقبل أن نعود للبيت ليلتها، ثم بدأت رحلة النوم على الحصيرة النظيفة وفرشة نحيفة فوقها، حاول الرجل أن يسـرّي عني، فاقترب مني ثانية، أجفلت لكنه أمسك بي بقوة، وعدت اصرخ وأنا اقاومه، ضمني إلى صدره وقبل جبهتي وحاول ان يقبل فمي، فطلعت من فمه كلمات (يلعن ابوكو يالفلسطينية ما اقواكو) مسحت دموعي ولم أجد حولي من اشكو له، فبدات بتهدئة نفسي، وانا أحكم أصابعي على ثروتي المفاجئة، وتذكرت لحظتها أنني سأعطي دينارا لوالدتي وأحتفظ بالدينار الثاني لي، وسأشتري به الكثير مما يلزمني، ألححت عليه ان يأخذني إلى البيت ليلتها، لكنه احتج ان الوقت جاوز منتصف الليل، ونعود للعمل بعد خمس ساعات، فلماذا نضيع الوقت في المشاوير هذه الليلة، ضمني ثانية وانا أقاوم، وطمأنني قائلا، أحببتك يا سمحة، انت جميلة وطويلة وبتجنني، وارجوك أن لا تزعلي مني، ثم أعدك بأنني سوف أزوجك لأحد أولادي، وسأظل اكرمك فوق أجر عملك إذا لم تخبري احدا عما فعلناه معا قبل قليل،، أظهر بعدها احتراما كثيرا لي وعطفا علي، ضمني لصدره، وأحسست برقة ولطف وحنان حقيقي اراحني، وأشغلني عن الإحساس الغريب بين ساقي، وبدأ الألم يخف بسرعة، كنت ما زلت حائرة لكنني أجهل ماالذي فعله الرجل صديق والدي بي، ويظهر إن على أمثالي أن نداوم على الكذب، وعلى المرأة الفلسطينية أن تواصل تحقيق ما ينقص الرجل او يلزمه، حتى لا تزيد من متاعبها، ولما لاحظ تناقص قلقي، قرر فجأة أن نعود إلى بيته بسيارته البكب القديمة، كي أرتاح أكثر، وذلك أفضل لي من النوم في الخلاء على فراش خشن، وعند وصولنا أخبر زوجته انه احضرني من عند اهلي ليحملني معه صباحا للمزرعة، فوضعوا لي فراشا نظيفا وطعاما إضافيا، وبعض الحلوى، وفي الصباح وجدت نفسي في المزرعة مع العمال مثل كل يوم، لاحظ العمال والعاملات حسن معاملته لي، وعرفوا انني قضيت الليلة في بيتهم، فحسدوا الطفلة على هذه المعاملة الخاصة، لأن صاحب المزرعة أخذها معه إلى بيته، ثم احضرها بنفسه للعمل معهم صباح اليوم التالي إلى المزرعة.

تركوها تنام في فراش مستقل بين أولاده وبناته، تذكرت سمحة ما فعله الرجل بها ولها، وجدت أن لا ضرر عليها، بل نهضت في الصباح من اول نداء على اسمها، لاحظت سمحة ان صاحب المزرعة صار يكرمها بنصف دينار مرة او مرتين كل اسبوع، زيادة على اجرتها اليومية، ويوصلها لأهلها في معظم أيام الأسبوع ويجنبها المشي الطويل من منزله او من السوق لبيت اهلها، يعود صباح اليوم التالي ليحملها معه للمزرعة بنفسه، ووالدها ووالدتها وإخوانها يهنئونها على نجاحها، ورضاء ضامن المزرعة عنها، ثم يشكرانه على اهتمامه بابنتهم، اعتادت سمحة على هذه الحال، وصار الأمر عندها طبيعيا، بل صارت تنتظر الرجل بفارغ الصبر، وتتمنى لو يكرر فعلته مرتين او ثلاثا كل اسبوع، وجسم سمحة ينمو ويزداد قوة ونضجاً، وصدرها بدأ ينتفخ قليلا قليلا، سمحة تتمنى أن تكبر بسرعة، على امل أن يتزوجها الرجل الكبير صاحب القلب الكبير، أو أن يزوجها لأحد أبنائه، لتصبح من عائلة ذلك المزارع النشيط، زاد رضاه عنها، فصار يشتري لها ملابس افضل مما اعتادت عليه، وصارت والدة سمحة تفتخر بأن ابنتها تلبس من ناتج عرق جبينها واجتهادها وشطارتها، بل صارت اختاها تتمنيان أن تلبسا مثل ملابسها النظيفة والجديدة وبموديلات حديثة، وحاولت إحداهن أن تستعير بعض ملابس شقيقتها سمحة، للذهاب بها لزيارة صديقة لها.

بعد تلك الأمسية، صرت أحسّ نفسي كأنني امرأة ناضجة او في العشرين من عمرها، اعرف الكثير عن الحياة والرجال، وربما أصلح ان أكون أما ومتسلطة على الرجل، لفحتني حرائق ضلالات الشيطان، وأصبحت أزهار حياتي جمرا لذيذا يدفئ مشاعري، ولعنات السوء والمجتمع لا بد أن تثمر على يدي خيرا وأملا واطمئناناً.

**الفصــــــــــــــل الحادي عشر**

في أيام صباي وطفولتي ومراهقتي، كنا نستمع من الراديو عبر محطة مصر إلى حلقات يومية من مسلسل: (وأدرك شهر الزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح)، لم يكن ا لتلفاز معروفا ولا منتشرا في البلاد العربية في الخمسينات من القرن العشرين، عرفت من تلك الحكايات القديمة، أن المرأة الموهوبة تستطيع ان تحقق الكثير لها ولمن يعايشها او يضمها. . .

شهرزاد اكتسبت خبرة، واعتادت على أتباع دروب لا تتوقعها فتاة في ذلك الزمن، تابعتها الشياطين من كل صوب وحدب، واضطروها لمسايرتهم والخضوع لمواهبهم وقدراتهم ورغباتهم، فصارت الشيطنة السلمية مؤهلا لها وحاميا، العالم أصبح جسدا وشهوة، تنجذب شهرزاد لبريق أعين الأشقياء، فننشغل بالتخفيف عنهم، وفي الوقت نفسه، لا تقف حواسها لنهش الانتهازيين والخونة والطامعين باللحم، تعلم البسطاء وتساعدهم، تشاركهم أناتهم ولقم الحاجة، في الوقت الذي تعصر الكاذبين فيه والخونة من الأغنياء، تسمع البسطاء المزيد من الحكايا والقصص والتصرفات، برغم سذاجتها الظاهرة، والأهم انها اكتشفت ان لا فقر ولا ضيق بعد ليلة المزرعة.

استمر الأمر على استغلال أوقات سمحة لصالح والدها وأسرتها، حتى قاربت على الرابعة عشرة من عمرها، لاحظ والدها حمشان نمو جسد سمحة مع زيادة طولها، وبدأ صدرها الصغير بالبروز، صار والدها يفكر ويحادث زوجته بأنه سيوقف تأجيرها لأصدقائه من المزارعين، بعد ان ظهرت عليها علامات الأنوثة بشكل واضح، بل سيقصر عملها معه أينما ذهب، تنفخ (فتوحة) نفسا عميقاً من صدرها، ولا تدري بماذا تجيب زوجها، أولا فتوحة تحرص حتى أن لا تبدي رأيها في قرارات زوجها، لأنه يعتبر ان المرأة ضلع أعوج، وبلا عقل ولا دين، تتجنب الصدام معه، وهمها الدائم، إضفاء السلام على جو البيت، لتريح رأسها ورأس زوجها، وفي الوقت نفسه لا تجرؤ على رفض أي طلب لزوجها، وتتجنب إبداء اي فكرة حسب رأيها،ثم إنها تعرف ابنتها سمحة وما يحصل معها في المزرعة، والاثنتان تكتمان الموضوع، فهي مكتفية بإدارة شئون البيت الاقتصادية والطبخ والنفخ والنظافة، أما الطفلة سمحة ابنة الأربعة عشر ربيعا، فاحتارت في قرار والدها المفاجئ، أدركت أنها ستخسر الكثير من حريتها، وستحرم من الرخاء الاقتصادي الذي استمتعت به طوال موسمي الزراعة الماضيين، فهمها الأساس هو بحبوحة العيش، وتوفر بعض النقود بين يديها، تتنعم بشراء اي حلوى او حذاء أو ملابس، حتى انها اشترت سلسلة لماعة كالذهب تضعها حول عنقها مثل بنات الميسورين، ظل دخلها الأساس يدخل جيب والدها من المزارع المتعهد.

لم تكن تتمنى ان مداعبات المزارع ورغباته، بل هي مكافآته، ولم تكن تشتاق لتكون محظية عنده، فكرت كثيرا بأنه سيزوجها لأحد أولاده، لكن قرار والدها صدمها فجأة، مع انه كان سبب وقوعها تحت طائلة متطلبات المزارع او غيره، دخلت التجربة دون رضاها، ولم يعد الأمر يؤلمها، إن جسمها لم يكمل نموه بعد ليدفعها للسعي لاشباع رغبتها، بل أكثر تحصل عليه هو تدليل المزارع لها وأحتضانها، وتقديرها بالمكافآت التي أخذت تزداد اسبوعا بعد أسبوع، ومن كلام والدتها، صارت تدرك أنها تخالف المألوف والتراث، أفهمتها والدتها أن المفروض فيها أن تنسى هذه الرغبة حتى يأتي الوقت المناسب لتزويجها، كلام والدتها مسامير تنغرز في رأسها، تتقبل كل ماتطلبه منها وما تعلمه لها، على الرغم من أنها مازالت طفلة ولم يحن الوقت بعد لزواجها وتمتعها، لكنها بعد المرة الأولى لم تخبر والدتها ان الرجل يستغلها، اضطرت ان تكذب على والدتها، فأخبرتها بأنها لن تسمح له مرة ثانية بفعلها، ووعدتها إن عاد لطلبه ستهرب وتبلغ والدتها بالأمر، او ستتوقف عن العمل، ولكن الصعوبة في تنفيذ قرار كهذا، سيسألها والدها، لماذا توقفت عن العمل؟ فبماذا ستجيبه؟ وقد اعتاد على دخل إضافي من عملها، دون شكوى او تذمر منها او من والدتها او من الرجل المقاول نفسه، حاجتها وخوفها الدائم على سمعتها علمها أن لا تهتم بغرائزها، كانت تعرف جيدا ان ما فعله الرجل بها في المرات السابقة، كان سرقة وبغير رضاها، ولكونها طفلة ظلت فزعة من أن يعرف اهلها ما حصل معها، حتى انها لم تصارح والدتها إلا بعد اكثر من ثلاثة شهور، لأنها لم تكن تشعر بأي تغير على جسمها، وكثيرا ماقالت لنفسها بعقل طفولي، ها أنا لم أخسر شيئا، بل كسبت بعض النقود لي دون علم أهلي، اعتادت على الاستسلام للرجل المزارع أي وقت يريدها او كلما دللها، ولأنه كان في أواخر الخمسينات من عمره، فطاقته الجنسية لم تكن قوية، لأنه متزوج اولا، وعرفت منه ان زوجته تستثيره مرتين كل اسبوع على الأقل، وإن لم يتجاوب معها، قلبت البيت وأقامت الدنيا على رأسه، لم يكن يخص سمحة إلا مرة كل اسبوع وأحيانا كل اسبوعين، سمحة لم تكن تهتم بهذا الموضوع أبدا، والدتها علمتها أن تغفل رغبة جسدها حالياً، لكن ثروة سمحة ومصدر دخلها وبنكها هو جسدها في تلكم السنتين الماضيتين، وبعد مرات عدة، لاحظت أن الرجل يبذل مجهودا كبيرا، ويحس بتعب وإرهاق كلما استغلها، لم تعد تشعر بأي الم او خوف منه، بل كانت لها مساهمات طفولية أحيانا في تعجيل حصوله على هدفه، لتحصل على مكافأتها المالية.

فاجأها والدها قبل تنفيذ قرار إيقافها عن العمل قائلا:

- إنني أنوي ان أتحدث مع الرجل المزارع، بأننا سنوقفك عن العمل عنده، لأنك كبرت، ولم يعد بنا حاجة لعملك والدخل الذي يأتينا،لأنني بدأت في التفكير بتزويجك بابن الحلال الذي يليق بنا وبك، ويقوم بك ويسعدك.

لم يعجب كلام حمشان ابنته سمحة،لكنها لا تستطيع مواجهة والدها، ولا التصريح بما آل إليه حالها، ولا بوضعها المميز عند الرجل المزارع الأهبل حسب تعبيرها، قالت لوالدتها:

- سأحاول التمرد على والدي، ولا أريد أن أعود إلى الحرمان والحبس في البيت، إنني أفضل العمل مع الغرباء لأنهم يحترمونني ولا يؤخرون دفع أجري، ثم إنهم لا يخيفونني ولا يهددونني، أحترم نفسي، والكل يحترمني ويسايرني.

نهرتها والدتها، وكادت أن تصفعها، لكنها دفعتها بشدة في كتفها، ثم قالت لها:

- إخرسي يابنت، هل نسيت انك مركوبة؟ هل انت بكر حتى تملكي الحق في الخيار؟ والدك هو المسئول عنك وعنا كلنا، وهو الذي يقرر مصلحتك، احمد ربي كل يوم أنك لم تحملي من غلطتك واعتداء الرجل عليك، فأحذرك من أن تتفوهي بكلمة اعتراض على رغبة والدك، وهو يعرف مصلحتك ومصلحة العائلة كلها، ولن يفكر أن يهملك او يرميك لأي رجل دون أن يكون عارفا تماما عن حياته ومستقبله.

ومع هذا لمحت والدة سمحة لزوجها، إن سمحة لا تفكر في الزواج حاليا، وتحب مواصلة عملها مع المزارعين او أي عمل يعود عليها بدخل ولو بسيط، فهي تكره الجلوس في البيت دون عمل، او مثل عجائز الزمن الماضي، اكل وشغل ونوم.

صفن والدها قليلا حين سمع ما رددته والدتها، فأصابته هستيريا العقاب، فسارع لسحب حزامه، وهجم على ابنته سمحة وأراد جلدها، فوقفت فتوحة زوجته في وجهه، وقالت له إهدأ قليلا، لنسمع منك ومن سمحة، هدد ابنته سمحة أن لا تتدخل في موضوع حياتها، فهو الذي يعرف ما يلزمها، وما يريده لها في مستقبلها، لم تحاول سمحة الهرب من عقاب والدها الذي هو أقوى منها بكثير واسرع، تطلب الزوجة من حمشان الهدوء والجلوس ليسمع بنفسه من ابنته سمحة، فتفاجئ سمحة والديها بإعلان التوبة وقبول الأمر الواقع، والعمل حسبما يريد لها والدها. يهمهم حمشان بكلمات غير مفهومة، ويمد يده على كتف زوجته يربته راضيا مرتاحا، فيقول لابنته:

- الان أثبت أنك امرأة عاقلة وناضجة يا سمحة، وتصرفك اليوم يزيد من ثقتي بك وبتربيتنا الجيدة لك، ويجعلني احرص اكثر واكثر على تزويجك بأسرع ما يمكن.

تذكرت سمحة في تلك اللحظة، حين خرجت من البيت قبل خمس سنوات في صبيحة أحد الأيام بعد خروج والدها للعمل، ودون استشارة والدتها، وقضت النهار كله تتسكع وتلعب مع الأولاد والبنات الذين لا يذهبون للمدارس، وعرفت وقاحة بعض الأولاد الشياطين، حيث يمزحون مع البنات ويدفعون البنت لزاوية، ويكشفون ثوبها رغما عنها، ويلمسون بين فخذيها، ثم يعودون للعب بعدها وكأن شيئا لم يكن، فعلها ولدان مع سمحة يومها، كانت قوية كعادتها، فدفعت الأول وأوقعته ورجعت تلعب المربعات مع المجموعة المكونة من سبعة أفراد، ثلاثة بنات وأربعة صبيان، اما الولد الثاني حين حاول ان يلصقها بالجدار لأنه هزمها في اللعب، وحين حاول ان يقبل خدها، ويرفع ثوبها، أمسكت به ورفعته ثم طرحته على الأرض، وفككت بنطاله وجذبته حتى انكشفت عورته امام الأولاد والبنات، فصاروا يضحكون عليه، وخجلت البنتان الأخريان، وغطت كل واحدة منهما وجهها، أما سمحة فهربت عائدة إلى بيتها تاركة الولد لينهض ويعيد ترتيب سرواله.

وصلت البيت بعد العصر، وقبل عودة والدها من العمل، حضرت والدة الطفل الذي صرعته، وصارت تصرخ أمام امّ سمحة، وتشكو من ان ابنتها رجالية ومجنونة، ويجب أن تتم معاقبتها على ما فعلت بالطفل أمام أقرانه، طيبت ام سمحة خاطر السيدة الشاكية، ووعدتها بمعاقبة الطفلة ومنعها من الخروج من البيت بعد اليوم، ولولا حضور والدها وجلوسهم لطعام العشاء، لما سمحت لها والدتها بتلك الوجبة ليلتها، لكن الوالدة لم تذكر لزوجها مافعلته سمحة خلال النهار. سمحة لا تنسى مشاكساتها مع والدها ايضا، فمنذ طفولتها ظلت غير راضية عن حياة المخيم وحياة اللاجئين، وغير راضية عن تصرفات والدها، ولا عن ضعف والدتها، فظل عقلها الباطن يحرضها على مخالفات غير مألوفة، ومعارضات سلمية لاتظهرها لأهلها علناَ، لكن والدتها ظلت تقول إن عالم المخيم والتهجير يخلق طرقا وأشواكا ومتاهات لا يتوقعها المجتمع ولا الأفراد، المخيم عالم غامض كالمرأة، لا تعرف كل أسراره، ولا تدري ماذ سيبرز غدا، المخيم مدرسة من نوع خاص ولكن بدمن منهاج ثابت ولا مقرر، بل لا يعترف بأي نظام خارجه.

**الفصــــــل الثاني عشر**

حين كان عمر سمحة عشر سنوات، خرجت من البيت صباحا قبل مغادرة والدها لعمله المعتاد، واختفت حتى لاترافقه للعمل، بحثوا عنها فلم يعثروا لها على أثر، وفي المساء عاد والدها فوجدها في البيت، فهم بعقابها بحزامه الجلدي السميك كالعادة، لكن والدتها تدخلت بقوة هذه المرة، وساعدها الولدان الأكبران، بحجة أنها متعبة ومصابة بإسهال شديد، نهضت في الصباح الباكر لتبقى قريبة من مراحيض االمخيم التي يتزاحم عليها اللاجئون، فاضطر لقبول التسامح هذه المرة، لكنه هددها وهو يضمر أمرا في نفسه.

يقول حمشان لزوجته، سمحة كبرت يا فتوحة، وعلينا ان نستر هذه البنت، واخشى ان تفضحنا أو تسيء لسمعة عائلتنا المشرفة، فصاحة وشخصية هذه البنت امرها غريب، انا قلبي جافل ومتخوف منها، جسمها يكبر وينضج بسرعة، وبرغم عدم دراستها في المدارس، إلا أنها فصيحة وبلسان حاد، ودائما تحاول التمرد، ونخشى ان تفضحنا بين أهالينا وجيراننا في المخيم، ألا يكفينا الهجرة وعذابها؟ والظلم الذي أحاق بنا؟ بسبب التهجيرالقسري من خيانة بريطانيا للأمانة، وتآمر العالم والعرب خاصة علينا. وأخشى اننا أخطأنا حين عودناها على العمل مع الناس بدون رقيب، عندما كانت تعمل معي، كنت الاحظ أنها تحب ان تبتعد عني، أو تعافلني لتتحرر من مراقبتي ولتتحدث بحرية مع العمال الآخرين، تنشغل عن العمل وتشغل اي شاب يتحدث معها، حتى إذا لم تجد أحدا يكلمها، تبحث عن اي شخص مارٍّ في الشارع، تتحدث معه حول اي موضوع، سمعت من الناس الذين عملت معهم انها عاملة نشيطة وتقوم بكل ما يطلب منها، اما حين تسرح معي فأراها تماطل وتريد التمرد، فليس لي إلا أن اتخلص منها بتزويجها من ابن عمها رعاش فماذا تقولين؟.

تتنهد أم سمحة كعادتها، وتنفخ نفسا طويلا دلالة على حيرتها، وتقول لاحول ولا قوة إلا بالله، ثم تعترض فتوحة على الشخص الذي ذكر، وتقول:

- ان إبن أخيك امعة وساذج، وليس عليه من مظاهر الرجال العاديين العاقلين المنتجين، إنه إنسان كسول ولا يحب العمل، فكيف ترمي ابنتك هذه التي تعرف انها جميلة وشجاعة وفصيحة عند شخص لا يستطيع تأمين طعام لها، ولا حتى حمايتها، ولا يمكن أن يتمكن من ضبطها؟

- لا تقلقي يا فتوحة، سأربيه واربيها، سأؤدبهما، وسأكون الرقيب عليهما، فهو يخشاني ويتجنب غضبي وهذا الحزام جاهز له ولها، أعرف أن والده ضعيف مريض لا يؤثر عليه، فأرى ان واجبي وحرصي على اخي وابن اخي،ونريد أن نلمّه، أوكما يقول المثل الشعبي عندنا (بدنا نضبه)،وهذا يدفعني أن ازوجه هذه البنت القوية الجيدة في العمل، لعلها تفيده او تطبّعه على فهم متطلبات الحياة والعمل، اليس هو ابننا؟ وكيف نرضى له أن يظل ضائعا مهملا، ووالده مريض شبه مقعد، ولا يؤثر عليه؟يقترب حمشان من زوجته باسماً، يربت على كتفها ويواصل كلامه لزوجته:

- تعرفين يا فتوحة يا أم سمحان انني احترمك واحبك، ونحن الآن في بلاد غير البلاد التي تعودنا عليها أيام الخير، وتحت حكم ليس لنا خيار فيه، فلا مجال إلا ان نكون أنت وانا متوافقين، نحترم بعضنا وتكون توجهاتنا موحدة، لانتعارض ولا وقت لدينا للخلافات العائلية، فآمل منك ان لا تعترضي على كلامي، وأن تساهمي بنصائحك لابنتنا، لتسهيل مهمتي، وسوف أزور اخي الليلة، ونتحدث حول الموضوع كما هي عاداتنا وتقاليدنا الأصيلة، لأرى وأسمع رأي اخي نفسه قبل إكمال الفكرة، أما ابنه فلا رأي له، فهو انسان بسيط يطيعني ويفعل عادة كما آمره أو أطلب منه، وأعرف جيدا، ان مهمتنا سهلة، وأعتقد أن أخي سيفرح ويرحب بالفكرة، وسيكون ابن اخي وابنتنا تحت رعايتي وتحت رقابتي، ولن أتهاون معهما إن لاحظت حصول اي مشاكل بينهما.

تمت خطبة سمحة على ابن عمها رعاش، وتم الاتفاق على أن يكون العرس عندما تكمل سمحة الرابعة عشرة من عمرها اي بعد أربع شهور، وهذه الفترة هي لتدريب رعاش على تحمل المسئولية، وإجباره على العمل للمساهمة في مهر ابنة عمه، لم يفكر حمشان باستغلال ابن أخيه، بل كانت نيته صافية تماما، ليستر ابنته كهدف اول، وليحول دون وقوع ابن اخيه الساذج نهباً للضياع،أوالبقاء اعزبا متعطلا يعيش على هامش الحياة، وسخرية للناس.

لم تظهر سمحة اهتماما بالفكرة، بل تركت الأمور تسير بدون قلق او اهتمام، عرفت أن المقصود هو تزويجها من إنسان لا تحبه ولا تكرهه، فهو ابن عمها، وتعرف أقصى ما يريده ابن عمها أو غيره منها، ولا مانع لديها، فقد اعتادت على ذلك بدون رضاها، فلماذا ترفض ذلك وأهلها راضون عنها ويريدون لها ذلك، تعرف ابن عمها لا يعمل جيدا، ولا يفهم الحياة ومتطلباتها جيا، ولا يثيره شيء يهتم به جيدا، لم تبد والدتها رأيا قاطعا حول مشروع زواجها من ابن عمها، وسمحة ما زالت في عمر الطيش، ولا تقدر جيدا عظم المسئولية على الزوجة وخاصة حين تصبح اماً وترزق بأطفال، لم تقلق سمحة مما يخطط له والدها، قالت في نفسها بمشاعر طفولية مرات عدة، وكررت ذلك امام والدتها، كنت أفعل أشياء يطلبها والدي مني وانا اكرهها، ولا أعارض، واليوم يريد مني ان أتزوج ابن اخيه، فلا يضيرني ذلك ولا يقلقني، مادام هو الذي يضمن لي العيش المعقول، ويضمن ان يكون ابن عمي غير عدواني، وتمنت قائلة لوالدتها، آمل أن يتصرف كغيره من الشباب.

ومع أن بعض البنات من الجارات نصحن سمحة بعدم قبول ابن عمها الأهبل، إلا أن سمحة لم تنس أنها لم تكن بكرا، وقد بدأت تفكر باشباع جسدها الذي بدأ يثور ويتنبه لحاجاته الطبيعية، ولماذا لا يتم ذلك بالحلال والزواج الشرعي؟، وليس بالسرقة والخوف والقلق والاستغلال.

تعرف والدة سمحة عن ضعف شخصية رعاش، فتحس فتوحة بالغبن، ولماذا لم يرزق الله ابنتها الجميلة والفصيحة بشاب يرفع الرأس ويفتخرون به وبرجولته، أوبقدرته على إعالة عائلة؟ ولماذا اختار حمشان ابن أخيه؟هل كان قراره ليطمر ابنته في مستنقع الفقر والخمول، وأكثر ما كان يقلق فتوحة معرفة قوة شخصية ابنتها سمحة، فظلت تخشى من تمرد ابنتها مستقبلا، وخاصة وان زوجها شاب امعة، يستصغر كل الناس عقله ويستغلون سذاجته من أجل سيجارة او فنجان شاي، وحين اشتكت فتوحة لزوجها عن ضعف شخصية رعاش، نهرها ورفع صوته كعادته قائلا: ألم اقل لك انني سأؤدبه، وهو يخشاني، وسأعاقبه حتى لو صار عمره أربعين سنة. تصمت فتوحة كعادتها، ولم ترد عليه، بل قالت، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله، لكن فتوحة لم تحدث ابنتها بمثل هذا الكلام، لأنها كانت تظن ان ابنتهما سمحة مازالت طفلة، ولا تفهم الرجال ولا الزواج ولا تفكر بمسئوليات الزواج. بل كانت سمحة تفكر بأحداث طفولتها، وكل ما مرّ بها قبل نجاح الرجل في استغلال عملها في ا لمزرعة.

حين صار عمر سمحة ثماني سنوات، كثرت شكاوي ابناء الحارة منها، وصار الناس يشكون بأن البنت تعاني من خلل نفسي او عقلي او ثقة زائدة بالنفس، لا تعرف المستحيل ولا تخشى اي صعوبة او تحدي او هزيمة، هي خريجة مدرسة شوارع المخيم، وحتى لو أهينت او هزمت، فالأمر عندها سيان، وتحاول ثانية الانتقام او صرع الولد الذي آذاها، تهاجمه فجأة او على حين غرة، تنام فوقه، وتطيل المكوث، وهو يحاول النهوض، فتجد متعة كبيرة في قدرتها على ضبطه وإشعار المحيطين بأنها منتصرة. تنهض فجأة وتولي هاربة صوب أسرتها، فيواجه إخواها ووالدتها الصبي اللاحق بها، فيحرجونه بقولهم: الا ترى أن من العيب عليك ان تطارد ابنتنا؟ ويهددونه بالتحدث لأهله عن محاولاته إيذاء ابنتهم، فيضطر الولد الانسحاب حتى من الساحة والمنطقة التي تم فيها العراك، لأنه محرج من زملائه الذين شهدوا على طرحه ارضا من بنت حمشان.

حمشان والد سمحة كان مهاباً في المخيم، فهو رجل شهم متحدث جيد، قوي البنية ممتلئا، يحترمه الناس لمظهره وفصاحته وحرصه على الحق والواجب، وشاهد الجميع ان حياته تتحسن يوما بعد يوم، لأنه رجل كريم عند الحاجة، ويلبي النداء لو قصده اي من الناس، نشيط عرف كيف يعيد بحبوحة العيش له ولعائلته بعد الهجرة التي أهانت معظم الناس وأذلتهم، كان حمشان وأولاده لا يلبسون الملابس التي يتم توزيعها على اللاجئين بصرر كبيرة مجانية، انتشرت تلك الملابس الأوربية والأمريكية حتى بين المواطنين غير اللاجئين، فصار المواطنون من اصل فلسطيني او أردني يشترون بعض الملابس التي تعجبهم، وخاصة ملابس الشتاء الدافئة، ثم إن الفساد والطمع، جعل المديرين والمسئولين حكوميين واجانب وفلسطينيين من الموظفين، يطمعون في مثل تلك الصرر الكبيرة من الملابس، فيعملون على تسريب صرر كبيرة وكثيرة فيها ملابس مهمة لبيعها في الأسواق المحلية بطرق ملتوية وبالخيانة، بدل توزيعها على اللاجئين مجانا حسبما هي مرسلة من الأونروا، فامتلأت المتاجر بتلك الملابس المستعملة لإعادة بيعها، فمنذ ذلك الوقت اي أوائل الخمسينات من القرن العشرين بدأت بوادر تجارة البالة، وصار ابناء بعض موظفي الدولة البسطاء وبناتهم يحصلون على ملابس بطرق غير شرعية، ولا يعرف أحد كيف وصلت مثل تلك الملابس الخاصة لعائلات من غير اللاجئين، لكن بعضهم كانوا يشترونها من متاجر الملابس، ثم درج عليها إسم (ملابس اوربية).

نصح حمشان ابن اخيه راعش أن يحضر هدية لخطيبته، وفي اليوم التالي اشترى رعاش معطفاً نسائيا لخطيبته بمساعدة شقيقته المتزوجة والأكبر منه، كان معطفا دافئا من ملابس البالة التي توزع على اللاجئين مجاناً، وحين قاسته سمحة وجدت انه كبير وواسع عليها، فطلبت منه إعادته وشراء معطف اقل حجما، لم يعبا ابن عمها بكلامها، وقال لها يمكنك ان تلبسيه حتى لو انه واسع، لأنه فوق الملابس، وهو للوقابة من البرد على اية حال وليس للزينة، لم تناقشه في الأمر، فحملت المعطف، والقته في الطين وداست عليه حتى يتمرغ بالماء والطين، حزن رعاش ودخل لعمه باكيا شاكيا مما فعلته سمحة، فغضب حمشان من الإثنين، حشرهما في زاوية وبدأ بضربهما بحزامه ا لجلدي السميك، وطلب من راعش أن يحضر المعطف، ثم طلب من سمحة ان تغسله حالا بالماء النظيف، مال بعدها على زوجته، وطلب منها ان تجففه خلال يومين، وسيبيعه لأحد معارفه من تجار البالة، حتى يحرم الخطيبين من الانتفاع به، وبعد أسبوع سلم ابنته سمحة دينارا واحداً من ثمن المعطف الذي باعه بثلاثة دنانير، إذ قال له صديقه الذي اشتراه انه سيبيعه بأربعة دنانير، وإن كان محظوظا قد يحظى بخمسة، لأنه معطف دافئ وجديد وغير مستعمل.

تم الزواج دون اعتراض ولا مشاكل، وفرحت والدة راعش كثيرا، لأن ابنها اصبح رب عائلة، وشكرت عمه على مساعدة ابنها، تقديراً لشقيقه المريض وشبه المقعد، وصارت تعامل سمحة باللطف واللين وتقدم لها كل ما تستطيع حتى تظل مسالمة مع ابنها الساذج، والذي كانت تعرف طباعه وضعف شخصيته، حتى في طفولته كان سخرية للأطفال، لأنه كان يرتعش حين يعارضه طفل او يصارعه او يعتدي عليه، فيلقبونه أحيانا براعش، واحيانا أخرى برعّاش، فتنقذه والدته وتقوده إلى بيتها، ولهذا درج عليه اسم راعش أو رعاش. لم تظهر سمحة اهتماما في يوم ما بابن عمها، كانت سمحة تطلب منه تنفيذ بعض المهمات قبل زواجهما، فيطيعها ويقول لها، حاضر يابنت عمي، أأمريني وانا اطيع كلامك، وكثيرا ما طلبت منه ان يكنس امام الخيمة او الغرفة، او يرش الماء على الساحة الأمامية حتى يخمد الغبار، او لكي تبرد المنطقة في ايام الصيف الحارة، لكنها لم تكن تثق به ليشتري لوالدتها الخضار او الشاي او السكر من الدكان البعيدة، فتصحبه معها لتتسلى عليه في الطريق، ولتسخر من عقله البسيط، وليحمل عنها علبة الشاي او القهوة في طريق عودتهما للبيت.

**الفصــــــــــل الثالث عشر**

لم أفكر بتأخير حملي بعد زواجي الثاني من درويش، لأنني صرت أعرف حبوب منع الحمل، من عيادة الإسعاف في المخيم، خرقوا رؤوسنا بفوائدها، لكن القصد منها تقليل نسل الفلسطينيين وسكان المخيمات، لم أعرف المخيم ولا حياته بعد زواجي من درويش، إذ رافقته لمقر عمله في الكويت، بعدها لم أقم في المخيمات يوما واحداً، رزقنا في الكويت بطفل جميل، سليم جيد الصحة، وصار كل تركيزي واهتمامي في الحياة مع درويش هو الاهتمام بابني، مع ان حالة ابني المعوق من زواجي الأول من ابن عمي ظل رعبا وهماً يطاردني أينما حللت، نشأ ابني مسامح على الدلال والرعاية الكاملة مني ومن واالده درويش، حتى إن والده لم يسمح له باللعب مع الأولاد الآخرين، وخاصة في الكويت، بل ظل يحرص على بقائه حوله، يحتضنه ويدلله، تقول سمحة:

- بعد أن تحالف الغرب وبعض العرب على طرد الجيش العراقي من الكويت عام 1991، لم يستطع زوجي الثاني درويش من العودة للعمل في الكويت خوفا من انتقام الكويتيين، ولأننا من اصل فلسطيني، وبعض الفلسطينيين والأردنيين خذلوا الكويتيين الذين وظفوهم واحتضنوهم،فتعاون القلة منهم مع قوات الرئيس العراقي صدام إثناء احتلال الكويت، إذ انخدع بعض الفلسطينيين والأردنيين بقدرة العراق ورئيسها في تلك الأيام، لكن الحال انقلب على رؤوسهم، ورؤوس كل الفلسطينيين و الأردنيين وقتها، فخربت بيوت كل فلسطيني كان له استثمار او مصلحة تجارية او صناعية او مهنية أو حتى وظيفة في الكويت، وصار الشعب الكويتي يكرههم، وربما صاروا يكروهون كل العرب، لأن بعضهم أيد الرئيس العراقي صدام أيامها، او تعاونوا مع رجاله، وكان الأولى بالمغتربين المقيمين في الكويت، مقاومة المحتل حتى لو كان عربيا، لأن حياتهم كانت في امان وسلام مع المواطنين الكويتيين، وبتضافر العالم كله ومعهم معظم الدول العربية، لم يدم الاحتلال العراقي للكويت طبعا، بل تم طرد الجيش العراقي من الكويت بعد شهور قبل مرور عام على الاحتلال، ومني العراق وجيشه بخسائر هائلة في الأرواح والمعدات، وبإذلال لم يعرف التاريخ مثله، وتم حصار العراق اقتصاديا وسياسيا وعسكريا، مما أضعف البلد بعدها حتى جاع العراقيون وتألموا جداً بسبب ضيق الحال والحصار العالمي المفروض عليهم، وللأسف أن كثيراً من العرب مازالوا يتآمرون مع الأجانب، ويتفقون معهم على خطط تخريب استقرار الشعوب العربية، او بالضغط على شعب عربي دون آخر، وأمثلة ذلك كثيرة مثلما حصل في ليبيا القذافي، وعراق صدام، ويمن عبدالله صالح، وسوريا الأسد، نعم كان حكام تلك الدول ودول عربية أخرى ظالمين، ويسيطرون على كل شيء في البلد، المهم إن الكويت تحررت، وعادت لأهلها، أما قضية شعب فلسطين التي مضى عليها أكثر من أربعين عاماً وقتها، ظلت قائمة تشهد وتدين تقاعس العرب والعالم، عن إحقاق الحق والعدل على الأرض، مما زاد من عزلة الشعب الفلسطيني، لا بل زاد تآمر الكثير من الدول العربية مع المستعمر الأجنبي لصالح الصهاينة المحتلين، مع أن الشعب الفلسطيني لم يؤذ اي شعب آخر، ولم يكن له جيش يوما ما، شعب كان مسالماًعلى أرضه وبلاده التي عمرها لآلاف السنين، إن الاحتلال العراقي للكويت زال خلال شهور، ولكن الاحتلال الصهيوني لفلسطين مايزال منذ اكثر من سبعة عقود هذه الأيام، ومؤيدو الصهاينة أو من يخشونهم من العرب يسيطرون على المعارضين وعلى المتعاطفين مع الفلسطينيين، فلا توجد أصوات تعلو او تظهر لتدين التآمر على الخيانة،كلامي كله مما أسمع وأشاهد على المحطات الفضائية، لكن ما يهمني هو اننا حرمنا من النعمة التي كنا نعيش بها في الكويت.

لا نكران في أن كل من عمل في الكويت عاش في بحبوحة من العيش، وبكرامة وحرية معقولة، وكل من حرص ووفر واقتصد، خرج بثروة وتوفير يشجعه على عمل تجارة ما، او مواصلة تجارته إن كان يعمل فيها أثناء وجوده في الكويت، او يعيش على ما وفره لسنوات عدة ريثما تستقر أحواله، او ليشتري بيتا له في عمان أو أي موقع يلائمه في الأردن بعد هروب جميع المغتربين من الكويت، او طرد من تبقى منهم، وهذا الكلام معروف ومكرر ومكشوف للجميع في بلدنا الأردن، وذلك لأثره الشديد على الفلسطينيين والأردنيين، ولا ندري إن كان ذلك ادى لتفاهم بعض الفلسطينيين مع إسرائيل وعودة فئة قليلة منهم حسب اتفاق اوسلو للعيش في الضفة الغربية من فلسطين.

المهم إن درويش الذي كان يعمل في الكويت، غادرها للعيش مع أسرته في عمان، وكان لدى درويش بعض التوفير، فاستأجر شقة كبيرة في عمان، وأقام فيه مع زوجته سمحة التي اصبح اسمها ام مسامح بعد أن رزق منها بغلام واحد، إضافة إلى ابنائه الستة من زوجته الأولى التي توفيت أثناء عمله في الكويت، وما إن مرت سنتان حتى بدأت فلوسه في النفاذ ولم يعد يقوى على العمل حيث نوفت سنه على السبعين من عمره بعد عامين من مغادرته الكويت، وتزايد المرض عليه، فمات بعمر خمسة وسبعين عاما، واصل الطفل مسامح دراسته في المدارس الخاصة، بمساعدة عمه المستنير ببعض المصاريف، تقديرا لشقيقه درويش.

حين كان درويش يعمل في الكويت كان شقيقه الأصغر منه كثيرا واسمه المستنير قد أنهى دراسته الثانوية بنجاح كبير، ولما كان والدهما قد توفي بعد موجة التهجير الثاني للفلسطينين إثر هزيمة حزيران عام 1967، تولى درويش الإنفاق على اخيه كي يدرس في جامعات الجمهورية العربية المتحدة (إقليم مصر)، أنهى مستنير دراسته الجامعية بنجاح منقطع النظير خلال اربع سنوات، سرعان ما وجد وظيفة محاسب في شركة كبرى للتدقيق والمراجعة في الأردن. وخلال سنوات قليلة تحسن وضع مستنير جدا في الشركة نفسها، واحتل مركزا مرموقا بها، استطاع ان يوفر مبلغا جيدا من المال، دخل به كشريك مؤسس ومهم في شركة مساهمة عامة، وعمل على المساهمة في تطويرها، استقال من مركزه في الشركة التي كان موظفا بها، وتفرغ للعمل في الشركة التي ساهم في تأسيسها، ودفعها للأمام بخطى ثابتة حتى صارت من الشركات المستقرة والمهمة في البلد، ودخله يرتفع عاما بعد عام، بسبب الراتب العالي الذي يتقاضاه والمكافآت على نجاح الشركة وعلو أرباحها، عدا عن أرباحه من دخل حصته في أسهم الشركة، لكن رافق تطوره هذا انحدار حالة اخيه المرضية والاقتصادية، فلم ينس المستنير الجميل الذي قدمه شقيقه له حين تولى الإنفاق عليه أثناء دراسته الجامعية في مصر. فصار يساعد اولاد اخيه السبعة حتى يكبروا ويساعدهم الواحد إثر الآخر في إيجاد عمل لكل واحد منهم كي يتولى الإنفاق على نفسه، أكمل معظم أولاد أخيه الستة الذين توفيت والدتهم الشهادة الثانوية، المهم إن عمهم أوصلهم لحياة مستقرة سواء في الأردن أو خارجها.

كبر مسامح وصار شابا مراهقا، وحين تقدم للشهادة الثانوية لم يحالفه الحظ في النجاح، لأنه كان مدللا ولا يضغط عليه أحد، لكي يهتم بالدراسة جيدا، فصار عمه يبحث له عن عمل يعتاش منه هو ووالدته، لأن بعضا من إخوانه الستة حصلوا على وظائف او تزوجوا او سافروا للخارج، بقي مسامح ابن سمحة عاملا بوظائف غير ثابتة ولا مضمونة، يكافح للعيش مع والدته، لكنه ظل يشعر بأنه مدلل، ولا ينقصه شيء سواء مما يساعده عمه به، او من شطارة والدته التي كانت تعيش في بحبوحة من العيش، لا يعرف أحد كيف تتدبر ذلك.

مسامح ظل غير عابئ بمستقبله ولا بالتوفير، وعمه يدفع عنه أجرة الشقة الكبيرة التي يقيم بها مع والدته وشقيقته الأكبر منه، فزاد عبثه، وصار يخرج مع الشباب بعد عودته من عمله كل يوم للأسواق والمولات في عمان، يتسكعون ويعاكسون البنات، تاركا والدته واخته حبيستين في الشقة الكبيرة التي استأجرها والده لهم منذ خروجهم من الكويت، مسامح كان ينفق كل دخله على ملذاته وسهراته ووجباته من المطاعم الشعبية والساندويتشات التي بدأت تنتشر في عمان بسرعة عجيبة بعد انتهاء القرن العشرين، بل ويطالب والدته بإعطائه بعض المصاريف، كانت تتذمر من طلبه، لكنها تعطف عليه وتضطر أن تستجيب لطلبه.

شاءت الصدف أن يتوقف مع اصدقائه امام فاترينة أحد المحلات التي تبيع الملابس النسائية في جبل الحسين، واعجبتهم ملابس الموديلات المعروضة داخل الزجاج، وصار كل واحد منهم يتفوه بكلمة حول الصدر النافر، والسرة الظاهرة، او المؤخرة المنتفخة، سمعتهم إحدى البائعات فابتسمت لمسامح، فتجرأ وقال لها، هل تحبين مثل هذه الملابس؟

- حين أتزوج لن البس إلا على الموضة الجديدة، وها انا اعمل هنا لكي أضمن اختيار الموديلات الحلوة والحديثة واشتريها من راتبي.

- وهل سبق لك ولبست مثل هذه الملابس؟

- ستراني غدا إذا اردت، لكن اسمع دعني اختار لك قميصا للشباب الحلوين مثلك، وصل لمحلنا قبل يومين، وأحب أن أراك تلبسه غداً. كان صاحب المحل خارج المتجر وقتها، نظر مسامح لسعر القميص فوجد أنه لا يملك عشرة دناينر لدفع ثمنه، فسألته ميرا، كم معك من النقود، او كم تستطيع ان تدفع؟ فأخبرها انه لم يبق لديه اليوم إلا أربعة دانير، استمهلته قليلا، ثم ذهبت للرجل الموظف الآخر، تحادثا لدقيقة، ثم عادت وقالت له سأتدبر الأمر لك بشرط ان تأتي غدا هنا والقميص على جسمك، سنحسبه بخمسة دنانير، كدعاية، وسأتحمل الدينار الخامس من جيبي، فهات الأربع دنانير التي معك.

وفي اليوم التالي، لم يقبل مسامح ان يستريح بعد عودته للبيت من عمل شاق في ذلك اليوم، لم يتصل بأصدقائه يومها كالعادة في كل يوم، لكنه ارتدى القميص الجديد، وتوقف امام نفس الفترينة، فظهرت لهم الأنسة ميرا مرتدية بلوزة بلا أكمام، وبنظلونا قصيرا مشدودا عليها. فرح مسامح كثيرا حين رآها بلباس الموديل الذي كان معروضا في الأمس، وحين شاهدته ميرا بالقميص الذي اختارته، انشرح صدرها وابتسمت ثم دعته لدخول المعرض، وقدمته لصاحب المحل، فأثنى الرجل عليه لأنه يرتدي قميصا من عندهم، ثم قال له إنك جذاب بهذا القميص، ونعتبر أنك نموذج دعائي لقميصنا الفريد والمودرن، تقدمت ميرا منه، ولمست ظهره ومسدت على القميص فوق بطنه معجبة به ومدللة له، لكنها قالت له ما شاء الله ما أطولك، فأجابها إنني لا أحب الطويلات، يكفي انني انا طويل، فقالت له أفهم انك تحب الفتاة المعتدلة او القصيرة نوعا ما مثلي؟؟ نعم نعم انت حلوة والملابس الحديثة عليك جميلة ومغرية، وأصارحك لو كان عندي إمكانية لاشتريت لك هدية بدل مساعدتي في شراء القميص في حدود إمكانياتي يوم امس، فسألته:

- هل عندك أخوات؟

- واحدة تزوجت والأخرى مازالت تعيش معي انا ووالدتي

- ماشاء الله هذه كل أسرتك؟

- نعم تزوج كل إخواني وبقيت اعيش مع والدتي، هزت رأسها ميرا مبدية اعجابا زائدا به، ثم قالت:

- نيالك، اسرة صغيرة وأكيد مبسوطين، هل بيتكم الذي تعيشون فيه ملك لكم؟

- كلا نعيش في شقة كبيرة مستأجرة منذ خروجنا من الكويت. استمهلته قليلا، ثم توجهت ميرا لصاحب المتجر، وتحدثت معه، ثم عادت لتخبر مسامح، أنها تحدثت مع صاحب المحل، وستقدم بلوزة مودرن لشقيقته على حسابها، ثم حاولت استكشاف عقله ومشاعره ، فسألته:

- هل تؤمن بحرية الفتاة وأن لها الحق في أن تتحدث وتتعرف على الشخص المناسب؟

- أووه أكيد، هذا هو المطلوب في هذا الزمن، وأتمنى ان تكوني صديقة لي. هل أكملت الشهادة الثانوية ياميرا؟

- ودرست سنتنين كلية المجتمع ونجحت في امتحان الشامل.

- هل تقبلين دعوتي لك على وجبة شاورما بعد انتهاء عملك؟

- سأحاول ذلك بعد ان أتصل بوالدتي إن سمحت لي بالتأخر في العودة للبيت، لأن عملي ينتهي عند السابعة مساء وقبل غروب الشمس.

- أي بعد ساعة من الان، سأتمشى في منطقة دوار مكسيم وقد ألتقي ببعض الأصدقاء، وأعود لك عند السابعة.

أشارت له بفرح، تتسع حدقتا عينيها رضا وسعادة، تزداد حمرة خديها تورداً، وبرغم صمتها إلا أن كلام القلب يكاد ينطق على وجهها.

تناولا طعام عشائهما وصديقين آخرين، انتقلوا لمحل الكنافة قرب دورا مكسيم في جبل الحسين، وطلب كل واحد منهم وقية كنافة، لكن الفتاة لم تأكل إلا نصف صحنها، فابتلع مسامح ما بقي في صحنها، انفصلا عن الصديقين الآخرين يمشيان في الشارع العام ويتفرجان على المعروضات في المحلات التجارية التي تظل مفتوحة لما يقارب الحادية عشرة ليلا في شهور الصيف، بعدها التقوا ثانية وجلس الأربعة على مقعد حجري على حافة الشارع العام يتحدثون ويمرحون ويضحكون، وعند العاشرة استأذنت ميرا صديقها مسامح للعودة لمنزلها، فأوقف سيارة تاكسي أركبها به، ودفع أجرة السيارة، وقبل دخولها سيارة التكسي قدم بلوزة جديدة، وقال لها هذه هدية لك بمناسبة تعارفنا. وسأحاول الحضور لجبل الحسين مرتين او ثلاثا كل اسبوع كي نتعشى معا بعد انتهاء عملك، صاحت الفتاة سعيدة بهديتها، واستغرب سائق التكسي من هرجهما، وقاطعهما السائق العجوز قائلا:

- ألم تشبعا من الحديث؟ ألا يكفيكما ما تحدثتما به معاً من قبل؟ ألا تؤجلان الهرج حتى تلتقيا في مرة تالية؟

**الفصــــــــل الرابع عشر**

بكت أم مسامح كثيرا أثناء مشاهدة حلقة مؤلمة من مسلسل طرد العرب من إسبانيا، . . . . إضافة. . . . .وشعرت بأن حياة الشعوب العربية وتاريخها هو ركام من الأخطاء والأحزان، تلاحقنا او تسابقنا طول اعمارنا وعلى مدى الأجيال السابقة والأجيال اللاحقة، وستلاحق الويلات ابناءنا واحفادنا بتسلسل مهين وعذاب ونكبات متواصلة، ليس آخرها نكبة الشعب الفلسطيني، وحتى نتمكن من التعايش مع حياة الأخطاء والشقاء، يبدو أننا بحاجة لمهدئات متواصلة لتجعلنا ننسى كل ما مرّ وما هو واقع، وما هو متوقع، لأن الزمن والكارهين والخونة يفرخون لنا مشاكل لا تخطر على بال، وليست سهلة على النفس، ويظهر إننا نهمل ما يجب علينا فعله او سلوكه او اتباعه في حياتنا فينتقم الله منا، وتتواصل همومنا.

تقول الجارة لسمحة، انسي كل ما جرى، وادخلي بيتك كأن شيئا لم يكن، او سامحيني أسألك؟ حين نكبر هل نستطيع إجراء تغيير لحالنا أو حال غيرنا؟، وعلى الأخص نحن النساء كبيرات السن؟ لكن وبالمقابل، هل نستطيع ان نتوقف او يصيبنا الشلل عند كل حادثة صغيرة؟. . .نحن ا لأمهات والحموات لابد أن نحتمل ونصبر على مخالفات ومشاغبات اولادنا وزوجاتهم.، وإلا إقترحي حلا لنا!.. "طول عمرك يا زبيبة في . . . هالعود"، نقضي عمرنا نعتمد في كل شيء على الرجل، وخاصة المرأة غير المتعلمة، نعيش تحت سيطرة الرجل، وتحت رحمته إن كان رحيماً، وتحت سطوته إن كان لئيما او مريضا نفسيا، وقبل ذلك تحت سطوة الوالد والإخوان ومراقبة الأقارب، ننتظر كرم الرجل، أو نضطر لمسايرته واكتشاف رغباته، قد نفعل ما يريده هو لا ما نريده نحن، حتى نحصل على بعض من مطالبنا او حقوقنا، وبعد أن كبرنا هل عندك كلام او شيء إضافي، وغير ماذكرت عن حياة المرأة العربية من جيل الأربعين واطلعي؟.

تجيب ام مسامح، والله يا جارتي، من كثر ما مر علينا وخبرنا، صرنا نفكر اننا نصير نرشد الناس، او نتفلسف مثل ها نسمعهم يقولون، كلامك والله حقيقي وفي الصميم، وكأنك عشت معي طول عمري منذ طفولتي، مع ان عندي الكثير من الأخبار والامور غير ماذكرت. لكن عموما أوافقك بأن علينا التحمل والتصبر، واستعمال العقل، ومادام إن الله وهبنا العقل، فلا بد أن نستخدمه لمصالحنا، وبشرط ألا نضر بأهلنا والغير، يقولون ان المرأة إنسان لطيف، معظمالرجال يقولون إن المرأة إنسان ضعيف، لكن أنا أقول انها إنسان غامض، لها شخصية وعقل ومشاعر مثل الرجل بل ربما وأعمق، بسبب دورها البطولي في الأمومة والتربية، فهي التي تنشئ الأجيال التالية، بنات أو أولاد، مهمتنا وحياتنا ليست سهلة، لكني افتخر بأنني ام وأنني أنثى، وبرغم ضعفي الجسماني والاقتصادي، لكنني لا أشعر بالضعف ولا بالذل، فكل امرأة هي كيان مستقل، ولديها الحرية لتفعل كل ما يمكنها للتحرر من الظلم من أي شخص، زوج او عاشق او والد او أخ، أو أي سلطة تنوي التحكم بحياتها. المرأة هي سيدة نفسها، حتى عندما تخضع لنزوات الرجل او لرغباته، فلها أهداف تعود بالنفع عليها في أي موقف، أي أن المرأة مخلوق ذكي، تعرف مالها وما عليها، وحتى حين تقع في مواقف مخالفة للصح والمألوف، تكون هناك دوافع كثيرة تبرر مواقفها. على كل حال، طولنا الكلام، وأطلب منك تسامحيني أيضا لأنني عطلتك وأشغلتك معي، لا أريد أن ادخل الشقة اللي فيها كنّتي أم العيوب حتى يحضر ابني، سأنتظره عند مدخل العمارة، وسأشغل نفسي بمشاهدة الناس والسيارات في غدوها ورواحها، حتى يعود ابني مسامح من عمله، والجو لطيف وأشجار حديقة جارنا كما ترينها منتعشة، وتزداد خضرة يوماً بعد يوم، والأزهار المزروعة في الأرض بألوان زاهية، وروائح منعشة، وأشجار جارنا تبشر بثمر كثير، وهاهي الطيور فرحة ناشطة، تتطاير من شجرة إلى شجرة، ومن عمارة لعمارة أخرى، فرحة بهذا الجو الجميل، وقد بنت معظمها أعشاشها للتكاثر في وفاق وسعادة، كل هذه النعم الإلهية، والحرية التي تتمتع بها الطيور والمخلوقات الأخرى في الحديقة والطبيعة، تجعلني أشعر أننا أشقياء كبشر، أو :مظلومون وبعضنا ظالمين.ألا تلاحظين اننا أقل حظا بكثير من الطيور في الطبيعة؟ لكم تمنيت أن أكون طيرا، احلق بحريتي، وأنطلق إلى كل مكان يروق لي، وحتى يأتي الموت في مكان لا اعرفه، ولا خيار لي فيه، لهذا اغبط الطيور على حريتها واتساع الآفاق التي تجوبها، بعضنا نظن أننا احرار نستطيع التحرك والذهاب إلى اي مكان، لكننا في الحقيقة اسرى لكل شيء حولنا، اسرى الزوج، اسرى الإبن، أسرى التراث والتقاليد، اسرى المشايخ، أسرى الملابس الثقيلة، أسرى الحياء، اسرى الأنوثة، وأسرى نقص الفلوس، أسرى الأمن والدولة،إنني أرى أن السعادة تتناقص على الأرض يوما بعد يوم، وأينما ذهبنا نستمع شكاوى وتذمر، سواء من ظلم بعضنا لبعض، أو لسوء الحظ والظروف القاهرة والتقاليد والعادات، او بسبب سوء أخلاق البعض وخلقهم المشاكل لأنفسهم ولغيرهم. لا ترد الجارة على سمحة، ويظهر انها ملت من طول الكلام والجلسة، فتدير ظهرها وتبدأ العودة لبيتها المجاور، دون رد، لكنها كانت تثرثر بكلام منخفض، ربما ملت من طول تعليقي، أو إنها تريد أن تتجنب البوح ببعض ما حل بها في شبابها، وربما تبرر المواقف التي خالفت فيها ربها والشرف.

تستدرك أم مسامح ظنونها قائلة، وانت مالك يا ام مسامح في شكاوي المرأة وثرثرتها، هل تظنين ان كل النساء لا بد يحدث معهن كما ابتليت به منذ طفولتك الأولى؟ حياة الناس أسرار، حياة كل إنسان هو صندوق مقفل، لا نستطيع ان نعرف مابه إلا إذا فتحه صاحبه، وكشف مافيه بنفسه، لم تشأ أم مسامح أن تسأل جارتها، عنم تتحدث، حتى لا يتجدد النقاش والحوار، لكن سمحة قالت لنفسها، معها حق جارتي، لو ظلت واقفة فسيتواصل حوارنا النسائي إلى غروب الشمس. لم تجد سمحة شيئا تتسلى به، حتى يحضر ابنها مسامح، فصارت تعيش مع موقف قديم من حياتها الماضية.

دأبت على حضورالدرس الديني مع والدتي في المسجد الصيفي القريب، وبحضور نساء أخريات كذلك، لكنني واصلت دروسه مع والدتي او وحدي حتى بلغت العاشرة من عمري، ويظهر انني صرت مدمنة على لمساته، وخاصة وانه لايؤذيني، وأنا أستفيد من كلامه، كما تستمع النساء الأخريات لكلامه، فما كان يفعله بي، أحسبه عشقا واقترابا مني بطريقة غامضة، وسمعت منه ومن غيره أن الأب يحتضن ابنته، ويضمها ويقبلها، وكأنه أصبح المعادل الموضوعي لما ينقصني، لكن بصراحة صرت أحسّ بنوع من توقع وانتظار لما يفعله، لأنه لم يقطع عادته كلما زرته وحدي، وبعد أن بدأ يعلمني القراءة، وبمعرفة والديّ، زاد ارتباطي به، لكنني كنت اتعبه، ولا أنتبه للدرس ولا للتعلم، إلا قليلا قليلا، لكنه لم يكن ييأس، بل كان يكرر ويطلب مني ان أقرأ السطر الذي كتبه، أحاول ان أقرأه مرة، بعدها، أصبح كأنني لم اسمع به من قبل، وحين يطلب مني الكتابة، انشغل بأظافري أو اتأمل الشارع، او أكثر أسئلتي عن مواضيع طفولية، مثل هل يجوز للبنت ان تلعب مع الأولاد في مثل سنها؟ هل إذا لعبت البنت يلزم أن تكون مرتدية سروالا طويلا؟ هل إذا مشطت شعري في الشارع او اثناء مشاهدة الأولاد، هل يغفر الله لي؟ صرت أحب أن أرى والدي يؤدي الصلوات الخمس، وهو مواظب عليها، وكنت أبادر أحيانا بالصلاة مع والدتي، لكنني كنت سرعان ما أمل وأنسى وقد أغادر المكان في منتصف الصلاة، او قبل انتهائها بقليل، كانت تلومني والدتي، لكنها لم تشدد عليّ يوما ما، معتبرة انني مازلت طفلة دون العشر سنوات، وحين أكبر سأصبح مثلها بشكل طبيعي. وهذا شجعني على التواصل مع الشيخ على أمل التقرب من الله وفهم امور ديني.

وبينما انا في هذه التذكارات، أنظر حولي وأخفف من همسي، حتى أتأكد ان لا أحد يسمعني، فقطع عليّ حبل أفكاريصوت مزعج، تمر سيارة بيع أسطوانات الغاز، أزعجتني بأصواتها التي تصدر من مسجل فيها، تعلن لربات البيوت عن تواجد السيارة قربهم، زاد ضيقي من صوته المتكرر والعالي، ونسيت الشيخ وما أحسسته، ومع أنني بدأت افكر بفعل شيئ أغيظ به كنتي ميرا، تذكرت ان اسطوانة الغاز عندنا قد فرغت، ضحى ذلك اليوم، فوقفت بباب الشقة وناديت على بائع الغاز كي يحضر لنا أسطوانة جديدة، دفعت باب الشقة بقوة فأصدر صوتا مزعجا، ثم بدأت بفصل اسطوانة الغاز الفارغة عن خرطومها، ثم وبقصد طرقت باب الشقة ثانية بقوة، فهاجت كنتي ميرا تصرخ شاكية من الإزعاج والضجة التي اثرتها، فقلت للشاب، أطلب ثمن اسطوانة الغاز من السيدة المحترمة، فصاحت به قائلة، لم أطلب منك أن تحضر لنا اسطوانة غاز، انا لا أحمل نقودا معي، إما أن تأخذ أسطوانتك او ترجع مساء حين يعود زوجي من عمله، فقلت لها بصوت واضج، ما دام ما بتموني على خمسة دنانير، ولماذا تنتفخين وتفحّين، تتمادين في غيك وعنجهيتك وقلة أصلك، انسحبت مولولة وهي تثرثر وتسبّ وتلعن في طيش، ثم اندست في غرفة نومها، خبطت بابها بقوة، ثم أقفلته بالمفتاح على نفسها، اضطررت لدفع قيمة استبدال أسطوانة الغاز للرجل، وطلبت من البائع إعادة توصيلها مع خرطوم مشعل الغاز.

مشيت في صالة البيت، وفكرت بالجلوس ثانية على كرسي في شرفة المنزل، وبعد دقائق أحسست بتعب وإرهاق، دخلت البيت ثانية، وعلى الفرشة الملقاة في صالة التوزيع دائما تمددت، وإذا بي أحلم انني بين أحضان زوجي رحمه الله، لكنه أوصاني بعد ذلك أن لا أنشغل بأمور الناس، بل اكتفي بالاهتمام بصحتي وحفيدنا الصغير الجديد، مددت يدي لكي أعيده لحضني ثانية، لكنني وجدت يدي تمسك برجل أرجوحة الطفل المجاورة، والتي اشتريناها للطفل حفيدي، تألمت لفراق زوجي الذي أعطاني الكثير من الأمان والحرية في حياته، وما زالت ذكرياته وأفعاله تراودني وأعيش معها، أوقات خاطفة جميلة، سواء في الحلم او في المعاش اليومي او المسائي، ضحكت على نفسي كثيرا، حين أحسست بالألم في اصابعي التي كانت ما زالت تمسك بساق الأرجوحة بشدة، وكأنني أتمسك بيد زوجي لأجذبه إلى أحضاني، دعكت صدري وثدييّ مرات عدة، فشعرت ببعض الراحة، تطبيقا لما كان يفعله المرحوم زوجي ابو مسامح، كان يعرف ان تلك الحركة تروق لي، لا بل هو الذي دلني عليها، ثم عودني عليها، فلم تكن متعتي تكتمل إلا إذا داعب ثدييّ وضغط عليهما بخفة معا او بالتناوب، وكثيرا ما يعود ليمص منهما، وكأنه طفل أرضعه، وبرغم انه لا يخرج الحليب منهما، لكنني كنت أجد متعة تزيدني انسجاما وانصهارا بالموقف الحميم، صحوت لنفسي، ولمتني متبرمة، أين أنت يا سمحة؟ هل تريدين المرحوم زوجك أم تنتظرين ابنك ليحل الأشكال بينك وبين زوجته كنتك؟

انشغلت بالتفكير فيما سأفعله أو أقوله حتى يحين موعد غروب الشمس، والذي يترافق تقريبا مع عودة ابني مسامح من عمله، وأسطوانة الغاز مملوءة، نهضت بتكاسل، وصرت أعمل على تجهيزالقهوة لنفسي وبمواصفاتي الخاصة، أحرص على أن تغلي الماء جيدا قبل إضافة القهوة لها، وأن تغلي القهوة أيضا مرارا، حتى تترسب، وتطرح كل نكهتها وأرومتها في الماء المغلي، مع سكر قليل، اقرب إلى السادة، وأتمهل دقائق قليلة بعد تنزيلها عن النار، حتى تستريح وتترسب بقايا القهوة العالقة في إبريق القهوة. أسكب بعدها فنجانا ببطء، وأضع قطعة من الشوكولاتة او قطعتين صغيرتين على صينية القهوة بجانب الفنجان، اقرض منهما القليل القليل، أثناء شربي للقهوة، وأتمنى لو يرافقني احدهم رجلا كان او امرأة بشرط ان يكون مدخنا، لكي ادخن معه سيجارة او اثنتين اثناء شرب القهوة، مع انني لست مدخنة ولا أقتني علبة دخان، ولا يخطر ببالي التدخين إلا إذا وجد شخص مدخن وقت القهوة. حملت فنجان القهوة الثاني وخرجت امشي على الشرفة الواسعة امام شقتنا التي نستأجرها، أراقب الحديقة اسفل مني، والناس المارين في الشارع العام، وبعض الأطفال يلعبون الغميضة والمربعات.

**الفصــــل الخامس عشر**

لم تكن غرفتنا الملحقة ببيت عمي بعيدة عن منزلنا الطيني، فكنت ازور والدتي اي وقت أشاء، وبترحيب من حماتي او عمي او زوجي الذي لا يمكث معنا طويلا في النهار، بل يعيش هائما متجولا في المخيم او على المقاهي او في المسجد او يلعب مع اي مجموعة من الأولاد في المخيم، لم يكن مجنونا، لكن عقله كان اصغير بكثير من عمره، زرت والدتي في يوم ربيعي مشمس، وقبل أن أرافقها للخروج بحثا عن نباتات خضراء صالحة للأكل في البرية البعيدة، وقرب مجاري السيول، أحسست بحاضري، وفطنت لما قد يواجهني من صعاب مستقبلا، وفكرت بفعل الكثير من التمردات برغم صغر سني ويأسي من إصلاح ابن عمي او ضمان الاستقرار معه.

زادت خيبة ظني من ابن عمي راعش، مضى علي عيشي معه أسابيع وأنا أفكر كيف حصل ذلك، وكيف فكر والدي بهذه الخطوة، وهو يعرف ابن أخيه، وبصراحة حتى وبعد طلاقي منه بسنوات طويلة، لا أصدق أنني كنت زوجة لذلك الإنسان الساذج الطيب الذي لا يصلح لشيء، وزاد الطين بلة أن رزقنا الله بولد معوق، ولا أدري لو كان ذلك الولد سليما، هل كنت سأبقى صامتة مستسلمة لمصيري وحظي ياترى؟أحتار كيف صرت زوجة لرجل طفل دون تفكير منيولا استشارتي، المهم أننيوجدت نفسي زوجة له، ولو استشاروني فلن يكون متاحاً لي أن اعطي رأياً حرا في ظل احترامي لوالدي وطاعتي العمياء له، أولا لأنني كنت مازلت طفلة في الرابعة عشرة من عمري، ووالدي هو ولي أمري، ويتحكم في وفي أسرته كلها، ولا رأي لي او تقدير في الأسرة، وكانت أي فتاة في المخيم وقتها، تتمنى أن تصبح زوجة في سن مبكرة، حتى تخرج من كتلة الأسرة وزحام بيت أهلها، لغرفة خاصة بها، او مطبخ خاص لها، وعرفت ذلك بحكم التقاليد ومن كلام والدتي التي اعتادت على حكم الرجل، وحتمية قراره، لن يهتم أحد بموافقتي او معارضتي، وما يريده والدي وابنه الأكبر، سيتم إن رضيت او رفضت، ولأن العريس ابن عمي، ووالدتي كانت هي المرهم والمهدئ طبعاً، فهي تريد الستر لي، لأنها تعرف سرا دفينا وخطيرا، وأن شخصا آخر عاشرني جنسيا وانا بعمر اثنتي عشرة سنة، ومع أنني لم أعد اشكو لها او اخبرها بما ظل يفعله، إلا أن الرجل واصل استمتاعه بي، لسنتين أخريين، فصار لدي معرفة وخبرة بالرجال نوعا ما، وحسب عمري، أي أنني لم أكن بكراً، وابن العم الساذج سخره الله لي ربما لستر هذه الفضيحة وقتها لو ا نكشفت، والعلم عند الله ماالذي سيحصل لي من تعذيب وقهر، سيصل لحد قتلي من أسرتي للتخلص من العار، ولكن والدتي إنسانة مؤمنة مخلصة وذكية جدا، تحتمل أصعب الظروف لتحقق ما يدور في رأسها من خير، ولا تفكر أبدا في سوء او ضرر لمخلوق، فأسكتت صوتي بقناعتها، وبكلامها هدأتني لترك الأمر لها ولوالدي، ودون تدخل مني برفض او إبداء اي رأي حول ابن عمي، ولا حتى مجرد انتقاده او إظهار ما أعرفه عنه، تقول والدتي لي، للحفاظ على مستقبلي وسمعتي، وسمعتها وشرف عائلتنا، وخاصة وانني لم أتعلم في المدارس إلا القليل الذي تعلمته من الشيخ في المسجد وما تعلمته من النساء الأخريات ونحن نتهجى الحروف، أي مجرد قراءة بسيطة جدا وضعيفة.

المهم وجدت نفسي زوجة لابن عمي راعش، يستمتع بهذا الجسد على هواه، وانا شبه غائبة عن دنياه، ينام اي وقت يراه، ويصحو اي وقت يشبع فيه جسمه من النوم، وبعد أن يعاشرني، يشكو من الملل والبيت، ثم يخرج للشارع بعد ان يأكل ما تيسير، او ما توفره لنا حماتي والدته، لا أسأله عن وجهته، ولا أتوقع منه قرشا او دينارا واحدا.

في الشهور الأولى لزواجنا، كنت فقط أقابل البنات والجارات اللاتي يهنئنني على زواجي، ويسألنني عن رأيي وحالي بعد الزواج، وهل أجد أن الزواج جيد او انني متضايق، وكيف يتعامل زوجي معي، أشكر الله امامهم دائما، وأقول للجميع إنه ابن عمي راعش، أحيانا اناديه راعش، واحيانا رعاش، كما يناديه ناس المخيم، وواجبي ان أهتم به، وأسايره، ولأن معظم معارفنا يعرفون حالته، فكنت أبادر بالقول، دعونا ننتظر ماذا تخبئ لنا الأيام والسنون، فمازلنا في أول الطريق، وكم من فتاة او امرأة شابة قلن لي، (ألا يمارس دوره كرجل؟ كيفي على هذا وتنعمي، كثيرات محرومات من لمس رجل، ومالك ومال سلوكه، المهم بيعطيك اللي يلزم الروح وشهوة الجسد) ولكم سمعت والدتي وجميع النساء من قبلي يقلن إن أي بداية ستكون صعبة عادة، ولا بد للفتاة والمرأة من الصبر على ظروفها الجديدة، حتى تتعرف على التفاصيل والصعوبات الحقيقية، وتصل لقناعة ثابتة بعد طول صبر واستفادة ولو بالمعاناة، وكلمات حفظتها عن ظهر قلب لكثرة تكرارها من والدتي التي كنت طول عمري قريبة منها، أسمع كلامها واحاول الاستفادة من كل كلمة تقولها لي أو اجرب أن اقلدها في تصرفاتها مع والدي.

تواردت إلى ذهني نقطة مهمة كانت سوداء وخافية على جميع أهلي، فقلت في نفسي إصبري يا سمحة، وقولي يا معين إن جسمك سيأخذ حاجاته الطبيعية من الطعام والحاجات الأخرى بالحلال، وفي بيت خاص بك، وبدون خوف ولا إخفاء، او شعور بالاغتصاب، وهذا هو الصحيح، حتى لا تظلي مركبة او مطبة للغرباء والمستغلين، أعرف ابن عمي طيب وساذج، لكنني اكتشفت انه رجل فحل، لم أكن اتوقع اهتمامه بهذه الناحية، لكن مرور الأيام أثبتت انه لا يتقن إلا هذه المهمة، يفعل مثل الرجال، وبصراحة، وبرغم صغر عمري، كنت راغبة أن اشعر بطعم حرية ممارسة الحياة الطبيعية برغبتي بين الرجل والمرأة، وتمنيت ان يكون لي خيار الأسلوب، لأنني أردت أن أجربها وأقارن بينها وبين الجنس المسروق أو المختطف سرا وتعمية.

قلت في نفسي لعل ابن عمي يحتويني ويغنيني عن الحرام وسرقة المتعة خضوعا لرغبات الطامعين من الرجال المحرومين أو المظلومين من نسائهم في بيوتهم، فقد يتمكن ابن عمي رعاش أن يجنبني فعل السوء، بعد أن اعتدت عليه، وان شاء الله سيكفيني العيش المقبول ويطعمني ويلبسني بدل الغريب، ثم فكرت في نفسي أيضا، وبعد زواجنا بشهور دون أي تجديد او مشاكل، خطر ببالي أفكار غير تلك، (مع ابن عمي البسيط سيظل لي هامش من حرية، وستكشف الأيام كيف وماذا ينتظرني، فهاهو الرجل بجانبي ومعي، وطيبته وسذاجته نقطة تحسب لي، لأنني أستطيع توجيه حياتنا وتصرفاته للاتجاه الذي اريد دون صعوبة أو ربما دون مساءلة من قريب او غريب)، ومنذ الليلة الثانية لزواجي أمسكت بزمام التوجيه، وأدركت انني انا الموجه والمدبر والمقرر، بل أحسست أن حريتي كانت مضغوطة واتسعت، ومع هذه الأفكار راودتني بعض من قناعة ورضا بنصيبي، إن حياتنا ليست ملكنا انفسنا وحدنا فقط، بل نجد انفسنا أسرى طرق وافكار لا تمت لأصولنا وجذورنا بصلة أحيانا، المرأة العربية مظلومة وتصل أحيانا لدرجة تشبه كرة القدم، فحين تسقط الكرة تتداولها الأقدام وتتطاير شمالا ويمينا، للأعلى وللأسفل، تتجرح من الأرض وتنخدش، ويلقى بها إلى الجدران، أو تقذفها الأقدام في الطين والماء وتتمرغ بالرمل والرماد والتراب، والنار والحر والبرد. وكلما حاولت الاستقرار والراحة تتدحرج بأدنى حركة تمسها، لا أول لدحرجتها ولا آخر إنها كرة قدم، ومع كل تلك الركلات والدحرجة والأرجل، تظل القوية منا محافظة على شكلها وقوامها، جاذبة للأعين وتتمنى أي يد تلمسها ولو حسب ذلك مخالفة لقواعد اللعبة، وحين يصل الأمر إلى اللمس باليد، تحصل المخالفة إلا ماكان خفية، فلعبة كرة القدم تحرِّم لمسها باليد، لكنني لاحظت أن تلك الاقترابات تصبح اكثر حنانا ولطفا، لأن الأصابع تتصل بالقلب والعين والعقل، فتعطي الطرفين شيئا من الراحة والمتعة والاستقرار والأمان.

رضيت بدون قناعة بابن عمي زوجا ورفيقا مادام يغطي ما تتطلبه المرأة العادية في حياتها اليومية، مع ثقتي بأنهرلن يملأ عيني، ولو إن الشيء الوحيد الذي يمكن ان أجنيه منه هو تلبية رغبات الجسد، بعدها يغفو او يخرج من البيت كأنه يعيش وحده، ولا شريك له في حياته، ولا يتذكر زوجته ألا إذا تعب من اللف والدوران في شوارع المخيم، او الجلوس الهامشي على مقهى صغيرة، او على قارعة الطريق، وبعد الغروب يرجع لغرفتنا عند والدته، يطلب من والدته اي طعام او مني، وحين كنت لا أجد طعاما له ولي عند والدته، او لم أطبخ يومها لعدم توفر نقود لدي، أذهب لوالدتي وأحضر اكلا مما يتيسر عندهم لي وله، بعدها يتمدد وينام بأسرع ما يمكن، كنت أغبطه على سرعة نومه، ولكم تمنيت لو يحصل معي ذلك للهرب من همومي وتحرق جسدي للرجل، أساهر والدته، أو أي امرأة او بنت من الجيران، اعود بعدها لغرفتي وألتصق بابن عمي المسمى زوجي، فإن صحا من النوم ولمسني ووجد انني بملابس الليل، سرعان ما ينشط الرجل، وكأنه يعمل على قابس او زر كهربائي، ويتم بطريقة آلية سريعة، يقضي حاجته ويعود للارتماء، ومواصلة منامه الهادئ المريح، أبقى بعدها في حيرة من أمري، وجسمي لم يأخذ حاجته بل يتساءل عما عليّ أن أفعل بعدها، فحاجتي لم تقض بعد، وكل ما فعله الزوج بي أنه أشعل النار، وسمعت القول المألوف للقباني (إن من أشغل النيران يطفيها) يتركني محبطة مهزومة خائبة في أول الطريق، دون أن يعبأ بإطفاء ناري، وأحيانا يعود للتمدد متراخيا، او يجلس ساندا ظهره على وسادتين، يستمع لموسيقى وأغاني تزيده إحساساً بالراحة والأمان، بينما انا في الحيرة أتقلب في خذلان، محاولة العودة للهدوء وتبريد جسدي، ولأجواء العمل اليومي وحياة العزلة، أظل ساهرة بعد أن أسمع أنفاسه المرتاحة وتقاسيم وجهه المطمئنة، فأشعر بقوارص تلسعني في أحشائي وشرايين قلبي، يصل ضغطها والنبض المتسارع إلى رأسي وعقلي، فأسمع هدير قلبي المتحفز للحياة وبجوع جنسي يقلقني، ويطرد النوم من عيني وعقلي، وأبدأ برحلة التهدئة وطريق التراجع عما أتمناه، أمد يدي صوب صدر ابن عمي، فيتململ، ويقلب وجهه وجسمه للجهة الأخرى، فيعينني ذلك على القناعة بالإحباط، فأضطر للتقلب في فراشي شاعرة بوحشة ووحدة لا توصف.

دأبت على محاولة إضافة المزيد من القبول، بأنني زوجة لابن عمي، وعليّ أن أتحمل، فربما هناك الكثيرات مثل حالتي، ولكنني لا أنسى أن أسائل نفسي في اعماقي، هل سيطول صبري؟ وهل سيفيدني هذا الشعور الحارق لكل نشاط يتحرك في أعماقي، ولا يدري أحد بما يجول في هذا العقل والجسم، هذه النار لن يهدأ جمرها إلا بعد مدة طويلة، وإن هدأ فلن ينطفئ، إذ يبقى جمر تحت الرماد لا تراه العين، وربما لساعات او يوم كامل، ألوم نفسي بعدها، كيف علمني الغرباء على ان حاجات الجسد طويلةؤملحاحة وضرورية، ولو بقيت في بيت أهلي دون العمل مع الغرباء، لما دخلت تجارب وسعت من معلوماتي، دربني الغرباء على الكيف بطرق مختلفة، يقوم بها الآخر كالتدليل والاهتمام والالتصاق والمداعبة والتقبيل، يغلبني التفكير والتعب والقلق والندم بعدها، فأنام خائبة مستسملة مرهقة، لكنني لا أنكر انني كنت أقترب من ابن عمي والتصق به وهو يغطّ في منامه، أشتاق لأنفاس الرجل وحرارة جسده، لا ألوم رعاش ولا أكرهه ولا أحقد عليه، فقد أدى خدمة كبيرة لي بأن سترني أولا، وها أنا التصق به لتعويض مشاعري النهمة للحياة والحركة، وربما الإحساس بشيء من سعادة ،أوقليل من رضا، مع انني كنت أعزي نفسي في سري ، يا خيبتك يا مسخمة يا سمحة، المتعوس متعوس، ولو علقوا على راسها ميت فانوس.

إعتدت أن آخذ حقي بيدي في طفولتي، الضعفاء يظلون محرومين مهزومين مهملين، أو سيظلون دائما في زمرة الفقراء والمساكين تحت الصدقة والمنة، لكنني أكره ان أكون سائلة متسولة للقرش والمال وحاجاتي الأخرى، خلقنا الله متساوين واحراراً، ودربت نفسي أن اكون حرة في حياتي ورغباتي وضرورياتي، وسأواصل ثقتي بنفسي وبما لا يضر أحداً في هذا العالم، إلا الذين يؤذونني عن قصد، وكم من مرة عاهدت نفسي على أن آخذ حقي بيدي، من كل من آذاني، وبعد كل موقعة مؤلمة.

الحياة تصبح مقبولة حين ترافقها قناعة، تواصل أم مسامح كلامها بتأثر وانفعال، (إذا أحسّت المرأة بالظلم والخسارة والحرمان، فستقع في هموم ومشاكل صحية ونفسية كثيرة، وسوف تتراكم الهموم عليها وتهد من قواها، وقد تضطرها الظروف للتمرد على واقعها، وعلى ما يفرضه المجتمع من قيود وتقاليد، فالحرية أساس اي حياة، الحرية المنضبطة هي التي أقصد، وليست الحرية لمجرد مخالفة المألوف، فالظم هو النار التي تدفع الإنسان من الهرب من حرارة تلك النار الحارقة، وتضطرك للبحث عن أي ملجا يقيك من تلك المحارق، ويبعدك عن هموم الشقاء والحرمان، ومخطئ كل من يظن ان المرأة إنسان ضعيف، وعليها ان تظل تحت المراقبة والسيطرة واللا أهمية، فلدينا مشاعر وطموحات وآمال تتعدى ما لدى الرجل، ونتطلع دائما إلى الأمان والاستمتاع والحرية والكرامة.) تتنهد بعدها وتأخذ نفساً طويلا، تسرح بأنظارها بعيدا عبر النافذة الواسعة صوب الغرب قرب غروب الشمس، تشعر بعدها بخذلان، وكأن عينيها تعبتا من النظر إلى الأفق الغربي، وهو يؤول إلى الغروب، وبدء ظلام جديد.

**الفصـــــــــل السادس عشر**

يظهر ان والدي حمشان يتلمس أفكاري عن بعد، وبدأ يحسّ بما يدور في خلدي ورأسي من شعور بالإحباط والألم، ولماذا أعاني العيش مع إنسان فاقد للتوازن والعقل والمسئولية؟

لماذا لا أعيش مثل غيري من البنات، وأسمع كل يوم إطراءات من كل من شاهدني وجالسني وتحدث معي، انني جميلة وجاذبة وعاقلة وقوية، مع أنني عرفت في بداية زواجنا من شقيقة زوجي، ان والدي حمشان طلب من شقيقها أي زوجي راعش أن يتشدد معي، أي لا يتهاون معي لأي غلطة او مخالفة، ويشجعه على أن يعاقبني إن خالفته، سرعان بعدها ما كشف زوجي الأمر لي، لا بل صار ابن عمي يحاول أن يكون أكثر لطفا معي، فزوجي راعش بطبعه يكره العنف، وكل من تعامل معه من المخيم يعرفون أنه إنسان مسالم، لا يضر ولا يكره ولا يضايق أحدا، ويبتعد عن كل خلاف او شر، يسترضيني حين أكون عنيدة معه، لكن ما يعيبه سذاجتهلاولا يشعر بمسئولية ولا أسرة، إنه شاب لا خير فيه، سمعت ان بعض الشباب يهزأون به، ويعيبون عليه، وكنت أرى ملامح النعومة على تصرفاته، وربما بعض التخنث،كنت اتجنبه قبل زواجنا حين تدفعه والدته او والده لزيارة والدي والسلام عليه، ولم أكن أحب التحدث إليه، وإن حادثني فأتعالى واخاطبه بكلمتين او ثلاثا ثم أنشغل بعدها وأنأى عنه، كنت اعتبره مثل واحد من إخواني، وحين يتحدث معيلاأحيانا حين يزورنا، لكنني لم يصدف أن قبلت التحدث معه في الشارع العام، لهذا لم اتوقع يوما أن والدي سيهبني لشخص كهذا دون حساب ولا حتى مهر، وأعتقد أن والدي ووالدتي هما اللذان دفعا تكاليف العرس والحفلة.

كنت كبرت نوعا ما في عرف ذلك الزمان عام 1962 ، واعرف أنني لست بكرا، فسكوتي على الزواج من ابن عمي كان تغطية على ما مرّ معي، وفرصة أخفي ما مر بي منذ التاسعة من عمري، ولهذا نصحتني والدتي عدم المعارضة او التفكير بالرفض، ليلتها قررت مساعدته وقبول مشاركته الفراش، كي تمر الليلة الأولى بسلام، ولا أواجه بأسئلة كما كان يحدث عادة في عرف القرويين، لذا صبغت والدتي قطعة قماش بيضاء بلون احمر بني، وكررت لوالدتي القول أن السبب هو إهمال والدي وتأجيري للغير بعيدا عن العائلة وفي فترات طفولتي وضعفي، فابتلعت والدتي السكين وشددت علي بأن لا أذكر هذا الأمر لا لوالدي ولا لأي مخلوق، على أية حال لم يهتم ابن عمي بموضوع البكارة ليلتها، حتى حماتي التي كانت تنتظر، زغردت لنا حين خرج ابن عمي بعد ممارسته ما هو مطلوب منه في ليلته الأولى، كما كانت عادة الفلاحين ايام زمان، إذ كان على العريس أن يخرج من مخدعه ليطمئن والديه وأهله انه أصبح زوجا، أثبت رجولته وحقق اول ممارسة بنجاح. فلم يتساءل اي من أهلي عن موضوع البكارة والمنديل الذي يبرئ سمعة الفتاة العروس.

وفي يوم ما ، وبعد شهرين من زواجنا، يسألني زوجي الساذج راعش،

- هل سرقت نصف الدينار من جيبي يا سمحة؟، فأجيبه:

- ولماذا سأسرقه؟ لم أحتج شيئا ضروريا حتى اسرق، ثم إنني لا أبحث في جيبك ولا أفتش جيوبك، ولو أردته لأخذته امامك. لكن مادام كان معك نصف دينار، لماذا لا تعطيني ربع دينار على الأقل كل أسبوع، لعلي أشتري به حاجة اتذوقها مثل الصبايا، او قطعة صابون معطر اغسل بها يدي؟

- لكن نصف الدينار كانت في جيبي.

- إذن فتش جيوبك كلها جيدا، او تذكر اين ذهبت واين جلست، وربما اعطيتها لامرأة اخرى او لوالدتك، ثم نسيت وتتهمني. وجاوب على سؤالي:

- كلميني يا سمحة. بالله عليك ألم تأخذيها؟

- إسمع يا راعش، لقد تماديت، إما أن تخرج من وجهي أو أحرمك دخول هذه الدار هذه الليلة. أو قل الصحيح.

- لا يا سمحة دخيلك، لا يا بنت عمي أرجو ان لا تغضبي من سؤالي، اللعنة على كل الفلوس، كل شيء ولا زعلك، على فكرة، قبل ساعتين اشتريت من الدكان الصغير، قطعة حلاوة طحينية، وقطعة شوكولاته على بسكوت، وعشر حبات علكة، وبكيت دخان نوع (كمال)،و قعدت على القهوة شربت فنجان شاي كبير.

- أيها الكلب وتعترف انك أنت نفسك الأناني، صرفت نصف الدينار على بطنك وشهواتك،والآن تطالبني بنصف دينار.ثم لماذا تلزمك عشر حبات علكة؟

- لأنك دايما بتقولي لي نفسك كريه، وتتضايقين من رائحة نفسي، ولا تسمحين لي بتقبيلك، فأقبل يدك او خديك، ثم لا تغضبي يا بنت عمي، لقد تذكرت أين ذهبت نصف الدينار، بقي معي مئة فلس، فهي من نصيبك، وأحب أن اعطيها لك.صحيح إن النقود نعمة.

- ماشي، ماشي، الله يسامحك يا إبن عمي، (قمت بدور البلهاء الساذجة على طريقته)، فأكملت قائلة، لا تقلق يا راعش،سيعوضك الله، ويرزقك خيرا منها، قم اشتغل واجتهد تحصل على نقود كثيرة، يجيبني بعصبية وقهر

- وهل يوجد في هذه الدنيا عمل لأمثالي؟لم يبق شغل في الباقي من فلسطين، ولا في شغل في الأردن، هكذا يقول معظم اللي ذهبوا لعمان او الزرقاء.

- أذهب لسوق الخضرة او للسوق لتحميل سيارة او تنزيل بضاعة من سيارة.

- بعد أن نتفق على دينار اجرة لي، يخصمون من حقي ربع دينار عند الدفع، قائلين سنعوضها لك في مرات قادمة.

- ماشي، ماشي، لامانع، المهم روح اشتغل، ولا تصرف ما تحصل عليه، أحضر إيجارك اوفره لك ولي، لحاجاتنا اليومية او للمستقبل، هل تفهمني؟ لا تدعهم يعرفون سذاجتك ورضاك بأبسط الأمور، المهم تشتغل وتوفر وليس فقط لتطعم حالك، أو هل تحب أن اضمن اكلي أو أذهب لبيت أهلي؟

- لا يا بنت عمي، الله يخليكي لا تخلي عمي يعرف انك بتروحي عندهم حتى تأكلي، إنه سيعاقبني، ولا أحب ان يغضب عمي مني، يا بنت عمي عادة أشتهي أن أشتري ساندوتش فلافل بخمسة قروش، مع كأس من الشاي بقرش واحد، حتى اطفئ جوعي وعطشي، عندما أستلم اي نقود. قبل عودتي لبيتنا البعيد عن الحسبة.

- إضحك في عبك، (اللي زيك شو بيلزمه اكثر من هيك؟)عندك بيت ابوك، وزوجة هي ابنة عمك، ونصف دينار تجنيه كل يوم، وماذا بعد؟ عيش واضحك في عبك، أنت أحسن من غيرك.

مضطر ان أكون معه على قدر مستوى عقله، أسمع صوت والدتي تثرثر مع الجارات قبل وصولها لغرفتنا، بيتي هو عبارة عن غرفة واحدة خصصها والدا راعش لابنهما ليتزوج بها ويعيش مع زوجته، بنيت كوخا صغيرا جدا من الصفيح بجانب الغرفة، حتى أشعل طباخ الكاز به، تحضر فتوحة والدتي، وقبل أن تدخل تبدأ في انتقاداتها لي ولزوجي الهمام راعش، يشفق الناس عليه فيكلفونه بأعمال خفيفة كي يجني منها دخلاً بسيطا، لكنهم لا بد أن يسرقوه بعض حقه في كل مرة، تعلو ثرثرة والدتي، وعلى رأسها صينية، تنادي عليّ وتطلب مني أن انزل الطعام عن رأسها، إنها صحن كبير مسطح، يغمره طعام من الثريد والرز، وثلاث قطع لحم ضأن صغيرة أو أربعة، فتبادرني والدتي فتوحة قائلة:

- هيا هيا اقعدي كلي انت وزوجك قبل ما يبرد الأكل، فأجيبها بعد أن لمست سطح الرز وقطعة اللحمة:

- لكنه بارد،

- طبعا سيبرد، هذا الصحن من عرس، طلبته من اهل العريس فعدلوا الثريد والرز، واعطوني قطع اللحم التي ترين، صعب يا بنتي تسخين الثريد، فالأفضل أن تأكلي وزوجك هذه الوجبة الشهية، وتشكران الله على هذه النعمة.

- زوجي متألم لأنه فقد نصف دينار من جيبه.

تتأمل والدتي وجهي لتقرأ ملامحي، احمر وجهي خجلا كفتاة سئلت عن شعورها بعد ليلة زفافها، تهز رأسها، وهي تتمتم بكلام لا أسمعه، لكنها اخيرا تقول:

- آه من بنات هالزمان، إنهن ّقويات يلاعبن الشيطان ويغلبنه، تمتمت في سري قائلة، (المداعبات تجعلهن يصرن لعوبات). تكمل والدتي كلامها، هيا هيا، كلي أنت قبل أن يبرد الثريد تماما، إنه ما زال دافئا، وحين يجوع راعش أو يخطر بباله الطعام، أشعلي بابور الكاز، وسخني الأكل له ليأكل على راحته. ثم تسألني، ماذا عملت اليوم؟ واين خرجت وأين ذهبت، وقد مرّ على زواجنا ما يقربخمسة شهور، فتسألني بصوت خافت، وهل تحسين بعلامات الحمل؟

- وهل للحمل علامات يا أمي، قولي لي كيف يكون ذلك، لكن دعيني اقول لك، زوجي ما شاء الله عليه، لا هم عنده إلا النوم او السعي للطعام أو ليحصل على ربع دينار يوميا او نصف دينار على الأكثر، يرجع بعدها سعيدا متعباً، فينام قبل العشاء، حتى أوقظه صباحا للخروج بحثا عن رزق يجنيه، أنام بعدها ساعة او ساعتين ثم أنهض لأشرب الشاي وحدي، ثم أخرج للجلوس مع الجارات، أو اقعد حارسة قرب عتبة الدار. فتقول والدتها فتوحة لها:

- ديري بالك يا بنتي، اوعك تحكي مع اي رجل مار في الشارع، ترى الرجل صياد ماهر، تبتسم سمحة، وتقاطع والدتها قائلة:

- اقعدي استريحي، ما الذي يجعلك تفطنين لمثل هذا الكلام، اجلسي وارتاحي يا حجة، اتركي هالكلام لغيرك اللي عرف بدري عن الرجال وغيرهم.

- اسمعي يا بنتي، يا ما عانيت مع والدك، وياما ضاقت الدنيا عليّ، لكنني حافظت على شرفي، وبقيت شريفة نظيفة، بعيدة عن اي فكر مخالف لديننا وتقاليدنا الفلسطينية، تقترب بوجهها من رأسي، ويخبو صوتها شبه هامسة وهي تقول، لأنك سبق وغلطت وسترك الله وسترنا، فلا أريد أن ننفضح بعد هالعمر والسمعة الطيبة التي عشتها في بيت أهلي ومع والدك.

- اقعدي ياجحة اقعدي، هل اتيت لزيارتي او لإسماعي محاضرة قديمة جديدة، هاتي كل ما عندك من الآخر، وأحب ان أقول لك بصراحة، لقد بدأت أمل من هالعيشة.

- شو هالكلام يا مجنونة، زمان لنا عن جنونياتك؟ احنا لاجئين فلسطينيين، وكلنا في الهوى سوا، مافي أحد أحسن من أحد، لكنا عايشين في الخيام او غرف الصفيح اوالطين، الغني والفقير كلنا صرنا مثل بعض، قبل الهجرة كان فيه ناس من اهل ا لمدن متكبرين ويتعالون علينا نحن الفلاحين او البدو، أما الان كلنا في الهوا سوا، لايوجد واحد يقدر يقول انا عايش افضل، كلنا في بيوت صغيرة محشورة شبه متلاصقة، وكل جار يقدر يكشف جاره، ويعرف اسراره.

- والله زهقت يا حجة، عايش على هالزيت والزعتر مع الشاي كل صباح. ولم يحصل اي تغيير لا في المقام ولا في المنام ولا في الطعام فشو الحل عندك يا مدام؟

- الله يهدمك صايرة لسانك طويل؟ ما هذه كلمة يا مدام؟

- هل حضرت واعظة وخطيبة أم لتقديم الطعام؟ هل فيه خطأ عندما تشكو البنت لوالدتها؟ انا لا أفكر بالخطأ أصلا، ولا يخطر ببالي التمرد على المألوف ولا على تقاليدنا وما أمرنا الله به وما نهانا عنه ياوالدتي، أتذكر كلامك دائما وأحاول أن لا أنساه، لكن الم تقولي لنا مرات عدة، إن الحياة صعود ونزول، صلاح وخطيئة، ألا تذكرين حين قلت لنا قبل سنوات قليلة، إن الحياة مثل الغابة فيها الأسد والضبع والذئب وفيها الغزال والأرنب والشاة والنعجة والحشرات والدود، والكل يعيش على حساب الآخر.

- يجعلك تعدمي امك يا ألله، صايرة متفلسفة وخبيرة حكي، والله بتخوفيني يا بنتي، انا خايفة وقلقة منك ومن بلاءاتك بصراحة، والله إني خايفة عليك وعلى سمعتنا وشرفنا، كل شيء عندك صاير سهل، ودايما جاهزة للجواب، هل تريدينني أظل ساكتة ولا اؤثر عليك مثل غيري من الأمهات، لما كانت امي تقول اي كلام، حتى بعد زواجي، كنت اصغي لها بكل جوارحي، ولا تفوتني كلمة من كلامها، وكنت اطبق كل كلمة تتلفظها بدقة، وكأنها حاضرة معي تراقبني اينما حللت، تضحك سمحة بقهقهة عالية، يصحو زوجها من نومه يومها وبكسل يتثاءب، ويسأل:

- أشتم رائحة طعام يا سمحة، جوعتوني، أشتم رائحة بيض مسلوق وفول وفلافل؟ فتجيبه زوجته سمحة:

- لافي فول ولا بيض، ثم هل تظن أن أمك ستحضره لك؟ إنها والدتي، الا تراها امامك؟ هيا جرجر نفسك، واغسل يديك وتقدم لتملأ معدتك من الطعام العربي الشهي.، فتجيبه والدتي قائلة:

- انا ما بنساكم يا راعش؟ هل نسيت أني أحضرت لكما لحم خروف قبل أسبوعين، ألا تعرفين ان بعض الناس تمر عليهم شهور لا يطبخون اللحم في بيوتهم؟؟ فيجيبها ماطا كلامه والنعاس مازال يغلب على ملامحه:

- هل تعتقدي ان أوقية لحم خروف كلها دهن بتسميها إننا اكلنا لحم؟ فتدخلت سمحة وأجابته بنبرة محذرة:

- اخرس، اوعك تزيد في الحكي، أكلت الشحم قبل اللحم، وعرقت العظمات ولم تبق شيئا عليها لي، فاحفظ كلامك واحترم والدتي، وإلا سأغادر البيت مع أمي. ولن أعود لك، إنهض واغسل وكل وتوكل على الله واشكره، ثم اشكر حماتك.

- حاضر يابنت عمي، والله كلامك عسل، أحب كلامك حتى لو ملاماً او بهدلة.

نظرت لوجه والدتي، شاهدت الامتعاض عليها، وعدم قناعتها بالعيش الذي ابتليت فيه، هاهو يؤذن لصلاة الظهر، وزوجي مازال يتثاءب على امل ان ينهض من النوم، ولولا رائحة الطعام البارد، لما سمعنا إلا صوت شخيره، فذكرت لوالدتي على مسمع من زوجي راعش، المثل الذي قاله شيخ المسجد عن كلب الحداد، (ضرب المطارق لا يسمعه، اما حسّ المضغ الخفي فيسمعه ويوقظه).لم يهتم راعش بما سمع، او كأنه لم يسمع ماقلت، لكن حين قام ليغسل يديه وفمه خارج الغرفة، همست لوالدتي، ليته مخلص او حريص على بيته كما يحب الطعام، فهو مثل كلب الحداد. (صوت المطارق لايسمعه، أما حس المضغ الخفي فيسمعه ويوقظه) تأوهت والدتي ولم تفه بكلمة او انتقاد، أشارت لي بأن أجهز له الطعام حتى نخرج ونحادث والدته أو نجد لنا جارة نتحدث معها، وإلا فسأرافق والدتي لبيتها بعد خروج راعش باحثا عن عمل، لقضاء ساعات النهار عند والدتي ريثما يعود. لكن والدتي تخاطب زوجي راعش:

- صحتين وعافية يا إبني، يالله خلي وجبة اليوم فطور وغداء، وأنت يا سمحة ألا تريدين أن تأكلي مع زوجك؟

- انا فطوري لا يتغير، نصف رغيف مع الزيت والزعتر وكاس الشاي.

- ياألله، دير بالك على زوجتك ياراعش وعلى صحتك، وغذّ نفسك جيدا، حتى يرزقك الله بالأطفال. وماذا نستطيع ان نفعل أكثر مما نفعل حالياً،علينا ان لا ننسى من كانوا السبب في تهجيرنا، الله لا يبارك لهم في مالهم وعيالهم، كل من تسببوا في هجرتنا وضيق حالنا، أدعو الله أن يبتليهم في أجسادهم وبيوتهم، وكما خربوا بيوتنا، لابد أن يبتلي الله الإنجليز وكل من تعاون معهم على تهجيرنا، ثم وكل من ساهم وما زال يساهم في تعاستنا والتضييق علينا، لا بد أن الله سيبتليهم يوما ما، إما أن يعانوا من الهجرة زي ما عانينا او يبتليهم بالمرض والفقر، الله يضيق عليهم.

- والله احب زياراتك لنا ياحجة فتوحة، دايما تحضري لنا طعاما معك.

- كل يا ابني كل، وانس بريطانيا وغير بريطانيا، المهم تظل بصحة جيدة، وتشتغل وتقوم بزوجتك، وندعو الله ان يرزقكم أطفالا، حتى تنتقلوا لبيت مستقل وأكبر قليلا، يملؤه أطفالكم ويجملوا عليكم حياتكم ويعمروا بيتكم.

تذكرت والدي وقتها، إذ لو كان موجودا معنا هذه الساعة، فبدلا من تدليله والحوار معه فسيشبع ابن اخيه الساذج ضربا بحزامه، بدل تدليله كما تفعل والدتي، ولأذاقه الكثير من الركلات بقدمه لكي ينهض نشيطا، بدل ان نقدم الطعام له قرب فراشه، كأنه طفل نداريه.

**الفصـــــــــــــل السابع عشر**

يحس مسامح إبن سمحة بثقة زائدة، لأنه تربى على العز والإكرام، دللناه كثيرا، انا والمرحوم والده وإخوانه السابقون، وأهلي كلهم، دللناه، وأكرمناه، وأحسنا معاملته، فنشا حياة رخية سهلة، ظل يشعر انه محبوب ومرتاح ومطمئن، وسمحة تزاداد إحساسا بالسعادة والرضا، لأن ابنها الوحيد سليم وذكي ومحبوب، لم ترزق بذكر آخر، بل تبعه طفلتان، ثم توقف مصنعها البيولوجي عن الإنتاج، لذلك زاد تركيزها على الاهتمام بطفلها مسامح، لأنها كانت محرومة من ابن سليم من زواجها الأول، ولحسن حظها وحظه أننا جميعنا وجدنا أن مسامح ولد ذكي وعاقل.

بعد وفاة والده درويش، لم تشعره والدته بحزن طويل، إذ إن ابنها مسامح كان همها الأكبر، والركيزة التي تعلق عليه كل آمالها، أصبح مسامح الطفل هو المعادل الموضوعي لكل ما حدث معها في ماضي حياتها، وما سيحدث بعد ذلك، إذ كان عمرها قد جاوز الخمسين عاما، حين توقفت عن الإنجاب، فساندت سمحة ابنها مسامح، ووقفت حياتها لخدمته ورفع معنوياته، ظلت تعمل على أن تؤكد له انه في أمان بعد فقده لوالده، بسبب كثرة تعلقه بوالده، واحترام والده لرغباته، وكثرة تدليله له.

صدم الولد صدمة كبيرة، حين وجد والده يغادر البيت للمرة الأخيرة، وأنه حرم من مرافقته والسهر عليه وتدليله، إذ كان عمره ثلاث عشرة سنة، فصار تركيزي عليه لإقناعه أنه لن ينقص عليه شيء، بل ما عليه إلا أن يهتم بنفسه، صارت سمحة تستدرجه لينسى أثر وفاة والده عليه، فتخبره مثلا بأنها ستعمل على تزويجه قبل بلوغه العشرين من عمره، وبعد ان يتخرج من المرحلة الثانوية. بعدها لما لم ينجح في الشهادة الثانوية، ظلت فكرة تزويجه صغيرا عالقة في ذهنه، بل صار يبحث عن عمل يدر عليه دخلا، حتى لا يظل عالة على والدته التي تكرمه كثيرا وتعزه، او ليثبت لها أنه يستطيع أن يعول عائلة، فظل يلح على عمه أن يساعده في وظيفة مناسبة، وهو الولد الطويل القوي والنشيط، وما إن شعر بأنه وفر من راتبه مائتين وخمسين دينارا، حتى صدم والدته بخبر إعجابه السريع والمزيف بالفتاة البائعة في محل ملابس.

فاجأني ابني مسامح قائلا:

- لقد اعجبتني صبية يا والدتي، وإذا وفقنا الله فإنني قررت أن تخطبيها لي من اهلها، وادعو الله ان يوافقوا على تزويحي منها.

- هكذا بشكل فجائي تقرر وحدك، وكأنه لا يوجد لك اهل؟ هل أخذت رأي عمك؟ وووالدتك أليس لها حساب عندك؟ وهل تكفي ضحكة او كلمتين من بنت ، لتقرر وحدك أنك ستتزوجها؟

- أنا الذي أريد الزواج وليس عمي، يجب ان يوافق حسب رغبتي، وأنت أيضا.

- كيف ستتزوج وراتبك من عملك لا يكفيك وحدك، وهل تظن ان الزواج لعبة او مزحة او تجربة؟ الزواج يا ابني مسئولية كبيرة، فهل وفرت تكاليف العرس والمهر وأثاث البيت، إن عمك يساعدنا في دفع إيجار الشقة التي نقيم بها بعد وفاة والدك، وأشكر الله ان حكومتنا الأردنية تدفع لي مبلغا بسيطا من المعونة الوطنية للأرامل والمقطوعات من أمثالي، وعليك ان تشكر الله ثم عمك الذي يساعدك على تسليك ظروف الحياة.

- قلت لك يا والدتي انني قابلت البنت وحدثتها واعجبتني، لم أقل انني سأتزوجها غدا او بعد اسبوع او بعد شهر.

- أنت تعرف يا ولدي أنك ابني الوحيد، فليس لي ولد سواك، واخوك غيرالشقيق مخلوق معوق ومقعد لا يصلح للعمل ولا للزواج، يحتاج إلى رعاية دائمة، ولو كان يقوى على العمل والوقوف لأحضرته للعيش معي، لكنني اضطررت ان اتركه لأهله بعد طلاقي من ابن عمي.

- اسمعي يا أمي لا أريد أن أظل مرتبطا بذكرياتك، ولا أن تسمعيني عن المزيد من ماضيك وأخبارك القديمة وما مرّ بك، لا نستفيد من تكرار كل هذا، وأطلب منك لا تدخليني في حسابات وتخمينات ومعيقات، نحن لم نفعل شيئا جديا بعد، أنا أطلب منك البدء بالتفكير في الأمر، واعرف انك لا تردين لي طلبا، فأطلب منك ان ترافقيني حتى اعرفك على البنت وتقابلينها، وبعدها سنتكلم في كل ما يخطر ببالك.

بعد انتهاء عمله في اليوم التالي، أحضر ابني سيارة تاكسي وحملني معه إلى جبل الحسين حيث تعمل البنت، وقفنا باب المتجر، اشار لها وابتسم ثم قابلت ابتسامته ببسمة عريضة، ألقت ما في يدها على الطاولة، اعتذرت للزبون طالبة انتظاره كي تكلم أهلها، سلم ابني عليها، ثم قدمني لها، فانشرح صدرها، ومدت يدها للسلام علي من جديد، ثم خاطبتني قائلة:

- أهلا بك يا خالة، كيف حالك، ثم وجهت كلامها لابني قائلة، ما شاء الله امك ما زالت صبية يا مسامح، وجميلة وطولها يجنن. لم أعلق على كلامها، لكن جرأتها وحركاتها وملابسها الكاشفة حسب آخر موضة لم تعجبني، انتبهت لنظراتي على ملابسها وفتحة صدرها الواسعة جدا، ويبدو أنها شعرت بأنني سوف أشير لهذه الجرأة التي لم أعهدها في أهلنا ومجتمعنا من قبل، استأذنت للعودة للمتجر، لكنها قالت باستعجال:

- ما رأيكما أن أدعوكما لفنجان قهوة او كنافة في محل جبري القريب من هنا. هززت رأسي رافضة للفكرة، ثم وجهت كلامي لابني وليس لها:

- عليّ أشغال كثيرة، ولا أستطيع التاخر.

سلمت علي ثانية، وقالت اهنئك على هذا الشاب الجميل، الآن عرفت لماذا هو طويل، لأن والدته طويلة ما شاء الله، ثم هزت يد ابني بقوة مرتين او ثلاثا، ونظراتهما متواصلة، وشفاههما تكاد تنطق بما لا أسمع، لكن عيونهما كانتا تنطقان بعشق وتقارب وانجذاب.

سألني ابني عن رأيي في الفتاة، فطلبت منه التمهل لأسابيع حتى نسأل عنها، ونستشير عمه وإخاه الكبير المتزوج، غضب ورفع صوته ونحن في الشارع، ولم نبتعد بعد عن المعرض الذي تعمل فيه صديقته، رافضا دعوتي له بالصبر وتأجيل إعطاء قراري حول موافقتي على طلبه او الرفض، لم أعبأ بغضبه لحظتها، لأنني رسمت في رأسي خطة لفحص الفتاة والسؤال عن اخلاقها وسلوكها ممن يعرفون عنها، بعد ثلاثة أيام ارتديت ملابس مختلفة ووضعت على رأسي شالا كبيرا ملونا، بدل المنديل الأبيض الخفيف العادي، ولبست ثوبا فلاحيا فلسطينيا مطرزا، ثم ذهبت وحدي إلى جبل الحسين عند الظهر. ووقفت امام المتجر على الرصيف المقابل، وأخذت اراقب تصرفات البنت دون أن ينتبه لي أحد، اشتريت ساندويتش، وصرت آكل طعامي حتى لا يثير وقوفي أو جلوسي وحيدة تساؤلات احد أو شكوكهم، شاهدت ملابس الفتاة ازدادت انكشافا، وفتحة قميصها واسعة تظهر الجزء العلوي من ثدييها، وطول وقتها تلمس شعرها وتتحسس صدرها وثدييها بيديها، وخاصة كلما دخل شاب ليسأل عن سلعة ما، وكأنها تعرف كل شاب في منطقة جبل الحسين، فكل شاب هو صديقها، حتى انها التصقترباحدهم حين أراد أن يودعها، بعد حديث لدقيقتين او ثلاثا، ثم غادرها وهي تؤشر له، وسمعته يقول لها إنه سينتظرها مساء بعد انتهاء دوامها.

كررت ذهابي للمكان نفسه ثانية بعد المرة الأولى بأسبوع، وتأكد لي انها (تتعربش) تنجذب وتتعلق باي شاب يحضر للمكان، وكأنها تريد أن تصادق كل رجل يزور المتجر الذي تعمل به، وقدرت لماذا وظفها الرجل صاحب المتجر واحتواها، لأنها عنصر جاذب للشباب لزيارة المحل والبضاعة المعروضة، ثم لاحظت أن صاحب المحل لا يعترض عليها ولا ينتقدها لثرثرتها مع الرجال، فهي لإغرائهم وإغوائهم. قررت في نفسي رفض فكرة زواج ابني من هذه الفتاة اللعوب، وفي آخر مراقبتي لها في المرة الثانية، شاهدت أحدهم يضمها ويتحسس على أعلى ذراعها قرب كتفيها ورقبتها، ثم قبل كفها وهي تضحك وتتهزهز، كأنها تراقص الشاب، وتكاد تحلق مع الريح.

يحضر عم مسامح لزيارتنا مرة كل اسبوع أو أسبوعين، كي يطمئن على ابن أخيه كما جرت العادة، او يدعونا لطعام الغداء في منزلهم، لكن زوجته وهي سلفتي، كانت تكرهني وتتكبرعليّ، وخاصة بعد أن أصبحت أرملة فقيرة ننتظر انا وابني مساعدة زوجها، كنت اعرف هذا الإحساس، وكانت تتضايق حين يتحدث ابني مع بنتيها، لكنها تستدرك قائلة إن ابنتيّ ستكملان دراستهما الجامعية قبل تفكيرنا بتزويجهما، كنت اتوقف عن الكلام ولا أعلق إلا قائلة، ادعو الله ان ينجحهما ويفرحكم بهما، وماذا عن الولدين ابنيكما؟ فتقول، واحد سيدرس الطب، والآخر سوف يدرس هندسة الاتصالات، كانت سلفتي متعلمة أنهت دراستها الجامعية بعد زواجها من شقيق زوجي، اما أنا فأحاول تجنب الجدل معها لأنني اعرف قيمتي في هذا العالم الظالم، بقيت امية لا أتقن القراءة جيدا، ولم يفكر والدي بأن يدخلني المدرسة إلا لعام واحد، بل كان همه أن أعمل بعد بلوغي ثماني سنوات، حتى اكون مهيئأة لقسوة الحياة وصعوبة حياة اللاجئين الفلسطينيين، ومقولة والدي التي دأب على تكرارها، الأفضل للشاب الفلسطيني ان يتعلم مهنة يعيش منها، وتنفعه بعد زواجه وفي سنوات شيخوخته، فصاحب الصنعة لا يُخشى عليه من التعطل، وإن فصله صاحب مصلحة، فسيجد عملا عند صاحب مصلحة اخرى.

أخبرت سلفي برغبة ابني في خطبة إحدى البنات التي لاتناسبنا، فاستمهلني وطلب مني عدم التحدث مع الولد حتى يكلمه بنفسه، وقلت لابني مسامح إن عمك سوف يتحدث معك حول موضوع خطبتك.

لم أجرؤ على إبلاغ ابني عن تصرفات تلك التي يظن أنها حبيبته، تأكدت انها عاشقة الشباب، وتتعلق بأي شاب تراه، ولا أدري هل هدفها ان تفوز بزوج، او هوايتها الإكثار من العشاق، والاحتفاظ بهم للمستقبل، ربما لم تكن تخلو بهم، لكنها ترحب بكل شاب ظريف، أو كل من يلبس ملابس نظيفة، أو لتوقع به ليشتري ويرضى عنها صاحب المتجر، وبعضهم كان يحتضنها اول وصوله، لأنه يعتبرها حبيبة قلبه، او مرمى هدف مؤقت او ملهاة، وابني كان مثل هؤلاء الشباب، راقبته مرة أخرى دون علمه بوجودي في المنطقة، حضر للمكان نفسه، ينتظرها ساعة او ساعتين، يضمها بعدها ويأخذها إلى مطعم او مقهى، او يدخلان متاجر ملابس نساء غير التي تعمل به، لم تغير أسلوب ملابسها العصرية الكاشفة بعد تعلق ابني مسامح بها، ظل يلمح لي بأنه معجب بتلك الفتاة، ويرجوني أن أضغط على عمي، وأن أرافقه لأزور اهل حبيبته بصحبته، لكنني دأبت على اختراع الحجج والأعراس والوفيات والمرضى من العائلة والمعارف او زيارة أخواته وابنتي من زوجي الأول، ثم يقترب مني ويقبل يدي، او يحني ظهره ليقبل قدمي، قائلا:

- أمي أنا لا أخرج عن طاعتك يا أمي، اريد رضاك، فأرجوك ان تساعديني، إنني احببت هذه الفتاة وتعجبني كثيرا.

- لكنك لا تعرف الكثير عنها، فكيف أحببتها

- إنني أراقبها منذ اكثر من ثلاث شهور، وازورها بعد خروجها من العمل، اتحدث لها، وهي فتاة مهذبة وعاقلة وتحبني، وماذا اريد اكثر من ذلك.

- لكنك ما زلت صغيرا يا مسامح، إنك لم تكمل العشرين عاما من عمرك، وظروفنا صعبة يا ولدي، ولولا عمك الذي يساعدنا في دفع إيجار الشقة الكبيرة التي نقيم بها لانفضحنا من الفقر والعوز.

- إن الله كريم، لا ينسى من فضله أحد، ثم أذكر بما وعدتيني به مرات عدة، بأنك ستزوجينني قبل بلوغي سن العشرين.

- ما شاء الله، صار لك لسان تحكي يا إبن سمحة، ومن وين دخل عليك الإيمان فجأة ؟ او صدفة؟

إنني مؤمن يا أمي ورجائي لك هو كي أستر نفسي بالحلال، ولا أريد ان اظل مع الشباب الطائشين والباحثين عن الحرام والعبث وصرف اموالهم عبثا.

- كلامك يشعرني بشيء من الرضا، لأن ابني عاقل، بل إن كل ام وكل اب يتمنى ان يرى ابنه او ابنته تحرص على الشرف والأمانة والحلال، والإيمان بالله.

- إذن متى سترافيقينني لنزور والدة البنت على الأقل، لأن البنت ابلغت امها اننا سنزورهم للتعرف على اهلها، وهناك انت تتصرفين لتسهيل مهمتي.

- دعني أسأل والدي وإخواني أيضا حول هذا الموضوع، فجدك والدي يحبك كثيرا، ويتمنى لك السعادة والنجاح، وأخوالك ايضا يحبونك ويريدون الخير لك، مع انني كنت اتمنى ان تعجبك اي بنت من بنات خاليك، لأخطبها لك، ولا يستطيعون رفض طلبي، بل اتوقع انهم سوف يساعدوننا يا بني. ثم على فكرة، هل كلمت عمك عن الموضوع؟ أو هل كلمك؟

- نعم سألني كيف عرفت عن البنت التي تريدها زوجة لك؟ وحين شرحت له ملخصا، لم يعجبه كلامي، وقال وهل التعرف على فتاة في الشارع العام يكفي لتحكم عليها انها مناسبة لك؟ وأضاف، انني ما زلت صغيرا طائشا، وبدل من الزواج، لماذا لا أعيد امتحان الثانوية، ليساعدني أثناء الدراسة الجامعية إن نجحت، كلام عمي كثير وصعب، ولا أستطيع تطبيق كلامه ورغباته، فلا تهتمي بعمي، وعمي لا يهتم بنا كثيرا، فأولاده وبناته هم الأهم بالنسبة له.

- لكننا لا نستطيع إغضاب عمك، فهو سندنا الأول بعد وفاة والدك، لكن امهلني اياما حتى اكلمه لعله يتراجع او يقبل رغبتك بالزواج المبكر، بعدها نبحث موضوع الفتاة التي نالت استحسانك بيننا.

رحبت والدة البنت بزيارتنا كثيرا، وكانت لطيفة معي، ودعتني ان وابني لوجبة غداء عندهم، لكنني رفضت الفكرة، وطلبت تأجيل هذه الرغبة، ولما وجدت ان ابني مصمم على الفتاة نفسها، اضطررت للتحدث مع عمه، طلبت منه ان لا يعارض الفكرة، ولأن ابننا مسامح لن يتقدم لامتحان الثانوية ثانية، ونريده ان يستقر ويهدأ فلنوافق على تزويجه من تلك الفتاة التي اعجبته، حتى لا نخسره ويتمرد علينا، ويرافق الأشقياء والضالين من الشباب والصبايا. سكت عمه، ولم يجبني بكلام كثير، بل قال:

- ما دام انك راضية عن هذا، فلا كلام عندي إلا السكوت دون اعتراض علني، لكنني ارفض الفكرة في عقلي، وأرفض مساعدته في هذه الطريق، وتصرفي من جانبك، وليتحمل هو تكاليف زواجه.

**الفصــــــــــــل الثامن عشر**

حين صار عمر ابني مسامح ثلاث عشرة سنة مرض والده درويش ولزم الفراش، لم يعد يقوى على المشي او الذهاب للسوق، ولا حتى الجلوس امام الدكان الذي في الحارة، كما كانت عادته عصر كل يوم في شهور الصيف والدفء. وسبب هزاله أنه ازداد عليه مرض السكري وبعد أن نفذت نقوده التي استطاع ان يخرجها بعد احتلال الكويت، ثم قعوده في البيت لأكثر من عشر سنوات بلا عمل لم يبق لديه توفير، يمكنه من تواصل زياراته للأطباء، فكان يكتفي بالذهاب للعيادة الصحية الحكومية، لكن لكبر سنه ولعدم اتباعه الحمية المشددة، تهاوى جسده، وبدأ يضعف ويهزل رويدا رويدا.

حين احتل العراقيون دولة الكويت عام 1991، اضطر درويش أن يترك الكويت كمعظم الأجانب والمواطنين العرب، وقام الكويتيون بمضايقة المحتل والأجانب، وعملوا أساليب مقاومة سلمية وسلبية ناجحة، لإضعاف المحتل، وعدم استفادته من الثروة النقدية التي كسبها من البنك المركزي، مما اضطر من بقي من العرب في الكويت إلى مغادرة البلد، بسبب مقاومة الوطنيين، وانقطاع الوظائف والأعمال والمشاريع، وربما فعلها الكويتيون عمدا، حتى لا يهنأ المحتل، مع انه بقي بعض من الفلسطينيين والأردنيين واللبنانيين والسوريين، على أمل أن يجدوا رزقا او عملا كما كان حالهم قبل ذلك، لكن توقف جميع المشاريع جعلهم يفقدون الكثير من ثرواتهم وتوفيرهم، فاضطر معظم المواطنين العرب الذين تأخرواإلى الرحيل أيضا، لضيق الحال وندرة السلع للطعام، وانتشار النهب وتخريب المتاجر والمصانع، ونفاذ ما وفروه في ايام الرخاء، وانفقوه في شهور الحصار والاحتلال القصيرة، ترك درويش عمله في الكويت كغيره من اصحاب الحرف، فعاد إلى الإردن، وقرر الإقامة في عمان، فاستأجر شقة كبيرة له ولعائلته، كان عمر ابنه مسامح سنتين في ذلك الوقت، وقد سبق وأن رزقنا بابنتين قبله، وبرغم انه يحب الإكثار من النسل حتى لو صار عدد اطفاله خمسة عشر، إلا أن هزاله ومرض السكري الذي ظل يتزايد عاما بعد عام، حرمه زيادة الإنجاب، مع ان عمر زوجته لم يكن يتجاوز خمسة واربعين عاما حين غلبه مرض السكري، وأعجزه عن نشاطه الجنسي تماماً، ظل درويش وزوجته الثانية سمحة يهتمان بأولاده من زوجته الأولى التي توفيت بعد أن خلفت له ستة اولاد، دون اي بنت، وحين تزوج زوجته الثانية سمحة ام مسامح كان عمرها خمسة وثلاثين عاماً،

كان متعهدا ناجحا في الكويت استطاع أن يوفر مبلغاً جيداً من المال، بعد أن أنفق على دراسة شقيقه مستنير في جامعات مصر، ولأن اخاه مستنير كان مجتهداً وحريصا على العلم، فأنهى دراسته خلال أربع سنوات، دون تأخير او إهمال، لا بل كان من أوائل الطلبة في الجامعة المصرية. وبعد هجرتنا ثانية لعمان، ونظرا لانشغال شقيقه مستنير في الاهتمام بأولاده وبناته وتعليمهم، بدأ توفير زوجي درويش ينفذ بسرعة في الأردن، بسبب كثرة أولاده، ودفع تكاليف تزويج واحد من اولاده مبكرا وانفصل عنا، لكن بقي خمسة منهم يعيشون معنا وقد بقينا عشرة، مع ثلاثة من اطفالي وخمسة أولاد ذكور دون الخامسة عشرة .

بعد مغادرتنا الكويت ووصولنا لعمان، للمرة الأولى يجد درويش نفسه مرابطا في المنزل، لا يغادره لعدم توفر الأعمال في عمان، بسبب كثرة الأيدي العاملة وقتها، وانتشار اصحاب المهن الشباب في عمان تزاحما في طلب الرزق، وخاصة وأن الحكومة الأردنية توظف أبناء الأردنيين الأصليين اولاً، سواء عن قصد أو بسبب المحسوبية، لكون المراكز الرئيسة في الحكومة يحتلها موظفون من أهل البلد الأصليين، ومكوث درويش في البيت جعله يحس بأن طفله الصغير مسامح يلتصق به جدا، مما جعله شغله الشاغل، وأينما جلس او انتقل او خرج ينادي عليه ويصحبه معها أو يجلسه في حضنه، أما أولاده الخمسة من زوجته الأولى فقد اعتاد على وجودهم حوله دون الاكتراث بحاجاتهم النفسية، ويقول بأنهم كبروا والحمد لله، وإن أصغرهم حين ولد مسامح، كان عمره أربع سنوات..

سمحة كانت أماً بشخصيتين، تتمثل الأولى في حرصها على تأمين الطعام والنظافة لأبناء زوجها الخمسة، وتتمثل شخصيتها الثانية في اهتمامها بنفسها وبابنها الوحيد، وابنتيها، وكأن درويش وسمحة يتفقان على عدم مراعاة حاجات الأولاد السابقين نفسياً، فنشأوا ضعاف الشخصية لكنهم لم يكونوا فاسدين، بل حاولوا متابعة العلم والمدارس، وعمهم ووالدهم يشجعهم على هذا، وعمهم يعطيهم الوعود، فكل من ينجح منهم في الشهادة الثانوية، إما أن يواصل دراسته الجامعية، او سيجد عمه له عملا في الشركة التي كان عمهم مستنير مديرا لها.

يظهر ان حياة سمحة الماضية في طفولتها ومع زوجها الأول أثر فيها كثيرا، فكان كل ما يهمها مصالحها ولباسها وحاجات ابنها وابنتيها بعد زواجها من درويش، وزاد ظهور هذه المشاعر في عمان كثيرا. وسمحة تعترف قائلة:

- لا أدري ماذا حصل لي بعد أن اضطررنا لمغادرة الكويت، وبالنسبة للفلسطينيين، كانت هجرتنا من الكويت تشابه تهجيرنا القسري في فلسطين، فترسخت في عقولنا ونفوسنا مرارة وقسوة الهجرة، بل أحيت في نفوس الذين وعوا التهجير القسري الأول 1948 والثاني1967 من فلسطين، جعل تأثير هجرة الكويت مضاعفا وممرضا عليهم، شاهدت نقود زوجي تنفذ بسرعة، فركزت اهتمامي على ابني الوحيد من زوجي هذا، ولم اعد اتذكر او أهتم بابني من ابن عمي زوجي الأول ولا البنتين. بل أصبح ابني الجديد هو املي الوحيد في الحياة، وكل همي ان يكبر ويجتاز مرحلة الطفولة. وفي السنوات الأخيرة أي بعد أن أصبح ابني رجلا ويطالبني بالزواج، ارى إخوانه من ابيه قد كبروا كلهم وتزوجوا او نجحوا في الحصول على وظائف ودخل يكفيهم بسبب دعم عمهم مستنير لهم، لكنني صرت أتذكر السنوات الماضية، فيراودني لوم نفسي لأنني اهملت مشاعرهم في طفولتهم كثيرا، وأحزن كلما تذكرت انني عاقبت ايا منهم، او حرمته او رفضت شراء ما يطلبه من حلوى او لباس، اوحتى لوازم المدرسة.

ومهما حصل معي في حياتي بعد زواجي الأول وبعد زواجي الثاني، فإنني لا أنسى طفولتي وكل ما مر بي، ففي طفولتي وأثناء أقامتنا في الغور، كنت اخرج مع البنات الأخريات لنحتطب، او لنلتقط الخضراوات البرية في فصل الربيع وشهور الشتاء، اعتدت ان أتأمل كفتي قدمي، يعجبني النظر لهما، وكنت اشكر الله انهما قويتان، حين أمشي على الحصى حافية طبعا، احس بألم لكنني لم أكن اخشى ان يصيبهما جرح، لأنهما قويتان، كنت اتباهى بهما أمام البنات الأخريات، كنا نتسابق في المشي او الركض فوق المناطق الوعرة، فأسبقهن، ربما لأنني أسرع أو أطول، لكن كفتي قدمي كانتا سميكتان صلبتان، نظرت مرة لخف البعير، فوجدت كفتي قدمي، كانهما خفي بعير، لكن ليستا بنفس السمك ولا قويتان مثل خف البعير.

أما في الأرض التي بها أشواك، فكنت احس بالخوف والضعف، نعم قدماي تقاومان الشوك الخفيف، لكن الطبيعة والحياة بهنا أشواك لئيمة، وحين لا أنتبه تخترق شوكة قدمي، أتألم واجلس على الأرض أو اي حجر قريب، وأبدأ ابحث عن مكان اختراقها لإخراجها، كم هي مؤلمة خارقة حارقة، والمصيبة حين تنكسر وتبقى قطعة منها في خُفِّ قدمي، كل الدنيا لا تستطيع إخراج الشوكة الغارزة، ويستمر الألم ويتواصل ليوم او يومين، والأدهي انني لا أستطيع أن أدوس عليها، فأصير أعرج او اميّل قدمي حين ابسطها على الأرض حتى لا أدوس على الشوكة المختفية في اعماقي، فتزيد من نخسها ودخولها إلى عمق أكثر، ويطول العذاب حتى أرجع لوالدتي، تفحصها وتكشف والدتي مكان اختبائها، سرعان ما تمسك أمي بقدمي بقوة، وتسحب إبرتها من (الوقاة) التي على رأسها، وتبدأ بالحفر في كفة قدمي، اصيح وأتلوى وهي ممسكة بي بقوة شديدة، لا بد أن تحفر حفرة صغيرة في لحم قدمي، حتى تدفع الشوكة من أسفلها للخروج من جسمي، ينزل الدم ، فتمسحه بيدها او بأي قطعة قماش، وتواصل عملها بلا كلل، لا مجال للتوقف، لأنها فتحت خرقا ولا بد من إخراج الشوكة، وتنجح في كل الحالات، اعتدت بعدها على هذا الألم، اعرف انه مؤلم وفي أحيان كثيرة يكون مؤلما جدا، لكنني اصبر عليه بمرافقة صياحي، حتى تنجح امي بإنقاذي، رحمك الله يا امي، كم كنت احبك واتلهف كي أظل حولك أو تظلي حولي، لكن الظروف كانت تدفعني دائما لأبتعد عن حنانك وحبك لي، وحرصك عليّ.

في إحدى المرات كنت أسير في البستان وعلى رأسي حمل أقوى عليه، لم يكن أحد يضغط عليّ كي أحمل من الخضار او الفواكه فوق ما أطيق، بل إن صاحب اي مزرعة اعمل فيها، كان يعرف إخلاصي، وحبي للعمل، فلا يرى مني إلا الجد والمواظبة.

وبينما أنا عائد لأوصل ما جمعته من بندورة لمكان التجميع، دست على كتلة من العشب الجاف، فإذا بأفعى ترفع رأسها وتهجم تريد أن تعضني، أسقطت سلة الخضار من على رأسي فوقها، وقفزت كعفريتة للخلف ثم لليسار وابتعدت، شاهدتها تزحف على الأرض، وتتبعني، لكنني كنت أسرع وتسلقت شجرة تين وصعدت لغصن قوي مرتفع، ثم صرت أصيح كي يسمعني عامل أو اي رجل، تقدم شاب فلسطيني، وسألني عن سبب صياحي، فقلت له ثعبان تبعني ليلدغني، فضحك، وقال الثعبان لا يلحقك، بل كانت هاربة، من الممكن ان تلدغك الأفعى دفاعا عن نفسها، إذا فأجأتها، لكنها تهرب بعد ذلك، ولا تتبع الإنسان، وهي تتبع الفريسة الأصغر منها حين تكون جائعة كطعام لها.

صدقته وهممت أن انزل، نظر للأعلى وتنبهت لعينيه تنظران بين ساقي، فاستمهلني وطلب مني عدم النزول، والانتظار حتى يفحص المنطقة، ويتأكد من ابتعاد الثعبان، لكن عينيه استمرتا تنظران للأعلى، عرفت أنه ينظر بين ساقي، لأن سروالي كان مهترئا في منتصفه، وبدأت أنزل ببطء غير عابئة بنظراته، لم أعبأ ولم أخجل من محاولته، ولم أعاتبه على ذلك، مادام ظل صامتا، ولم يتبجح، لا يهمني ما رأى وما ظن، فأنا سمحة وما زلت سمحة، ولا أهتم للغير الطامع إن لم يسبب لي ضررا، شكرته على دعمي والوقوف أسفل شجرة التين، ليتأكد من نزولي سالمة، فضحك وقال هيا بنا إلى عملنا حتى لايغضب منا مدير المزرعة. لكنه أضاف قائلا، أي وقت تحتاجين للمساعدة أخبريني، وسأكون لك المساعد العجول، تركته ومشيت نحو الوعاء الذي اسقطته عن رأسي، حاولت جمع الخضار السليمة، ونحيت الحبات التي تلفت جانبا، عرفت مبكرا وقتها أن من الممكن ان تحدث لنا أشياء لا نريدها، لكن المهم هو أن نسلم ونواصل العمل، أما الأهم فأدركت مبكرا أننا يجب أن نتفنن دائما في إخفاء أي أمر مفاجئ غير مناسب يحصل لنا، حتى لا تزداد متاعبنا، يظن الناس ان الطفل هو طفل قليل الفهم والاستيعاب، لكنني أرفض هذه الفكرة، ومع انني ما زلت صغيرة ولا أتقن القراءة جيدا، لكنني فهمت في طفولتي أشياء وامورا جعلتني اقوى على مواجهة صعوبات الحياة،في المراهقة والنضج بعدها، مهما كانت قاسية، وفي كل زمان ومكان. المرأة ليست ضعيفة كما يظن الناس، وحتى في حالة ضعفها هي قوية لتصل بضعفها لما تريد، وما يحقق لها راحة او عيشا معقولا.

تمنيت من الحمار الشاب الفلسطيني الأبله الذي استنجدت به، أن يفتح معي مواضيع الحب والغرام، غنيت على مسمعه اغنية: على بلد المحبوب وديني، زاد وجدي والبعد كاويني، مثلت أنني لا أراه ولا أقصده، وبصوت ناعم خفيض نوعا ما، لكنني لاحظت أنه توقف عن حركاته، لكي يستمع لغنائي، ثم فطنت لأغنية (ياعوازل فلفلوا، ما قال لي وقلت له)، واكتفى بأن قال:

* لو تظلي تغنين من الصبح للمغرب، فسيجعلني صوتك اعمل بجد واجتهاد، ولا أشعر بالتعب، صوتك حنون، هيا واصلي الغناء يا سمحة.

وجدت ان من العبث التعامل مع مثل هذا الإنسان الطيب المستقيم، وكم عذبني ذاك الصفاء، لم أرجع بعدها لمرافقته في اي مهمة، حتى لو طلب مني ذلك.

**الفصـــــــل التاسع عشر**

المرة الأولى والأخيرة

سألني أحدهم

- دعيني أسالك سؤالا يا حجة ام مسامح

- هل عمرك شربت مشروب خمر او نبيذ؟

- اووه فكنا يا ابني، الله يخليك لا تفتح جروحا جديدة، ليس كل ما نعرف يقال يا ولدي، نعم أحب ان أحكي عن بعض ما أذكره من حياتي، هل سمعت المثل الدارج القائل (طمع الضيف ومد يده)، وها انت تسأل عن محظورات.

- اختصري الموضوع سيدتي واحك لنا دون تطويل عما جرى معك،

- دعنا مستورين يا رجل، هل يفعل كل الصحفيين مثلك؟ وهل تحاولون دائما تتبع حياة الناس بالتفصيل، وكشف الأسرار؟

- لا تقولي هذا الكلام ياحجة، أســــرارك في بئر عميق، والله حتى البلد الذي عشت فيه لن اذكره ولا الحارة التي سكنت بها لا يمكن ان اطريها. والأردن فيه عشر ملايين من البشر، وسأسميكي باسم مستعار، لا تخافي ولا تقلقي من هذه الناحية، هيا احكي لنا قصة المشروب:

- والله يا ابني الأمور التي يقدر عليها بني آدم إبليس لا يقدر عليها، وبصراحة انا اقول ان الشيطان هو ابن آدم، كنت اشتهي البيبسي في طفولتي، ولما نشتري قارورة صغيرة منه، كنا نتقاسمها كل العائلة، اوربما انا وامي واختي يطلع لنا قارورة صغيرة، يعني جرعتين كل واحدة، ذكرت مرة لواحد ملعون والدين، إني احب البيبسي، أثناء عملي معه في المزرعة وكان عمري 14 سنة وأربعة شهور، ونسيت ما سبق وفعله رئيس المزارعين بي، وحين حان وقت تناول طعام الغداء، ركب الشاب الأسمر السيارة وعاد بعد ساعة ومعه بعض الطعام، شممت رائحة شواء لحم، فإذا به قليل من كباب وصحن حمص وفلافل ، كان الفلفل الزائد يخالط الكباب والحمص والسلطة، اكلت بسرعة، فعطشت، تمنيت لو انه احضر بيبسي كولا معه، ضحك الرجل فقام وأخرج زجاجة بيبسي كبيرة من سيارته البكب، سرعان ما فتحها، ووضعها على فمه يشرب منها قبل أن يسكب لي، قلت له:

- لعن الله الشارب قبل الطالب، انا العطشانة ومشتهية البيبسي. فأحضر كأسا معدنية وسكب لي أكثر من نصف الكأس. شربتها دفعة واحدة، لكنني أحسست ان طعمها مختلف، وبه ما يشبه الحرقة الزائدة عما في البيبسي. لكننا واصلنا الطعام، وهو يشرب من القارورة مباشرة ولا يكثر. ثم قال:

إسمعي يابنت يا سمحة، اسياخ الكباب الأربعة الباقية كلها لك، والحمص والسلطة، وإن بقي متسع في معدتك نعبئه بالبيبسي.

- معقولة يا رجل؟هذا كثير واشكرك جدا، شو هالكرم اليوم؟ لازم تشاركني.

- اكيد سأشاركك بعد قليل، أنت وجسمك وعملك تستحقون أهم من الأكل والشرب.

- الحمد لله واشكرك ثانية، راح عطشي وخفت الحرقة من الفلفل الزائد في كل الأكل، كان حلقي مشتعلا من حرقة الفلفل. والآن لست عطشانة والحمد لله، لكن على فكرة، هل وضعت فلفل في البيبسي؟ لاحظت ان به بعض الحرقة اكثر مما اعتدت عليه؟

- لربما جاءك هذا الإحساس، او بسبب البهار والفلفل الحارق في الأكل، ، ثم لا تنسي أننا في البر، وكل شيء في البرية يختلف طعمه.

ذهب الرجل بعيدا لقضاء حاجة، وليتفقد حيواناته الأليفة ووضع لها الماء، فخطر ببالي أن أشرب مثله من القارورة مباشرة، شربت جرعات قدر الكمية السابقة، فكانت الحرقة اقل. لكن عندما رفعت القارورة عن فمي، وجدت ان في البيبسي رائحة غريبة، مع إن طعم البيبسي ايضا موجود، ناديت على الرجل حتى اخبره ما نوع هذا ا لبيبسي فيه حرقة زائدة وقليل من مرارة ورائحة غريبة وقوية، ضحك وقال هاتي انا اشربها كلها إذا كنت لا تحبينها، فتح علبة بسكوت صغيرة جدا، وبها قطعتان بالشوكولاتة اعطاهما لي كتحلية، سررت جدا بحسن تعامله وتدليله لي، لكنني بقيت مستغربة منه هذه التصرفات والسخاء هذا اليوم، وكلما أحسست بالحرقة ، شربت المزيد من البيبسي البارد، وصرت أشكره وأضحك واغني وكأنني وحدي ولا يسمعني أحد، فقال غناؤك جميل وساحر يا سمحة، فسررت من مدحه وازددت حماساً ثم وجدت نفسي ارقص، متخيلة ان طبلا كبيرا يدق لي الألحان التي تعجبني، وتدفع المرء للرقص العفوي، ومستمرة في غنائي الفلاحي والشعبي والمصري، بدون توقف، ثم تقدم من السيارة وفتح الراديو إلى أغاني وتسجيلات من فريد الأطرش وأم كلثوم في أغنية غني لي شوي شوي، وفايزة أحمد، (سمعتها تغني: ياما القمر علباب، لوّح مناديله، يما ارد الباب، والا انادي له) صرت اكيف على مثل تلك الأغاني، وكلما جف ريقي او عطشت اشرب بيبسي، وبعد ربع ساعة أو أكثر، لم أعد أشعر بالمرارة، بل أحسست حرارة في جسمي، فنزعت غطاء رأسي، فتدلى شعري الطويل على كتفي، وجزء منه غطى عينا واحدة من عيني، فرددت جزءا منه على ظهري، كان طويلا جدا في عمر الشباب، ظهرت الدهشة على المزارع حين رآني فأعجبه شعري، فتقدم ومرّ بكفه على شعري من مقدمة رأسي حتى أطراف الشعر الطويلة، ضم حزمة منها ثم حركها امام وجهه، وقربها من فمه، ابتسم ثم تركني، وذهب ثانية مبتعدا، شعرت وقتها انني ملكة المزرعة والحيوانات وكل عالمي الذي يحيط بي، أحسست بامان وقتها، فزادت حرارتي، وفتحت زرين من فتحة فستاني الأوربي، كنت اشتريته من دكان ملابس مستعملة، واظنه كان من ضمن الملابس التي تقدمها الشعوب الغنية للاجئين الفلسطينيين، كان مشدودا قليلا على جسدي، وبعد أن حللت الزرين برز صدري للخارج وتحرر قليلا، بعد أن كان مضغوطا داخل الفستان، لم يعجبني ذهابه بعيدا عني وهو يقوم بأعمال غير مهمة، ويتكلم معي من بعد.

أحسست بقلق يشبه الخوف، لأنني كنت في تحرر وسعادة لم أعتد عليهما، ثم بسب وجودي وحدي وقتها، ناديت على الرجل حتى رد عليّ، لكنني لم أنتظر قدومه، فسرت نحوه قبل حضوره، فلاحظ طيشي لكنه حاول تصنع اللامبالاة، ناداني كي أقترب فإذا به يراقب الحمار وهو يلقح الأتان، اول مرة في حياتي انتبه وأجد نفسي قريبا جدا من موقع الحدث، طار عقلي من المشهد، وصرت اصرخ، جذبني كي اقترب فاختبأت خلفه، فتلقفني ويداه تستحل كل مكان في جسمي، احسسست بارتخاء وبرغبة في الراحة والاستلقاء، لم أقاوم يديه حين حملني، بل بالعكس أرخيت جسمي تماما كجثة لاحراك بها، ثم مشى بي صوب العريشة، بعيدا عن الحمار وزوجته، إذ جاء دوره هو، بعدها قلت في نفسي، الإنسان هو معلم الشيطان حقا، كانت تجربة جديدة، لكنني لحظتها أحسست بجذب لذلك الشاب الأسود البشع، لا أدري هل لأنه رجل؟ او لأنني كنت عطشانة اريد ماء، بدل البيبسي الذي له رائحة قوية، ونكهة حراقة، ويظهر انه عرف انني لست بكرا. لكن المهم أنني لم أقاوم، ولا شعرت باي خطر يتهددني، لأنه كان لطيفا جدا معي، وكأنه يلبي نداء جسدي، وكل ما شعرته انني كنت مرتاحة ولا داعي لذكر باقي الحكاية، مكثت متمددة بعدها من الظهر حتى قرب الغروب، يزورني الرجل ليفرغ شحنته ثم يغيب نصف ساعة او ساعة ثم يرجع يزورني ثانية، وبعد مايقارب ست ساعات بدأت أحس برغبة في النهوض، وصار لدي قوة لإسناد نفسي والوقوف، زارني للمرة الأخيرة، أمسك بي وضمني إلى صدره، وفعلت الشيء نفسه، شعرت انني مشتاقة للرجل جدا، وتمنيت يومها أن لا أصحو من غبائي.

- طيب، وماذا بعد، متى راحت السكرة،

- بدأت الشمس تميل للغروب، وبدأت تلتصق بالأفق، دعاني للنهوض، لأن علينا ان نعود قائلا:

- يالله جهزي نفسك للعودة للبيت، سيؤذن للمغرب بعد نصف ساعة، أحسست بشيء من خوف أو قلق، لكنني ما زلت متكاسلة مرتاحة، نهضت بكسل، وعدلت ملابسي الداخلية، عرفت وقتها أنني لم يكن لي حيلة، ولا أستطيع ان أفعل شيئا بعد كل ما جرى، أحضر لي فنجانا من القهوة السادة مرة وثقيلة، وشربته بدون تفكير، وظل يماطل حتى تأكد من نشاطي الطبيعي، وصلت بيتنا واندسست في الفراش فورا، ولكل من سألني، اقول لهم عندي صداع شديد، شكت والدتي انني حملت شيئا ثقيلا، أو انهم ضغطوا عليّ في العمل فمرضت، جهزت لي الشاي بالميرمية، وكررت قائلة اشربي ماء اشربي شاي، أكثري من شرب السوائل.

- لكن ياححة ام مسامح ما رايك في رجال هالبلد، هذه الأيام؟

- والله يا إبني كل الرجال الذين سمعتهم او قابلتهم او عرفتهم في بلدنا يذمون زوجاتهم، اول شيء يتكلم عنه الرجل حين يريد ان يلفت نظرك، يذم زوجته، ويصفها بصفات ما أنزل الله بها من سلطان، بعضهم يقول عن زوجته متخلفة، وآخر يقول إنها عفنة، وثالث جلفة خشنة، لا تحترم الرجل مثل المرأة الأجنبية أو الراقية، وبصراحة نساء بلادنا لا يعطين الرجل والروح والكيف الأهمية التي توليها المرأة العصرية في الخارج لهذه الأمور.

وكيف سارت العلاقة بعدها بينك وبين ذلك الشاب الذي أرواك من البيبسي الحارقة؟

- صارت علاقتنا بعدها قوية، لدرجة أننا نهجم على بعضنا صباح كل يوم، نتضامّ كأننا غبنا شهورا عن بعضنا، صار يقضي معظم عمله قريبا مني، ويظل يغني ويرقص أكثر مما يشتغل، لاحظ مدير المزرعة تقاربنا وانشغالنا، ويظهر انه شاهد تركنا للعمل للانزواء خلف جدار او شجرة كبيرة، او أسفل شجرة برتقال كبيرة، لم يشر للموضوع، لأن الشاب من أهله وأقاربه، لم يثر او يغضب، ولم يذكر له ولا لي أي شيء عن سبب طرده، بل أبلغ الشاب انه لم يعد بحاجة لخدماته، لكنه أبلغه انه وجد له مزرعة أخرى يديرها صديق له، كي يعمل عنده.

بكى الشاب العشريني حين ودعني، وقال، إنه لا يستطيع أن يفعل شيئا لي او لنفسه، وعليه ان يمتثل لرغبة قريبه، لأنه لا يريد أن يعرف أهله بعلاقتنا، وحتى لا ينكشف امرنا، فعلينا ان نتحمل كلانا ظلم الإنسان والحرمان، ثم فطن بعدها وقال لي بحزن وأسف، لا تنسي يا سمحة، ان ما كنا نفعله كان حراما ومخالفا لعاداتنا وتقاليدنا العائلية، وبصراحة اقول لك، لأنني غوراني محروق البشرة، فلا أستطيع مخالفة عادات أهلي، وخطيبتي هي من أهلي وغامقة اللون مثل لوني، ومع انني احببتك، إلا أنني اقول لك إنني لا أستطيع ان أعدك بزواج، لاختلاف عاداتنا وأشكالنا، وهذه آخر مرة نلتقي فيها، ولن أفكر بعد اليوم بلقائك.

أرجو أن تسامحيني، ولا أدري هل ستتذكريني بخير او بسوء، لكن هذه هي إمكانياتي، ولا أستطيع الاستمرار في الضلال والمخالفات يا صديقتي، يامن كنت صديقتي، ولن تكوني بعد ذلك، ليس لعدم رغبة بي، بل بضعف واستسلام للأقدار التي تحكم حياتي، وكما نسمع في كل محفل، إن العربي مغلوب على امره دائما، فالأمور التي تتحكم في حياته هي كثيرة، ولا يجد العربي مجالا للحرية والحياة كغيره من شعوب الأرض، وبرغم انني أدعي انني متعلم، ونجحت في الشهادة الثانوية، ودرست سنتين في كلية مجتمع، إلا أنني أظل اسير العادات والتخلف الاجتماعي في بلادي، لا تظني انني أشجع الخداع والغش والحرام، وأعتبرها من الحريات المطلوب توافرها، لكن ارادتنا ليست حرة حتى على أرض بلادنا، فالمسجد يحكمك، والشيخ يحكمك، ووالدك يحكمك، والعشيرة والأهل يحكمونك، والشارع والعادات القديمة تحكمك، والنظام والأمن والقانون كلها تحكمك، وتجعل منك إنسانا مسيرا في كل أفكارك وحياتك ولا خيار لك، إننا ننظر لأعدائنا، ونتساءل كيف يتغلبون علينا؟ وكيف يتفوقون علينا؟ وكيف يبدعون في كل ما يفعلون؟ إنها الحرية والكرامة وحرية توافق الرغبات وتقرير المستقبل للشباب، وإتاحة العمل ومجالات التقدم والفرص لهم كي يبدعوا وينجحوا، ويحققوا ما تصبو له نفوسهم وحسب قدراتهم واجتهاداتهم، ذكورا وإناثا.

تذكرت ما مر بي من خبرات، وما سمعت من نصائح، قد تتشابه في طبيعتها، وتختلف أيضا من شخص الى آخر، رجلا كان ام امرأة، فلاحا كان ام مدنياً، بدويا كان ام حضرياً، لكن بعض هذه الخبرات والخسارات والسلوكيات قد تتعمق في آثارها على الناس من شخص إلى آخر، فيقل أثرها او يزداد حسب المواقف وحسب استعداد الشخص للوقوف والصمود، او الانبهار او السقوط امام قطار الحياة الذي لا يتوقف، كل إنسان يحب ويكره، يخاف ويطمئن، يقلق ويهدأ، يحلم ويرى حقيقة الأشياء، يفرح ويحزن، يتأمل ويفشل او يحبط، فحياة كل انسان هي طعام تختلف نكهته ومذاقه من شخص لآخر حسب خبرته وقدراته ومعارفه ويتأثر مما عاناه او مر به، فهل سيفعل شيئا يعوضه عما فات، او يكد للخروج.

**الفصــــــــــــــــل العشرون**

حين كنت اعمل في المزارع، تأخرنا مرة في عملنا في الحقل، يحضر رئيس العمال في المزرعة ليأخذ العاملين والعاملات إلى أهاليهم آخر النهار في عزبتين بعيدتين عن المخيم حيث يقيم أهلي، طلب منه مدير المزرعة إما أن يوصلني لبيت أهلي او اقضي الليلة مع اسرة رئيس العمال ومتعهد توصيلهم، ولما كان بيت اهلي بعيدا، اوصل الرجل عاملتين وثلاثة عمال لمناطق سكنهم، لم يكن يدخل الحارات ليوصلهم لبيوتهم، بل كان ينزلهم على مسافات قريبة من بيوتهم، بعد غروب الشمس بما يقارب الساعة ولم يبق معه إلا سمحة، طلب مني أن أنزل من مؤخرة البك آب للجلوس بجانبه.

كان بيتهم قي عزبة تبعد ما يقارب الخمسين كيلومترا عن المخيم، وقال إنه يحس بتعب شديد، وسيذهب بي إلى بيته أهله، بكيت بصمت فانتبه لي، أنبني وسألني لماذا البكاء؟ وماذا ينقص عليك؟ أليس الليل للراحة والنوم بهدوء في أي مكان؟ قلت له اتمنى أن توصلني لبيت أهلي، لكنه اعترض قائلا، إن فعلت ذلك فلن أتمكن من الحضور لنقلك للمزرعة صباح اليوم التالي.

أمسكت عن الكلام وواصلت بكائي في صمت وحزن، بدأ الظلام يخيم على الكون تدريجيا، تمتد يده ليدي اولا، يمسكها ويسحبها، وانا لا أقاوم، ولا أدري ماذا يقصد، حاولت التصلب والتجمد علامة رفض الفتاة والمقاومة، لكنه واصل ضغطه.

لم اعترض بسبب الظلام والوحدة، لأن الليل بدأ يقترب من موعد صلاة العشاء، ولا قمر في السماء، والسيارة تسير ببطء، ولا أدري أين نحن، وبصراحة بدأت احس بتعب ونعاس، لفرط ما عملت لاكثر من اثنتي عشرة ساعة في المزرعة، بعدها تمتد أصابعه إلى فخذي يتملسه، ثم بدأت أنامله تمسك بجزء من لحم فخذي ويضمها بين أصابعه من فوق الملابس، كأنه يريد أن يقرصني، حاولت الشكوى والابتعاد عن مدى يده، لكنه جذبني وآلمني، فاستكنت، وماذا تتوقع من طفلة ان تفعل في مثل تلك العزلة؟ قال إنه لا يريد أن يؤلمني، ابتعدت قليلا، فأمسك بطرف ثوبي وجذبني ثانية صوبه، ثم رفع لباسي عن فخذي، وما زالت السيارة القديمة هادرة عبر طريق المتاهة بالنسبة لي، ظانة انه سيوصلني لمنزلي، وحين أعدت تنزيل ثوبي على فخذي، أوقف السيارة قائلا،

- إسمعي لا تعارضيني مهما عملت معك، انا لا أريد أن اسبب لك أي ضرر، أعلم انك لست بكرا، وقد أخبرني مدير المزرعة، وأنت فتاة جميلة وطيبة، فإذا خالفت كلامي سأدفعك من هذا الباب، وأتركك هنا في البراري تأكلك الضباع والذئاب.

لم أرد عليه بكلمة واحدة، بل انكمشت ورفعت قدمي الاثنتين على الكرسي صوبه، مد يده ثانية، وأدخلها بين ساقي، تساءلت في نفسي، ماذا يستفيد من لعبه، صار يهودج ويغني غناء بدويا، والسيارة تسير ببطء، وهو يعبث ويحرك اصابعه على كل جزء صغير بين فخذي، لم أشعر بمتعة او الم، فتركته يفعل ما يشاء، لأنني تأكدت انه غير مؤذي، أو هو إحساس لم أجربه من قبل.

مع انني طفلة كنت في عمر ثلاثة عشر عاما وبضعة شهور، إلا أنني قلت في نفسي، كيف نلوم هذا الرجل او غيره، وأهلي يتركونني وديعة للعمل بعيدا عنهم، لم أستغرب تصرفه لأنه سبق وافتتحني مدير المزرعة نفسه، وكأنها عصابة، او دارسون على شيخ واحد، وبنفس المنهج، وربما يفعلون ذلك مع كل امرأة او فتاة تعمل عندهم، فهل أستطيع حماية نفسي؟ وما دام أن لعبه لا يضرني، سأتحمل بعض الشيء لأرى ما يمكن ان يحدث، ومن المفروض أن يفهم أهلي أن الغريب البعيد لا تهمه بنات الناس ولا مصالحهم، بل يهمه مصلحته ومنفعته، تشتغل البنت او المرأة لهم في النهار، ويتسلون بعد العمل بهن في مثل هذه المناسبة، جسدي وعقلي صارا ينتظران ما هو آت بعد ذلك، مكرهة او لاسترضاء الناس الذين اعمل معهم، حتى لا أجد منهم تشددا أو تعذيبا، وأكثر خوفي أن يشتكوني لوالدي الطيب بثقته في الغرباء، مهما بلغت صداقتهم واحترامهم له.

أدخل اصبعا واحدا فأجفلت بصمت وانكمشت بكل ما اوتيت من قوة ، حاولت التمنع والمقاومة، لكنه عاد وجذبني بعنف مهددا ثانية، بعدها أوقف السيارة وأرضى نفسه، ونظراتي شاردة كأنني في عالم آخر، او كأنه ليس جسدي مستسلمة لقدري، حاصرة كل كياني وجسمي في عقلي وعيني السارحتين، ولا علاقة لي بما يحدث أسفل ذلك، ولأنني لم أكن أراه جيدا، ولا أرى نفسي بسبب الظلام، ظننت أنني في كابوس حلم ليلي غريب عن عالم الواقع، كنت مستسلمة دون أن أحسّ بـأي شيء يفعله، بل أنتظر انتهاء الحلم والخروج من كابوسه، وليفعل ما يشاء، مادام لا يؤلمني.

وبدلا من توصيلي لمنزلنا وجدت نفسي في بيتهم، لم تستغرب زوجته وجودي في بيتهم، بل سمعت أم سمير تضحك بسخرية بعد مغادرة زوجها بسيارة المزرعة، وبعد مغادرته بخمس دقائق، قدمت لي ما تيسر من طعام عندهم، وكان من خيار وقطعة جبن ولبن وجرجير وخبز شراك، أردت النوم بعدها، لكنها صارت تحادثني عن زوجها والعمال وتسألني هل يتحدث ابوسمير او يمزح مع النساء العاملات في المزرعة، قلت لا أعرف، ولا أنتبه له، إنه يتكلم مع الجميع، ويحثنا على النشاط في العمل، ولا يرضيه عمل أي شخص، سواء كان رجلا او ولداً او امرأة او بنتاً، لم تسألني إن كان يفعل بي شيئا، ربما اعتقدت أنني فتاة بعمر صغير، ولم يخطر ببالها انه سيفعل اي مخالفة مع أمثالي، لكنها قالت لنفسها وبصوت خفيض، انا أعرف ابو سمير، وأين يذهب ليلا، إنه بلا أصدقاء، وأقاربه لا يحبونه، فهو اناني لا يهمه من الدنيا إلا مصالحه الشخصية، يستغل كل فلوسه التي يجنيها من عمله في المزرعة لإطعامنا ولمصالحه وشهواته، لكنني أنا حرة أيضا، مع انني فلاحة او غورانية لكنني لست ساذجة، أنا ايضا لي مشاعر ورغبات، ولن يكون أشطر مني، سأكون حرة مثله، مادام أنه يشعر بأنه حرّ، ويستطيع ان يفعل أي شيء دون حساب ولا عقاب ولا عتاب، يظهر انه لا يعرف ان الرجال ملء الأرض، ولا أظنه يعرف أن اي رجل هو مشروع عاشق، حين تعطيه أي امرأة عين أو إشارة بسيطة، وسيكون جاهزاً حتى للمغامرة، كنا نجلس أمام الغرفة الصغيرة ليلا، على ضوء سراج وبعد أن طلع القمر قرب الحادية عشرة ليلا، وبينما كانت تتحدث لنفسها أو ظنا منها انني امرأة تفهمها، أسندت ظهري لوعاء ماء الشرب والذي يسمونه الزير الفخاري، فبدأت أغفو ثم اصحو من شدة التعب، وجسمي كان بحاجة للراحة، تضع مخدة قربي على الطرحة التي اجلس عليها، ثم اواصل نومي قبل أن يطير نعاسي، وأظن أنها ألقت على جسمي غطاء خفيفا، بعد ما يقارب الساعتين، أسمع حركة خفيفة وهمسا، يتقدم رجل قصير ممتلئ قليلا ينظر لي، ويحركني بخفة ليتأكد من أنني غافية، لم ارفع رأسي ولا تكلمت، لا أريد أن يزعجني احد، فأنا متعبة واريد أن أخذ كفايتي من النوم، أدخلته أم سمير في عشة صغيرة قرب اماكن نوم العائلة، ربما هي غرفة للاستحمام او غرفة خزين، اندس الإثنان هناك، طال مكوثهما، ثم خرج الرجل وهو يرتب ملابسه ويربط حزام سرواله، ويختفي بين الشجيرات القليلة حول البيت، لم يخرج من الجهة المخصصة لدخول السيارة، بل غادر من الجهة الخلفية للبيت، شاهدت أم دحدوح تمسّد شعرها بيديها دون مشط، وتلبس سروالها ثانية قبل دخولها للمكان المخصص لنومها ونوم زوجها، لم تنس أن تلقي نظرة عليّ، بل إنها أيقظتني كما كانت تظن، وسألتني إن كنت اريد أن أدخل الغرفة خوفا من البرد او البعوض، حركت يدي رافضا، فتركتني وذهبت للنوم.

تعلمت درساً إضافيا من ام سمير، أحببتها ليلتها وأعجبت بها، إنها انتقمت لي ولها من زوجها أبي سمير، صرت أحترمها، أعرف ان ما فعلته هو حرام وزنا، لكن ظهر لي إن الحياة فيها صعوبات وظروف تضطر المرأة او أي إنسان أن يتصرف دفاعا عن حقه بطريقة ما، والمرأة في بلادنا العربية قد تجد الظروف المحيطة بها صعبة، ولا خيار لها ألا القبول والتعايش مع تلك الظروف، وباب المغفرة مفتوح كما يقول والدي والمشايخ، والمسلم لا يدخل النار مادام يقول لا إله الا الله، وباب التوبة مفتوح دائما، وبرغم صغر عمري وقتها إلا أنني عرفت وقتها أن هناك أموراً يجب أن تحدث إن رضينا او أبينا، لوجود عوامل وقوى أقوى من رغباتنا وعزائمنا، وأرى العالم الذي حولنا هو غابة، القوي فيها يفترس الضعيف.

**الفصل الواحد والعشرون**

حين اقترب موعد وصول ابني مسامح من عمله، يوم اختلافي مع كنتي ، خرجت للجلوس أمام مدخل العمارة، مظهرة انني مطرودة من زوجته، او لا تريدني عندها، فبادرته الجارة قائلة:

- خذ والدتك معك يا سمحان للبيت.

- يا لطيف ، ما الحكاية، أرجو لا تكوني تعبانة أو مريضة يا أمي؟، فترد عليه الجارة.

- إنها زعلانة، حردانة من زوجتك، وأظنها لم تدخل الشقة منذ العاشرة صباحا، وهاهي الشمس توشك على المغيب.

نظر مسامح في الأفق البعيد، شاهد الشمس تغيب وراء أشجار الصنوبر العالية الكثيفة، لفت نظرنا بحيرته، تنهد واستنشق نفساً طويلا، لا يدري ما يقول، أخيرا امتدت يده على رأس والدته وقبل قمة رأسها، وقال لها: لا تغضبي يا أمي ولا تحزني، انت الأصل، والبيت بيتك، وانا وزوجتي نعيش عندك في بيتك، أمسك بيديها الاثنتين قبلهما، ثم صار يرفعها للوقوف قائلا، هيا استعدي للرجوع لبيتك، وسأعود لك بعد قليل، سمعنا نقاشا وصياحا عالياً في البيت، مسامح يناقش زوجته ويلعن اليوم الذي عرفها فيه، يسبها فتسبه، يلعنها فتلعنه، يلعن امها فتلعن امه، دفعها وضربها، وسمعناه يقول لها، اخرسي، احترمي نفسك، واحترمي والدتي، هذا بيتها وليس بيتك، إن لم تعجبك حياتي مع أمي، اخرجي وارجعي لأهلك، يعلو صوت الزوجة، وتخرج على شرفة المنزل الواقع على الشارع العام، بشعر منفوش وملابس البيت غير المحتشمة، يدفعها للعودة داخل البيت، فتتأبى وتريد الوصول للشارع، تواصل السباب والدعاء على حماتها ومن يسبب لها التعب في حياتها، تلعن حظها التعيس الذي اوقعها مع رجل ليس برجل، تقول له أنك ما زلت طفلا مدللا، أنك لا تستطيع ان تكون رجلا مستقلا، ولا تستطيع الانفصال عن والدتك، لماذا لا تطلب منها ان ترضعك، ولماذا لا تنام في حضن امك يا عين امك؟ ولماذا تتزوج بنات الناس وتخدعهن بطولك وعرضك، يهجم عليها ثانية، يجذبها من شعر رأسها ويدخلها رغما عنها للبيت، ويقفل الباب عليها، ثم يخرج للجلوس مع والدته وجارتين أخريين، شربوا الشاي مع بعض الأحاديث المسلية، كي تنسى والدته أم مسامح ما حدث، بعد ذلك طلب من والدته ان ترافقه للمنزل، وصار الوقت قرب صلاة العشاء.

دخل على زوجته الحردانة في غرفة نومها، تكلم معها بلهجة خاصة وبكلمات بسيطة، وبتصرفات أخرى ربما، فسمعتهما سمحة ام مسامح يتحدثان بصوت عادي، وكأن شيئا لم يكن، خرجا بعدها للصالة لمشاهدة التلفاز، حيث تجلس العائلة وطلب منها أن تجهز عشاء، أكل الجميع وشاركتهم الأكل مظهرة أن حياتنا طبيعية، وكأننا لم نكن في صراع وعقاب قبل ساعات قليلة، تعودت بعدها على هذه الحال، والصمود لمثل هذه المواقف، وسرعان ما تنسى كلتانا ماحدث.

في صبيحة اليوم التالي، فوجئت بكنتي تطلب مني أن أرافقها إلى السوق، لتناول طعام الإفطار من الفول والحمص الطازة والفلافل في مطعم هاشم وسط مدينة عمان. حاولت عدم الرد على كنتي، لكنني وجدتني اقول:

- أتركيني بحالي، انا متعبة ولا أشتهي اكلا او شرباً، اذهبي اي مكان تشائين وحدك يا بنت.

- لا ياعمتي، كيف اتركك؟ أنت امنا وحبيبتنا، إخزي الشيطان الله يلعنه، احيانا يتدخل في البيوت فيفسد العلاقات، انت مثل والدتي، وعمود اساسي في البيت، وبدونك ما نقدر نعيش، انت عارفة، إنني احترمك ونحتاجك انا وزوجي مسامح.

- فكوا عني واتركوني لحالي، انا صرت عجوزا، لقد زدتما هموم الشيخوخة عليّ، وعمري سيضيع لأجلكما، اتركوني انا وبنتي، او سنترككم، المهم دبروا حالكم بدوني، واتركوني ارتاح، على الله ارتاح. أرى ان كل تعبي يضيع سدى يوما بعد يوم.

- لا يا أمي لا تسمعيني مثل هذا الكلام، نحن عائلة متفقة متفاهمة، وستصبح حياتك أفضل بكثير، عندما يرزقنا الله بابن يكون حفيدك، اوبنات، لكن ثانية اقول، لعن الله الشيطان الذي فسدنا، زوجي يحبك كثيرا، وهو دائما يحدثني عنك ، وعن اهتماماتك به وحسن تربيتك له والدلال الذي كان ينعم به في طفولته، وأفهمني ان لاحياة لنا بدونك، وأنا اوافق معه، سامحيني على خطأي ونقاشي معك، كانت ساعة شيطانية، هيا هيا، انهضي ورافقيني، هيا خلينا نخرج من البيت ونغير الجو.

- والله يا بنت الحلال لست بقادر أن ارفع جثتي.هاتي يدك ولا يهمك، قومي بس قومي، سنركب في تاكسي حتى ترتاحي، ولا ننتظر الحافلات.

فعلا استطاعت ان تجذبني وتعدل مزاجي هذه الملعونة، آآه من بنات هذه الأيام، كأنهن كلهن دارسات في معاهد تمثيل، يستطعن ان يغيرن مواقفهن مرتين او ثلاثة في كل ساعة، وكأن شيئا لم يكن، انا نفسي لا أتصور كيف أمكنها ان تتغير مائة وثمانين درجة، وتصبح ذلك الإنسان الرقيق والمؤدبة، زادت حيرتي مع هذه المرأة، وأدركت قدراتها، وكيف استطاعت جذب ابني الذي لم يكن يفكر في سنه المبكرة بأي امرأة او حب او زواج، بل كان هدفه ان يسمع كلام والده الذي أوصانا به لنخبره به، بأن يعمل اولا على إتمام دراسته الثانوية ثم الدراسة الجامعية مثل عمه، بعدها يعمل لامتلاك بيت او شقة قبل تفكيره بالزواج، وكم مرة سمعته يكرر وصية والده، ويعدني بانه بدأ بالتوفير من راتبه، وحكى مع عمه عن رغبته في شراء ارض صغيرة او شقة مناسبة ليضمن استقراره بعد زواجه.

لملمت نفسي وارتديت ملابس نظيفة وانيقة كعادتي، فمدحتني كنتي ميرا قائلة، ما شاء الله عليكي، من يرى هذه الطلة والاناقة والجمال يظل انك بنت ثلاثين سنة وتبحثين عن شريك جميل وعاشق مناسب. دغدعت مشاعري الملعونة وقتها، وأحسست بنشاط زائد، وتواردت لذهني سنوات الماضي ومواقف الكيف والمتع التي مرت علي برغبتي او بالرغم عني بدون تخطيطي، الحياة صيد والتقاط، الحياة هي التي تلك الأوقات التي نتجدد فيها ونتقدم، اما تعداد السنين ونحن في جمود او ركود او مرض، فلا اهمية لها، بل هي موات على شكل حياة.

صحوت وإذا بكنتي تطلب مني النزول من سيارة التاكسي امام مدخل مطعم هاشم، استنشقت روائح الطعام الطازجة الفول والحمص والفلافل، أحسست بالجوع وقتها فعلا، سرت امام كنتي ميرا، باحثتين عن طاولة هادئة في مكان مريح، وصرت اتعجل النادل في داخلي كي يحضر لنطلب منه طعامنا، سنتذوق كل الأنواع الشعبية المتواجدة في هذا المحل، مددت يدي لمحفظتي وتأكدت من وجودها معي، صرت اعرف كنتي جيدا، ستحاول ان تدفع قيمة طعامنا، لكنها تعرف انني أنا التي سأدفع، لأن دخل ابني لا يكفي العائلة أكثر من اسبوع إلى عشرة أيام، وبعدها انا التي تنفق على طعام العائلة وحاجاتها بقية الشهر، بل طول السنة، وأحمد الله دائما على انه رزقي يأتيني من محسنين وأصدقاء ومعارف دون ان يرى ذلك اي من أفراد أسرتي، ولا يعرفون كيف أحصل على كل تلك المبالغ التي انفقها على ابني وزوجته وابنتيّ.

**الفصـــــــــــــــــل الثاني والعشرون**

الحياة مع الزوج

إبن عمي كان إمعة، ضعيف العقل وفوق سذاجته كان يعاني من إعاقة في قدمه اليسرى، فلا يستطيع المشي منتظما او بشكل طبيعي، لا يحب العمل وغير متعلم، حين لاحظ أبي أنني فتاة قوية الشخصية كما كان يقول عني، وأحيانا يخاطبني مؤنباً او متضايقا قائلا، لماذا لم تطلعي (زلمة)، فأجرؤ أحيانا بأن أجيبه قائلة، (انا أحسن لك من عشرين زلمة)، لا يعجبه كلامي، فينهرني بأن أقطع كلامي وأخرس، ولا أجيبه، ولأنني اعتدت على العمل في المزارع بعيدا عن العائلة وأحيانا المبيت خارج البيت، ولكثرة قلق والدتي عليّ، والتحدث مع والدي عن خوفها، فاجأنا والدي قائلا:

- سأزوجك بابن اخي يا سمحة.

- هل ستمزح معي يا والدي؟ ولتوي أنهيت الخامسة عشرة من عمري، كل الشباب في المخيم يتمنون سمحة، ويتصيدون رضاي، وتريد أن تزوجني من ابن أخيك الأهبل؟

- إخرسي قطع لسانك، إنه ابن عمك سندك وتاج راسك، لا تقولي ابن اخيك، إذا سمعتك تتكلمين ضد ابن عمك مرة أخرسأقطع لسانك، اسمعي يا بنت انت وامك، كلامي لا يناقشه احد، وانت تعرفين والدك، لم اربيك لتعصي أمري، أخوك الكبير لا يجرؤ أن يحادثني بمثل كلامك، عندك جرأة فوق الحد، وانا أسميها وقاحة في تراثنا، إخوانك يطيعون ما أطلبه منهم مهما كان صعباً، ومن يخالفني سأكسر رقبته، حتى لو كان متزوجاً وعنده عشرة أولاد.

بعدها بشهور قليلة وجدت نفسي أعيش مع ابن عمي الساذج مقيما مع والديه، اعرف انه خامل لا يحب العمل، لهذا وجدني له لعبة مجانية، يريد أن ينام معي ويحب ان اضعه في حضني، انا اصغر منه بأكثر من عشر سنوات، لم يعرف ان الكثيرين مارسوا الجنس معي من قبل، والطريق سالكة، لا يعنيه ان يعرف شيئا اسمه بكارة، بل كان يشعر انه امتلك الدنيا حين تزوجني، عاقبه والده عمي شقيق والدي على كسله، ضربه وأهانه، وهدده بطرده من منزله، إذا لم يشتغل، بعدها تحرك وصار يعمل في السوق حمالا، وعمل بائع خضار، وصار يملأ الماء على أتان ويوصله للمنازل.

كانت حماتي تستغلني لأساعدها في أعمال البيت الشاقة، مثل كناسة الحوش الخارجي، وكناسة الشارع امام البيت، وغسيل الملابس باليدين، كانت تقتر في الصابون، أو ربما لم نكن قادرين على شراء حاجتنا من الصابون، فأضطر لدعك الملابس بيديً وأصابعي مدة طويلة حتى تنظف، وكنت أحس بآلام في اصابعي وعضلات كتفيّ لثلاثة ايام او اربعة بعد الغسيل،غسيل حماتي وعمي، وباقي الأسرة وعددنا ستة.

كان عمي يطلب مني الخروج إلى المزارع القريبة ، او الشلالات او الأودية القريبة والبعيدة، للبحث عن خضار البقول المجانية مثل البقلة (الرجلة) والخبيزة والسلق والسبانخ والمرار والجلثون والسعيسعة، وأحيانا يطلبون مني أن احضر لهم سنابل قمح كي يشوونها لتصبح فريكة، يأكلها الأولاد والبنات في العائلة، يستأثر عمي بما يطيب له مما أحضر، بحجة أنه مريض وكبير في السن، وتشاركه زوجته حماتي، وفي حالات كثيرة، لا احصل على شيء مما أحضرت لهم، كانت شقيقة زوجي تذهب معي أحيانا، فتجبرني أو تحثني على أن اسرق من أشجار البرتقال والليمون والتفاح المزروع في مزارع الناس في منطقة الغور، ومرة أمسك بي صاحب المزرعة، وضع يده على فمي وامسك بصدري وثديي، لم اتمكن من الصياح، وكانت شقيقة زوجي بعيدة خلف اسوار المزرعة، رفع الرجل ثيابي، ولم أقاوم، فوجدني صيدا سهلا، ولم أعارض، خشية ان يضربني، ولا يأخذني لمركز الأمن او يفضحني بين اهلي والناس، وسيغضب والدي وسيعاقبني بشدة وبقسوة، لأنني اعرف حين يجد له سببا لثورته، ما إن ركزني الرجل الكهل على طرف الجدار حتى ارخيت يدي، وهبطت على الأرض، ولما أظهرت له استسلامي، قلت له:

- هل يكفيك يا عم، ارجو أن تسمح لي الآن بعد أن شاهدت عورتي بالعودة لأهلي

- أنت فتاة جميلة ، حرام أن نضربك ونهينك، وجمالك يشفع لك اعتداءك على بستاننا، لذا ارحب بك ضيفة عندي في مزرعتي هذا اليوم

- ارجوك يا عمي، ارجوك سامحني، أنا أخطأت طريقي، وأعدك أن لا أعود لبستانك ثانية، هي حبة واحدة اشتهيتها، فإما ان تسمح لي بها أو سأولي بعيدا عن أرضك وحوضك.

- مهلا، لا تسرحي بعيدا، للجمال واللطف والطفولة حق علينا، فمن حقك أن تأخذي حصتك من أشجارنا، وقدر استطاعتك، ليس هذا فقط، بل يمكنك ان تحضري لقطف برتقال وليمون وخضار اخرى مرة كل اسبوع، بعدها أمسك بمعصمي الاثنين، ثم ربط يدي الاثنتين خلف ظهري، ورفع فستاني فوق خصري، حتى لا أتعثر كم قال، ثم قادني لغرفة قريبة فيها سرير سفري، لكنني لم انس انني سأحمل معي فواكه وخضار علنا وبدون خوف ولا سرقة، سرعان ما بدأ الرجل عمله بإخلاص، كنت في السادسة عشرة من عمري، اكتشفت وقتها امرين جديدين بالنسبة لي، اولهما ان الرجل لديه خبرة كبيرة في الإمساك بالنساء والبنات السارقات من بستانه، والثاني انه كان مخلصا في عمله ومتعجلا، سمعت نداء ابنة عمي من بعيد، فأخبرته، ففك يدي الاثنتين، وقبلني مرات عدة على صفحتي وجهي وجبهتي ومرتين على فمي، لكنه لم يمعن في تقبيلي على فمي، ربما خاف من المرض من أمرأة لاجئة في مخيم، وقد بدا عليه انه متعلم او ربما هو صاحب شركة ما. لكنني سمعته يقول:(ما الذّكو يالفلسطينيات) وفور اطلاق يدي، قفزت كالعفريتة نشيطة غير خائفة ولا قلقة، فقال لي:

- سأتركك تقطفين ما ترغبينه على راحتك، سأغادر المزرعة بعد قليل، وسأبلغ الحارس إذا حضرت ثانية أن لا يعارضك، فأنت عزيزة علينا، وتذكري ما قلته لك. فأجبته متسائلة : هل ستحكي لأحد من أهلك او اصدقائك عني؟.

- عيب يا بنت ، انا افضحك، وافضح نفسي، لا تقلقي، هيا هيا إذهبي والتقطي حاجتك من الفواكه المتوفرة والخضار، ونادي على إبنة عمك، ويمكنك مغادرة المكان في أمان.

تأكدت أن هذا العالم غريب، يومها زادت معرفتي بالعالم الذي نعيش فيه، بدأت أدرك الكثير من الحقائق عن حياتنا ونفسياتنا، ابن عمي يشعر بالسعادة حين يستمتع بجسدي، وهذا الرجل اصبح كريما مطواعا لي هنا للسبب نفسه.

صرت أتذكر الرجال الذين غامروا واستغلوا جسدي وأعضائي التناسلية في طفولتي، وتذكرت الإحساس بالألم وغلبة الرجال الذي عانيته دون رضاي، وأنا طفلة اعمل في مشاغلهم ومزارعهم، ولحسن حظي أن هذا الجسم والعقل احتمل كل ما مر بي حتى الآن، وأدعو الله أن يحميني من الأضرار والأمراض والأشرار، والأشد غرابة أنني لم أحمل منهم وقتها وربما لأنني كنت مازلت طفلة، وبرغم ان خمس رجال او أكثر مارسوا رغباتهم معي في طفولتي، فان ابن عمي لم يعرف، ولهذا لم أتالم ولم أتعذب ليلة الزواج، وكان هم ابن عمي أن يثبت انه كامل الرجولة وفي الوقت نفسه يقضي حاجته، وما دام زوجي ساذجا وأكرهت على قبوله، فلدي الحرية أن أفكر على طريقتي، لقد بدأت أحس منذ الثانية عشرة من عمري، انني مطمع الرجال، وجاذبة لأعينهم، وإن سترني الله فسأجني منها حياة تختلف عن حياة الضيق والظلم الذي عانيته، وفي ظل الحاجة التي دأب أهلي على العيش فيها، وستكون حياتي مع ابن عمي فرصة لي، كي أتعلم المزيد من المعرفة والمزيد من النجاح بسبب طمع الرجل وعدم قناعته، أو حبه للمغامرة واستغفال المرأة الضعيفة، إنني لم أفكر يوما برغبة او امنية ليعاشرني رجل، لأنني لم أكن يوما حرة في كل ما جرى معي.

في طريقي إلى أهلي، قلت في نفسي، يا خراب بيتك يا سمحة، ليت ابن عمي رجلا جيدا أعطيه ما أخذ مني بالغصب، ليت الحياة فيها عدالة وأمان لكي نرتاح من هموم الخوف والقلق، ليتني لم أخلق، وليتني مت قبل هذا، حتى لا أتعرف على منكرات العالم والناس، وحتى لا أكون مطمعا للغرباء، وما تحتاج إليه المرأة كالطعام واللباس ومتطلبات الجسد الأخرى، أو إن أرى أن حاجاتي الحياتية كاللبس والأكل تتوفر لي من اغتصاب جسدي، واضطراري للرضوخ لنزوات الطامعين.

كم هو ظالم مجتمع الإنسان، وما الفرق بين حياة الناس وحياة الحيوان في الغابة؟ إنها الطبيعة بأشكالها وتنوعاتها المختلفة، القوي يأكل الضعيف او يعتدي عليه، وهاهم الصهاينة استقووا وفعلوا كل ما استطاعوا وما تفتق عنه الذهن الحيواني، فاغتصبوا نساءً، وقتلوا ابرياء واطفالاً، ولم يكتفوا بنصرهم، بل أصروا على تهجير شعبنا وتغيير تاريخنا، ونحن أضعف من الأيتام على مأدبة اللئام، أقصى همومنا ان نعيش ونأكل وننجب المزيد من اللاجئين والأعباء، تباً لهذا العالم، أكره كل الناس، أكره العالم والحياة والعيش بكل أشكاله، إننا مطايا وفرائس يجترنا الأقوياء والمفترسون، ويمتطينا مرضى الشهوات والأقوياء والمجرمون والذين في قلوبهم مرض، عالم لا أستطيع استيعابه ولا فهمه، ولا أقوى على مواجهته، الحياة إما ظالم او مظلوم، ولا أعتقد أن هناك عدالة على هذه الأرض، مهما ادعى بعضهم، وحتى المشايخ والدعاة والمتزعمون، كلهم في خانة المستغلين والساعين للتحكم بغيرهم من البشر، والمرأة عند العرب هي الحلقة الأضعف، والكائن المستسلم على الأقل في ظروفنا التي نعيش فيها في الخيام، او ننتظر للمساعدة والعون من بعض الدول الكبيرة والقوية والغنية، لمجرد إبقائنا أحياء، ومن يعلم فربما نكون مثل خروف العيد، نطعمه ونسقيه وندلله كي يسمن حتى يتم ذبحه يوم العيد، لينعم بلحمه وجسده الغير والجائعون والطامعون.

أتذكر الرجل الثاني صاحب المزرعة الذي تسلط عليّ واستغل طفولتي، كنا مرة في خلوة بعيدا عن أعين العاملين لديه، لاحظت أنه يركز نظرات عينيه على وجهي، وكلما حظي بكشف أي ستر، حتى شهق مندهشا من جسدي، وقعت عيناي على عينيه، فشاهدت عينيه مفتوحتين في دهشة، وأنا في موقف المنتظرة لا أعرف ماذا اقول، ولا ماذا أفعل، ولا كيف اتحرك، بدا وكأنه لم ير شيئا من جمال العالم وسطوته من قبل، هكذا تصورته وقتها، لكنني شعرت ببعض الاقتراب منه، إنه الفضول ولا أنكر أنها بلاهة مني، لكننا نحن النساء حين نقع في موقف صعب او محير او مشكلة، ولا نجد مخرجا سريعا، نجد انفسنا مستسلمين لنعرف ماذا بعد؟ وماذا يريد الآخر؟ مع انني كنت ما زلت متجمدة لا أدري ماذا علي ان أفعل أو أقول، اثارني بنظراته وأدهشني، وخاصة وأن المكان قليل الإضاءة، أحسست ان الظلام علاج وشاف للنفس، فيه نستنشق ا لهواء دون خجل ولا قلق، بل بشكل طبيعي ربما، ذلك هو الهواء الذي نحيا به وننتعش، في الضوء الكافي والهدوء نتمكن أن نرى جماليات ما خلق الله، ونلمس ما في الإنسان من جمال. بينما تعلو أنفاسه يسندني، ويطوق عنقي واضعا يده فوق كتفي الإثنتين، وجدتها فرصة للتنفس، أغمضت عيني، ووجدتني أتنفس براحة، أرخيت نفسي مطاوعة في حضنه وهو جالس على طرف السرير المعدني، جذبني برقة وقربني ببطء منه حتى أجلسني على ركبتيه، وكلما تعمق في لمساته، او حل عقدة، ازددت حيرة وارتباكا، هائمة في عالم بعيد، حتى بدأ يجذف ليسير المركب حسب هواه، لكن قشعريرة التيار اصابتني، فوجدتني اصرخ، نعم أصرخ، لكنني لا أعرف لماذا ذاك الصراخ، ولا أستطيع ان اصف احساسي وقتها، كنت وقتها أغرق في عالم عميق، مرتاحة في شبه استسلام.

**الفصل الثالث والعشرون**

زواج الإبن

في يوم أغبر تم عرس ابني مسامح، ولكم أحسّ بالندم لأنني لم أواصل اصراري على عدم إتمام الخطبة على تلك الفتاة لابني، ابني الوحيد، ابناء زوجتي الستة ربيتهم كلهم في بيتي كأبنائي، ماتت والدتهم في الكويت قبل دخولي لعالمهم، كان معظمهم صغارا، حضر الرجل إلى عمان بعد شهر من وفاة زوجته، وصار يبحث عن زوجة جديدة له.

هو من منطقة معروفة بالبساطة في فلسطين، أما أنا واهلي فأصلنا من منطقة بئر السبع، جذورنا بدوية، وحياة أهلي قاسية أقرب إلى التقاليد البدوية الخشنة، صحيح إن الهجرة لينت كثيرا من صفاتنا البدوية الأصيلة، والتأثير لم يقع على أسرتنا او عشيرتنا وحدنا، بل إن الهجرة عملت كفعل قدر الطبخ الذي تمزج فيه الخضار واللحم والمقبلات والبهار والملح والفلفل، لتنتج وجبة شهية، فالهجرة خلطت الناس فلاح وبدوي ومديني، متعلم وجاهل، قصير وطويل، ابيض واسمر واسود، غني وفقير، كلهم عاشوا في مخيمات اللاجئين، فانمحت فروق المناطق الجغرافية المختلفة في فلسطين.

نعم كانت هنا خلافات وفروقات جلية ومتميزة بين كل منطقة والأخرى في فلسطين، فطباع أهي المدينة تختلف عن طباع وعادات القرية، وطباع أهل مدينة يافا تختلف عن طباع اهل القدس، واهل نابلس يتميزون بصفات تختلف كثيرا عن صفات أهل حيفا مثلا، او غزة او بئر السبع، لكن الغربة وحدت مشاعر اللاجئين كلهم، وقربتهم من أهالي المدن والقرى التي لم تهاجر، وأول نتائج التهجير أنه وحد اماكن عيش الناس، ثم وحدتهم على أمل واحد هو أمل العودة لفلسطين، وحدتهم حيت تصاهروا وتزاوجوا دون اعتبار للفروق واختلاف الأصول والأمكنة، وحدتهم حين اضطروا للإقامة في الخيام وبيوت الصفيح، ووحدتهم حيث كانوا كلهم ينتظرون المؤن والإعانات المقدمة لهم من وكالات الأمم المتحدة، وحدتهم في الفقر والقلق من الغد، وبمزجهم واختلاطهم وتجاورهم، كان اثر الغربة أكثر وضوحا على الأجيال الصغيرة والذين انضموا للمدارس، فعرف جيمع الطلاب والطالبات انهم كلهم لاجئون فلسطينيون، لا يهتم اي منهم بالمنطقة التي اضطر لهجرتها، بل كل مشاعرهم أصبح واحدة وآمالهم واحدة، يعرفون ان ما ينقصهم هي الحرية والكرامة والمواطنة والعودة لأرض ابائهم واجدادهم.

لم يغير والدي أسلوبه في التعامل معنا في السنوات الأولى، بل ظل معنا كأننا ما زلنا في منطقة بئر السبع، وتمنى لو أرعى له الغنم، لو تيسر له المال الكافي لشراء قطيع ولو صغير، او لو توفر له بيت واسع لاقتنائها، لكن كل ما قمت به لمساعدة والدي واسرتي هوعملي في مواقع كثيرة في المزارع، مع انني لم يكن لدي مانع من رعاية الغنم لو توافرت، لكنني وجدت نفسي مضطرة للعمل في الزراعة، إذ إن الزراعة متمم لحياتنا الأصلية، كمعاونة للرجل، لو لم يتم تهجير الفلسطينيين من ديارهم، فالكل كان متأثرا بتراثنا السبعاوي القديم، لب ذلك التراث هو الطاعة العمياء للوالدين والأقربين، نعم لقد غيرت الهجرة والحاجة الكثير من تلك الصفات السبعاوية الخشنة، لكنالشعور بالإخلاص والشرف والوفاء للعائلة ظلت باقية على عمقها في النفوس، وأهم ما يميز الفرد منا وخاصة المرأة.

ما إن تخلصت من ابن عمي بسبب عجزه عن تأمين القوت والأمان لي، وازدياد ضياعه وابتعاده عن البيت مهملا متقاعساً، مجتمعة مع البلاهة والسذاجة والشرود، اضطر والدي على الموافقة على طلاقي منه ، لكي أتخلص من ذلك القيد، وترتاح اسرة أهلي من شكاواي وتذمري، فرجعت للإقامة مع والديّ، وتمر الشهور وأنا في تيه وقلق وحيرة، لكن والدي ووالدتي كانا يحملان همي أكثر بكثير مما أعانيه من ضياع، وبعد ثلاثة شهور بدأت أحسّ أن والدي بدأ يتذمر من وجودي في البيت بتعابير وتلميحات جارحة لكرامتي ومؤلمة، وبرغم عدم نطقها علنا وبصراحة، إلا انني كنت المس ذلك وأتألم، فليس ذنبي أن ابن عمي لم يكن كفؤا لي، ولا لأي زوجة اخرى، وليس ذنبي ان ضغط عليّ والدي لتزويجي من ابن أخيه، ولجهلنا وعدم قدرتنا على زيارة الأطباء عشنا حياة الغابة، فرزقني الله ثلاثة أطفال منه، ابنتان وولد معوق أكثر بكثير من ابيه، معوق حركيا وعقليا، ومع هذا لم أشتك بل قبلت التحدي، حاولت بكل ما أملك من عزم وعزيمة مواصلة الحياة الشقية مع ابن عمي، لكن وفاة والده الذي كان يضبطه نوعا ما، أصابتني بهزيمة شديدة، وقطعت تواصل والدي مع ابن عمي، ويأسه من إصلاحه، ومع كل هذا حاولت مواصلة العيش والصبر، لكن ابن عمي ازداد كسلا وشذوذا، فدلني عقلي أن اعتمد على نفسي في مستقبل أيامي، وحين قررت القطيعة والتخلص من ابن عمي، أراد والدي ان يعاقبني فرفض السماح لي باحتواء طفلتي المعوقة، بل أبقاها برعاية والدها ابن اخيه، وتساعده والدته، ابتلعت الحكم وقبلت التحدي، وكان قراري نهائيا، فبقائي هو موت بطيء لي، وضار لابن عمي، لأننا سنرزق بالمزيد من الأطفال في خيام او غرف صفيح او طين، تفتقر لأدنى متطلبات الحياة، ولكن قلت في نفسي، لو تيسر لي حياة أفضل مستقبلا، فلن أنسى أطفالي، وسأحاول دعمهم بكل ما أقدر عليه.

وبسبب الخبرة التي فرضت علي في حياتي في الوقوع تحت سطوة الرجل ومنذ طفولتي، وبسبب تشدد والدي وحرصه الشديد على تأمين حياة اقتصادية مريحة لعائلته، والجدية التي ظلت تغلب على سلوكه لدرجة الخشونة، ثم ولبلاهة ابن عمي، جعلتني احب العمل والاجتهاد وأعتاد عليهما، وأسعى للتعامل مع البشر رجالا ونساء على طريقة كل واحد منهم.

لم أتفاجأ كثيرا حين حضر الرجل الخمسيني يخطبني من والدي، فلم أتقاعس وقررت الانفتاح على الأمر، وطلبت مقابلة الرجل والتحدث له قبل إعطاء موافقتي النهائية، وما إن تمت المقابلة، حتى شاركت الرجل مشاعره وهمومه، وأكثر ما جذبني فيه هو هدوءه وصدقه وصراحته ووضوحه في هدفه، ووصفه لحالته بإخلاص، إذا أبلغني انه لديه ستة أطفال، ولايستطيع إدارتهم وتربيتهم، ويريد امرأة تكون امّاً بديلة لهم، قبلت التحدي الكبير وهو القيام بتربية الأطفال الذين ماتت امهم عنهم، وأثناء عيشهم في بلد عربي بترولي، حيث يعمل الخاطب، كان في أواسط الخمسينات من عمره، وكنت في اوسط الثلاثينات من عمري، إذ كان يكبرني بما يقارب العشرين عاما، تمت مراسم الزواج ببساطة وسهولة، ولم تدم فترة خطوبتنا إلا أسبوعين، حيث جهزت نفسي، كان الرجل كريما معي، فلم يناقش او يعترض على اي شيء فكرت بشرائه او اقتنائه من الملابس وبعض لزوميات الزينة والعطور وبعض المصاغ الذهبي، تخلص اهلي مني وسافرت معه إلى الدولة التي يعمل بها، إذ كان يعمل في دهانات لبيوت ومهن أخرى متعددة، ولأنه عاش قبل زواجنا بأشغاله الكثيرة والمتنوعة لمدة عشر سنوات، فبنى أصدقاء كثيرين ومعارف من نفس الدولة التي يعمل بها، وأموره جيدة وميسورة، ولو ان دخله لم يكن عاليا، بل كان كافيا لنعيش بمستوى أفضل من مستوى الحياة في الأردن وفلسطين بكثير.

التحدي كان كبيرا امامي، إذ وجدت أن عليّ أن أتخلص من أشياء كثيرة، وأتعلم أشياء جديدة وكثيرة، لأتمكن من التغلب على مصاعب حياتي الجديدة ومشاكلها، وخاصة وانني راعية لستة أطفال أكبرهم عمره ثلاثة عشر عاما وعمر أصغرهم ثلاث سنوات، تدور الأيام وحتى السنون، وأنا مفتحة العينين، عانيت في الشهور الأولى الكثير من الهموم والإحباط والهزائم والمتاعب مع الأطفال، لكن حكمة رجلي وخبرتي السابقة في التعامل مع الأطفال والرجال، سواء بعد زواجي بابن عمي، او أثناء عيشتي ضمن اسرتي التي كانت تحتوي على إخوان صغار أيضا،إذ كنت أساعد والدتي ووالدي في خدمتهم وتنشئتهم، بل خلفت والدتي ستة جاءوا بعدي، اربعة أولاد وأختان، فكنت لهم كأم ثانية، أعطف عليهم، وأساعدهم وأشتري لهم بعض الحلوى خفية عن والدي، من النقود التي كنت احصل عليها من عملي او إكراما لي ممن كانوا يستغلون حاجتي، أوكسبوا رضاي بالرغم عني، فأنا امرأة لا أعرف اليأس ولا الاستسلام، مرنة كقطعة مطاط قوية صلبة، أتحمل الكثير من الضغط والمطّ والضرب والممارسات الطبيعية وغير الطبيعية، وما إن يزول الضغط عني والشد، حتى أعود لحالتي ، ومع كل ذلك أنظر للغد وللجديد دائما، يحفزني إلى ذلك كوني لاجئة فلسطينية حرمت من ارضها ووطنها وكرامتها وانتمائها، لم أفقد عفويتي، ولا فقدت شجاعتي، ولا أحسست بهزيمة مهما حصل معي من انحرافات اضطررت لها، بل بالعكس فكلما حدث معي مصاب او تجربة مرة، أزداد صلابة وحنكة، بل ازدادت شخصيتي قوة وثباتاً، فعشت داخل هذه الصورة التي شكلتني او تشكلت بإرادتي او بالإكراه، فسعيت جادة لتقوية نفسي وتسليحها بالإيمان والقدرات التي تجعلني أستحق الحياة، وأمنح الحياة لنسلي من البنات والصبيان، لكنني ولسوء حظي لم أرزق بالكثير من الأطفال من زواجي الثاني، ربما بسبب عجز زوجي في سنوات شيخوخته وبعد بلوغة الستين، او بسبب لا أعلم عنه ولا يهمني أن اعرفه، فلم أعرض نفسي على طبيب مختص، قبلت نفسي وتصالحت معها كما هي، وكما يحتاجه جسدي ويقبله، لا أريد أن أتحدث كثيرا عن علاقاتي التي جرت في البلد الأجنبي، سواء ما كان منها برغبتي وتخطيطي أو بقبولي مضطرا لحاجة او لظرف معين، حين كنت أجد نفسي بأنني أحس بضعف نفسي او مالي او روحي.، لكن السنوات الثمانية التي عشتها مع زوجي في ذلك البلد البترولي، كانت سنوات غنية وحافلة بالأحداث والتطور العقلي والمادي، وحتى أنها لم تخل من مغامرات وبعض من الحب والخلافات، أما أهم متاعبي فكان مع الأطفال الذين استطعت تربيتهم وتهدئتهم، وظلوا بصحة جيدة ومقبولة حتى اضطر زوجي الرجوع للعيش ثانية في الأردن، بسبب مشكلة احتلال الكويت وبسبب ظروفه الصحية، حيث لم يعد قادرا على مواصله عمله الشاق، وكبر ثلاثة من اولاده، وصار كل منهم بإمكانه الاهتمام بنفسه وبحياته وبمصاريفه، لكن بقي تحت ادارتي ثلاثة منهم، سرعان ما كبر اثنان، وبقي الأخير يعيش معنا، حيث كبرت ابنتاي وابني، لم يقصر أولاد زوجي بوالدهم، فكانوا يساعدونه قدر امكانياتهم، لكن اقاربه قدروا مرضه وعجزه، وظل شقيقه يدعمه براتب شهري يكفينا ويضمن لنا حياة متوسطة في الأردن، أو أقل قليلا من المتوسطة، لكن بعيدا عن الفقر، إذ كنا نجد طعامنا اليومي وندفع أجرة الشقة التي نستأجرها دون معاناة ولا مشاكل تذكر. بدأ أولاد زوجي بعدها بالزواج، فتزوج الأول وانفصل عنا، وتبعه الثاني بعد ثلاث سنوات، وانفصل ثم الثالث فالرابع، كان ابني مسامح اثناءها يكبر، وزوجي يزداد عجزا وتتحكم به الأمراض، وكلما تزوج أحد اولاده، نقص دخلنا وقلت مواردنا، مكتفين بالدخل الشهري الذي يدعم الأهل به زوجي، تقديرا لجهوده ومساعداته السابقة لاثنين من اقرب الناس له.

لم تمض حياتي في عمان بسهولة ويسر، وحصلت الكثير من المفاجآت والمفارقات، اعتدت على احتضان أبناء زوجي ثم وانفصالهم، وفي الوقت نفسه، بدأ حنان زوجي المريض وحرصه علي يتناقص، وأنا اتوق كثيرا لأحضانه والتحدث إليه او الالتصاق به، فكنت أعوض الكثير من الحرمان الذي صرت أعانيه بعد عجز زوجي، إما بالالتصاق والمزاح مع اولاد زوجي ببراءة، أو بالبحث عن فرص أخرى خارج البيت، لكن الأمر لم يكن سهلا عليّ، بسبب وجودي في حي محافظ، وعدم معرفتي جيدا بمدينة عمان وأحيائها والسكان، والكل يراقب الكل، كان موقعنا في حي مزدحم وعامر بالسكان، وليس من السهل إخفاء اي علاقة كما كان يحدث في بلاد الغربة، فكل شخص غريب سيدخل البيت سيثير التساؤلات من الجيران، وكلهم فضول لمعرفة من الزائر، وسبب الزيارة، وأما اختيار البديل خارج البيت، فإبني الطفل مسامح كان مرافقي في أي مكان اتحرك اليه، وهو الطفل الذكر الوحيد الذي رزقت به من زوجي الثاني، أعزه واعتبره مستقبلي ورصيدي الوحيد، فلم ينفعني اخ ولا أهل ولا ابناء زوجي، كان ابني العزيز مسامح متعلقا بي بشكل كبير، وأنا متعلقة به ولا أطيق الابتعاد عنه دقيقة واحدة، فهذا حد من وقوعي فريسة لمن كانوا يحاولون الظفر بي، إذ لم أسع بنفسي إلى الحرام ومخالفة الأدب والدين، ولكن جاذبية جسمي وطولي االجميل والمستقيم، كما ظل الناس يقولون، خطف أنظار الرجال المحرومين الفقراء منهم والأغنياء، وسعى كثيرون لكسب ودي وصداقتي، لم أفكر يوما ما أن أكون سهلة ولا رخيصة بعد زواجي الثاني، ولم أشأ أن أكون سهلة المنال، نعم إن تزايد طلبات ابني من الألعاب واللباس الحديث اضطرتني للتواصل والمزاح مع بعضهم، وقد ظفرت بما يلزمني من المال من مثل هذه المداعبات، وربما يصل الأمر إلى اللمس والاقتراب من جسدي، لكن ابني عاش مدللا، ومعظم طلباته ملباة ، كأبن أي عائلة متوسطة الدخل، ولعدم وجود سيارة عند زوجي، فإن اضطراري للتنقل في المواصلات العامة او ماشية منحني الكثير من الحرية.

تذكرت مفارقة حصلت معي في عمان،إذ كنت انام على فراش ارضي وقتها، مراعاة لابني مسامح الذي اعتاد على الالتصاق بي طول الليل، وكذلك انا كنت لا اطيق الابتعاد عنه فهو وحيدي، ولا أمل لي في هذه الحياة إلا إتقان تربية ذلك الطفل، اعتاد أحد أبناء زوجي النوم على فراش مستقل بجانب أخيه الصغير، وأحيانا يلتصق بي ليلا منذ طفولته، تقليداً لأخيه الصغير ابني،وحين وصل سن المراهقة ثلاثة عشر او اربعة عشر عاما، أصرّ على مواصلة النوم بجواري، اعتدت أن أنامبملابس النوم الصيفية التي تكشف الكثير من جسدي وصدري وساقي، فوجئت به مرة يلتصق بي ويمد يده على صدري وبين فخذي، تظاهرت في البداية بالنوم وعدم الإحساس، فإذا به يتمادى في إتمام الأمر، مددت يدي فإذا هو على استعداد ليبدأ بممارسة الجنس معي وأنا نائمة، بالتصاقه بي من الخلف، فكرت بأنه لو تم ذلك هذه المرة قد تسبب لي الحمل، وسيعتاد على ذلك، وتكون فضيحة وإحراجا لي مادام يعيش معنا، وخاصة وأن زوجي لم يعد يقوى على ممارسة الجنس منذ اكثر من خمس سنوات وقتها، فصحوت وأنبته وطلبت منه ان يغير مكان نومه بعيدا عني، لكنه صار يصيح ويعارض ويصر على البقاء بجانبي، تدخل والده المريض جدا، وأقنعه بأن يهدأ ويسمع كلامي، أنبه وأفهمه انه صار كبيرا، ومن العيب ان يداوم على الإحساس بأنه طفل، وعليه ان لا يقلد اخاه الطفل إبن ست سنوات، ومع هذا خرج من البيت بعد منتصف الليل، وصار يصرخ ويصيح ويسب، تنبه الجيران وصحوا على صوته، وتقدم بعضهم يسأل عن الظلم الذي لحق بالولد المراهق، وكان من الصعب التصريح بسبب المشكلة ، ويصعب إقناع الناس بقبول وجهة نظر أخرى، لأننا لم نكشف الصدق عن سبب صراخه والمه وصياحه، فتقدم منه أخوه، الأكبر، ومعه عصا طويلة، يهدده بها، ولكنه مد يده إلى جيبه وناوله دينارا ورقيا كاملا، شدد قبضته على الدينار وخرس وقتها، كان الدينار له اهمية بالنسبة لمراهق لا يعمل، ثبت في ذهني أن علينا أن نحاول أن نجعل الحياة أسهل وممكنة بطريقة ما، فكل إنسان معرض للإسكات أو الترضية او القهر أوالقتل، وفي الختام المفروض فينا بعدها أن نقول كلمتنا أو نفعل شيئا يرضيناعلى الأقل، ونواصل المسير، لنرى ما سيحصل بعد ذلك.

ومن المضايقات التي كانت تؤلمني نفسيا وعقليا وجسمانياً، كنت أتألم كثيرا، حين اسمع صوت كنتي تغنج لابني مسامح، وبتبجح مقصود ربما، ولا أدري اهي منسجمة فعلا معه، او تقصد ان تغيظني، لعلي انفصل عن ابني، وكنت أحسّ بنفور شديد من مثل هذا الموقف بسبب ما فرض علي في طفولتي، وأهم ما كان يهيجني ان ظروف حياتي كلها وبرغم كل خبرتي، لم أجد مجالا كافيا للحظات سعادة حقيقية،ولم يسبق أن صرحت عن رضاي وحبي في ممارسة الجنس مع الغريب او الزوج، لقد عشت مع زوجين مددا طويلة، ووقعت تحت سلطة من استغلوا جسدي، أو ممن اكتسبوا رضاي، بل وجدت نفسي رهن تصرفاتهم ورغباتهم، لكن شبه محرم عليّ ان أبدي سعادتي وأظهر استمتاعي باللذة حين أعيشها.

**الفصـــل الرابع والعشرون**

طلبنا من الحاجة أم مسامح أن تعقد لنا عن مقارنة بين وضعها الآن مستقرة في بلدنا الحبيب الأردن وبين حياتها ايام زمان في المخيم ثم الغربة في الكويت، تتجهم ام مسامح وكادت تعبس، لكنها سرعان ما ابتسمت محتارة، تنهض بنشاط غير معهود، وتسير بدلال في صالة بيتها الواسعة، وتقول وهي مدبرة، جاء وقت الشاي بالنعناع، تدخل مطبخها، ونسمع قرقعة فناجين وصنبور الماء يجري، كانت شعلة الولاعة عالية نوعا ما، وليست مثل ولاعات سجاير الدخان، النار لها هسيس تحت إبريق غلي الماء، تعود مبطئة تتهادى، تمش الهوينا، وكأنها في حالة سعادة او سكر او انسجام، ويظهر انها بحركاتها المدروسة وكأنها كانت تجهز كلاما يرضيها، ويكشف عن بعض مشاعرها:

- ماذا تريدون مني أن أقول جوابا على تساؤلك؟ولماذا هذا السؤال اولا، اليس في كل ما ذكرنا ما يكفي لمعرفة معظم ما مر بي؟؟ وهل نقدر ان نقول كل شيء؟ او هل باستطاعتنا وخاصة نحن النساء أن نغير العالم من حولنا؟ أو هل بإمكاننا أن نكون صريحين صادقين مائة في المائة لنكشف كل طرق حياتنا؟ يبدو لي مما مرّ أن كل شيء مفروض علينا، ومالنا حيلة إلا أن نقبل بما قسم لنا، وأن نسكت او نخضع ونركع.. . الهجرة والصهاينة والمتصهينون العرب والمستغلون والزعماء والمشايخ لم يتركوا لأحد مجالا كي يتنفس العامة بشكل طبيعي؟ إذا كان الرجال قد خضعوا واحتملوا وبلعوا السكاكين والمنغصات وسكتوا، فماذا تتوقعون من الأنثى؟ لكن نقول لكم،. . . لولا الهجرة لما صار ما صارلسمحة وأمثالها الكثيرات جدا في الأردن ولا في فلسطين، كل شيء في الأردن تغير بعد مشاركة الفلسطينيين للأردنيين في أرضهم ومعيشتهم، كان الناس في الأردن عرباً خلوقين وكرماء، ويتحلى غالبيتهم بالشهامة والوفاء والشرف، لكن. . . . . لكن بعد ما استقر نفاذ الخازوق، وضاعت بلادنا بلا رجعة، خربت أخلاق الناس ،(صار كل إنسان يحوش النار على قرصه) كما يقول المثل، أي يحاول أن يسابق أو يكسب من الآخر، ولكي يقفز على ظهر غيره، وبسبب الفقر والعوز اضطرت بعض النساء للرضوخ لرغبة الطامع والمفسد، ولا نستطيع ان ننسى أن الكثيرين صاروا يتهمون كل بنات فلسطين أنهن قليلات شرف، ناسين أن النفوس المريضة والفساد الأخلاقي للرجل،والحاجة دائما هي التي تضطرأي مرأة فلسطينية كانت او غيرها لمخالفة التقاليد والمألوف.

سمعت انه عندما كانت تتوظف أي بنت أو امرأة او تطلب الوظيفة، فإن أول ما يفكر المدير او أحد الموظفين، أن الفرصة بعثت لهم ركوبة، وسرعان ما يصيربعضهم يحوم حواليها، قلت مرة مازحة لإحدى البنات المتخوفات من قبول الوظيفة: (يحبون اللحم الأبيض، ولا يهمك انتِ سمراء، اغتنمي الفرصة روحي لوظيفتك يابنت) وإذا حافظت البنت على شرفها وصمدت، سيعيبون عليها بأي شيء، ليتخلصوا منها، وبعض الكبار يحاولون تخريب اخلاق الناس، والخربان ممكن يخرب بلد، (والحبة المسوّسة لو تركت سينتقل التسوس لكل خزين الحبوب).

تتنهد ام مسامح، تنهض بتثاقل وتتجه صوب باب الشقة تفتحه، وتطل على الفراغ الغربي، صوب فلسطين، تقول إن الساعة صارت الرابعة عصرا تقريبا، اشغلني الكلام عن صلاة العصر، ثم تكمل الله ما أجمل الطبيعة البعيدة، كم أحب الرحلات وتسلق الجبال السهلة، والجلوس تحت الأشجار، نأكل ما نحمل من خفيف الطعام، مع كاسات من الشاي، تتبعها قهوة السادة الأردنية، لا أريد أن أنسى الماء على النار، سأعد الشاي، أشعر بجفاف في فمي.

تعود ام مسامح بعد دقيقتين تحمل صينية كبيرة عليها إبريق شاي مزخرف يغلب اللون الأرزق عليه، وثلاثة فناجين زجاجية شفافة بزخرفات ذهبية عليها، تجلس وكأنها عادت من عمل صعب ومرهق، تنهدت ثانية، وقبل ان تمتد يدها لتسكب الشاي، تقول

- ياديرتي مالك علينا لوم، احنا النساء بشكل عام مطية في البلاد العربية، هدف لمن يفهم ولمن هم دون فهم، يمكن بنات اليوم افصح قليلا، لكنها فصاحة على همالة واستغلال، ايام شبابي إذا انجبرت البنت تخون، تحاول التوبة، وتلعن الشيطان، وتلعن السبب، أو تتستر، لكن بنات اليوم يا أخونا يقلدن الاوربيات، فحين تلوم صديقة صديقتها او تعاتبها والدتها، تقول البنت، ما الذي ينقص من البنت أو يتغير لو راحت خفية مع شاب غير زوجها؟؟ يا بتكسب فلوس يا بتكسب وقت حلو، ومش رايحة تخسر اشي ولن يظهر أي تغير في جسمها، ولا يظهر عليها انها عملت شيء غلط، وجسمها سيظل جسمها وكما كان من قبل وسيظل، لا بل قد تسعد زوجها اكثر حتى يزداد اعجابه بها، وتظل حريتها حسب ظروفها، هذا إن كانت متزوجة، اما البنت فسمعنا عنهن يقلن، وكيف سيعرف زوج المستقبل انني كيفت واستمتعت بالحياة وبالأوقات الجميلة مع أصدقائي واحبائي؟ الزمن تغير، والشباب لم يعودوا يهتمون بشيء اسمه بكارة، المهم عندهم هو التمتع، والبنت حين تسعد وتقضي اوقاتا جميلة خارج بيت اهلها، ماذا تخسر؟ هل ينقص جسمها او وزنها، او تظهر علامات فارقة على وجهها؟ ويكفي ولا حاجة بنا لنكمل هذا الموضوع.

كل شيء في البلد صار تقليداً، اول ما بتفتح البنت عينيها بدها تلفون، لماذا؟ قال مشان تسأل المعلمة او صديقتها عن واجباتها المدرسية، شو هالحجة المهمة كثير، ثم ماذا أيضا؟ لأن التلفون به منبه، حتى تصحو مبكرة وتروح على المدرسة او الجامعة او الشغل دون تأخير، ودون أن تزعج اهل البيت، وكل من يعرف السبب لا يريد أحداًغيره أن يعرف،عن الترتيبات والمواعيد والغزل، والبلاوي التي يحبكها الشباب والصبايا عبر التلفون مع المعارف والأصدقاء، وياليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، فبعض الشباب يسرقون أهلهم أحيانا ويخونونهم،أو يضطروا أن يتحولوا إلى لصوص وسرسرية، ليشتروا بطاقات أو حتى تلفونات يقدمونها لصديقاتهم من البنات، وبعضهم يشترون لها هاتفاً جديداً، لأجل سواد عيون اللحم الأبيض والحب.

إن الحب نعمة ونقمة يا إبني، سمعت إحداهن تقول، إن الحب لذة تعذبنا ولكننا نستلذ هذا العذاب، لكننني أقول إن الحب له اهله واصوله، والحب الحقيقي لا يتم مع اي واحد أو واحدة، قبل عشرين سنة أو أكثر، كان الحب ممنوعاً وصعباً ونادراً مع الغريب، وكان من شبه المستحيل على الواحدة أن تحب لأجل الحب الحقيقي او تلاقي حبيبها، وهنا أجد أن عليّ أن أكون واضحة، فبالنسبة لي بدل ماكان مطلوبا مني الذهاب للمدرسة، كرهت المدرسة، ففكر اهلي أن يشغلوني حتى لا اظل واقفة في الشارع انظر للشباب، فاختاروا لي الانشغال في البساتين بعيدا عن اللهو والشباب، والمشكلة أن لا أحد عرف ما كان يجرى لي. كنت في الأول اموت خوفا حتى لا يعرف أهلي، وبعد تكرار استغلالي تعودت وصرت انتظرتجدد الحدث، انني لم أفكر يوما بالبحث عن الحرام، لكن الرجال المحتاجين والمستغلين والذين تدور الخيانة في دمائهم وعقولهم ابتلونا، كنت أتخوف منهم في البداية وأنفر منهم وأخشاهم، وطريقة تربيتي في البيت جعلتني غير قادرة على شدة المقاومة بحزم، أو عصيان ما يطلب مني الرجل، لو طمع أحدهم فيّ، وعلى الخصوص في مكان بعيد أو أمين،لأنني تربيت في بيت كلمة الرجل هي المسيطرة على كل ظروف حياة البيت، وعلى الصغير والكبير والذكر والأنثى، لكنني عرفت أنه لا يمكن ان يكون جميع الناس صالحين؟، ولي رغبات مثلي مثل اي بنت او امرأة سواء كانت جاهلة او متعلمة او غنية أو فقيرة، عزباء او متزوجة، المهم أنني لم أطلب ولم أبادر للحب ولا للجنس في يوم ما، وانما كنت دائماً مكرهة وغير راضيةٍ، والذنب على الفاعل، ليس على المفعول به المجبر، ولو اكتشف اهلي امري، فسأكون صادقة حين أقول لهم، إنني لم أفعل ذلك راضية او موافقة، وسأقسم على ذلك.

على كل حال، صرت اعرف الحياة وأستطعم نكهة الاندماج مع التيار، وخاصة حين يكون ملائما وقويا، وصرت أعرف انه لا بد أن اعتمد على نفسي، ولا أنتظر من يتدخل في الأرض التي اسير عليها بحجة انه سيساعدني، بل صرت أصعد الجبال واخترق الوديان سعيا إلى معرفة دروب الحياة واختلاط الألوان فيها، ويا ديرتي مالك علينا لوم، لاتعتبيني. بل لومك على من خان.

أم مسامح سرعان ما تحسّ بالضجر، تحسّ وكأنها تعيش وقتاً مفروضا عليها، وأن لاشيء في حياتها ثابت، تحمل ذكريات طويلة متنوعة، ومؤثرة في كل سلوك او كلام او فكر، تحاول الفضفضة عن نفسها ببعض الاعترافات، لكنها تخفي الكثير من الأحداث، ولهذا نرى تجاعيد الزمن والتنكر بدأت ترتسم على وجهها، وبرغم ما يبدو عليها من قلة اهتمام، او ضحكات احيانا، او الادعاء بأنها غير عابئة بالماضي وبالحياة، إلا أن الخطوط التي تلوح على ملامحها ونظراتها وحركات يديها العصبية بدأت تخون ذلك الجسد الطافح بالحيوية والإصرار على الحياة، ونلحظ تجاعيد صغيرة لا تكاد ترى بنظرة عابرة، حول عينيها فتبدو وكأنها توقفت عن البكاء قبل قليل، وأثناء الشاي، كانت تتلذذ بارتشافه كأنها تمتص أكسير الحياة، تفطن للحديث عن ابنها مسامح في طفولته، فتقول:

كنت أتفقد ابني حين يعود من المدرسة بيدين ملطختين ببقع الحبر، وبالغبار على ملابسه، وبخدوش في ساقيه،أتلمس كل مكان في جسده، وأتوقف عند كل ملاحظة او تغيير أكتشفه فيه، فأسأله كيف حصل ذلك، ولماذا يعود من المدرسة دائما متسخا او مجرحاً، بعدها ألين وأصبح لطيفة معه، وأتذكر انه ابني الوحيد الصالح للحياة، وكأنني أحس بضعف او استسلام له، والطفل يعرف نقاط ضعف والديه، ومخطئ من يظن ان الأطفال بسطاء وساذجون، إنهم انتهازيون أذكياء، يعرفون من اين تؤكل الكتف كما يقول المثل.

كان مسامح الطفل المدلل مهووساً بالألعاب والحرية والحلويات، أتلفه الدلال والمحبة، سرعان ما يطلب من والدته النقود كي يشتري من الدكان القريبة، تلبي والدته طلبه اولا، ثم تتذمر من كثرة طلباته ومصاريفه، لكنها تود لو تستطيع ان تتبعه للبقالة في كل مشوار، فهي تخاف عليه من الأولاد الأشقياء، فهو ولد ناعم مسالم لم يعتد على الهوشات والطوشات، واي ولد اصغر منه في العمر يخيفه، ويستولي على نقوده او ما اشتراه من حلوى، فيعود لبيته ووالدته باكيا حزينا، وحين تعرف والدته سبب بكائه، تناوله ربع دينار أخرى وتطلب من إحدى اولاد الجيران متابعته والمشي معه، واعدة اياه برشوة عندما يعود مسامح للبيت سالما غانما بحلواه وما اشتراه. تسكب كأسا أخرى من الشاي لتشربه، تبتسم فجأة ثم تستدرك قائلة ما أجمل أن يملك الرجل زوجة جميلة ذات جسد دافئ، وما أجمل أن تجد الزوجة رجلا لطيفا دافئ المشاعر، محبا لبيته واسرته، ويتعجل قدوم الليل حتى يعبر عن ذلك الحب.

تشكو أم مسامح من خدر في الساق اليمنى، ربما بسبب ضغط طرف الكنبة عليها كما تقول، فتتمطى، وتحاول تحريك ساقها اليمنى ثم اليسرى، تجد نفسها عاجزة عن الوقوف نوعا ما، لكنها ومع ذلك تضغط على نفسها وتقف، تقول أتعبني ابني في طفولته كثيرا، لم أكن أهدأ ربع ساعة، كان عليّ أن أظل متابعة له وأتفقده حين يخرج للعب مع اولاد الحارة، لكنني كنت افضل بقاءه حولي، ولم أكن يوما راغبة في ابتعاده، لكنه كان يغار من الأطفال الآخرين، وحين يخالفني كنت اهزه بقوة نوعا ما لكنني لا أضربه ولا أعاقبه، ولا أذكر انني سبق وعاقبته بل كان موضع اهتمامي، ومحط نظري أينما اتجه واينما وجد. ولا أنسى ما كنت اقول له، حين اهز جسمه متشبثة به، اقول ألا يكفي ما فعلت؟ ألا يكفيك لعبا وبعدا عن البيت، أريدك ان تدخل لكي تستحم وتستعد للعشاء والنوم حتى تصحو من المدرسة مبكرا مثل كل يوم، ومع هذا ينفض نفسه من بين يدي، ويزداد تمردا، ويرفض كلامي، فأدعو أحد إخوانه غيرالأشقاء للمساعدة في إقناعه أو مراقبته حتى تغرب شمس ذلك اليوم.

**الفصــل الخامس والعشرون**

مريبط

بعد سقوط ضفة الأردن الغربية عام 1967، لم يعد بإمكاننا العيش في منطقة أريحا والغور، رحل أهلي ثانية أو ثالثة لنقيم في عمان، حين كنا نعيش في مخيم عقبة جبر، كان والدي في شهور الصيف يسرح بعيدا عن المنزل لحصد حبوب القمح اوالشعير، فيقيم في تلك الفترة في حسبان او الكرك او مأدبا أو حوران إربد او الغور الشمالي البعيد، لضمان حصاد حبوب القمح والشعير، وفصلها عن القش، وحراستها وتعبئتها في أكياسها، فيغيب شهراً أو أكثر كل صيف، وإخواني يسرحون للعمل في مصانع او محاجر أو مزارع مختلفة او مع والدي، فيعود الجميع مرهقين ينامون فور تناولهم طعام العشاء، حتى تزوجوا، لم يكن عندنا تلفاز في أوائل السبعينات من القرن العشرين، فتنام والدتي بعد صلاة العشاء مباشرة، كنت اقول لشقيقتي سلمى إنني سأزور إحدى صديقاتي، لكن إياك ان تقولي لوالدي او والدتي او احد إخواني أنني خرجت من البيت، ولأنها كانت أصغر مني بسبع سنوات وتعاني من إعاقة حركية في قدم واحدة، فكان لزاما عليها ان تطيع اوامري وتحذيراتيخشية أن أعاقبها.

يمضى على طلاقي من ابن عمي أكثر من سنتين، اعيش عالة على والدي، لم يعد والدي يسمح لي بالعمل مع الغرباء كما كان حالي في طفولتي وسنوات مراهقتي، كنت معتادة على التحدث مع الرجال والشباب خفية أو علناً، كان بعضهم يتعمد المرور من حارتنا، اخرج لكنس الساحة الخارجية في بيت والدي الجديد في عمان، كي يراني صديقي البدوي مريبط، وحين أتلطف عليه بكلمة او بسمة، يشعر انه ملك الدنيا، فيسألني إن كنت بحاجة إلى أي شيء يأتيني به، كنت لا أثقل عليه، فأقول له لا تكلف نفسك، لست بحاجة إلى شيء، الأكل واللباس متوفر عندنا في بيت والدي والحمد لله، لكنه يصر على أن أطلب منه شيئا، كنت حريصة على أن لا يعرف أحد عن علاقتنا وصداقتنا إلا شقيقتي سلمى، جيراننا وسكان حارتنا التي نسكن بها يراقبون كل شخص في الحارة، هكذا هم كل الناس في عمان، يراقبون بعضهم بعضا، وإذا مر غريب او جاء زائر لبيت احد الجيران، يحاول كل الجيران أن يعرفوا عن الضيف، او يسألون حتى يعرفوا سبب مجيئه، كان مريبط يهرب من عمله في البلدية صباحا، أو يحتج انه يريد أن يستطلع إحدى الشكاوى، فيحضر بين العاشرة والحادية عشرة صباحا، كنت أكلمه خطفا، ولكن لم يصدف ان طال حديثنا او وجدنا أنفسنا وحيدين، حضر مرة وصدف أن خرجت والدتي وشقيقتي لزيارة خالتي وقضاء باقي النهار عندها، طلبتا مني مرافقتهما، لكنني رفضت ذلك، وقلت لهما إنني متعبة، واريد أن أرتاح هذا اليوم، تعمدت النوم حتى خرجتا، لأن موعد حضور مريبط كان يقترب في ذلك اليوم، أحضر معه كنافة، وكانت ما تزال ساخنة، والعلبة كانت محكمة الإغلاق، وفيها كيلو ونصف او اكثر، طلب أن يشرب فنجان شاي او قهوة، فسمحت له بدخول منزلنا، كي نأكل الكنافة معا، كانت الكمية كبيرة عليّ، حاولنا الأكل فوق ما نستطيع، لكن زاد ما يقارب ثلثها، لا أستطيع إبقاءها في البيت، طلب مني كأسا كبيرة من القهوة السادة، لم يكن لدينا سادة جاهزة، فبدأت اجهز له قهوة عادية لكن بلا سكر، تبعني للمطبخ، كان متلهفا لي، ويريد الالتصاق والاقتراب، وبينما كنت منشغلة بتجهيز القهوة تقدم واحتضنني وقبلني، حاولت التخلص منه، طمع الرجل وابقى يديه حول خصري، قبلني في وجهي وعلى رقبتي، وانا أحاول النأي والتجنب والتدلل، لكنه كان مصرا وجريئا، أحببت جرأته ورجولته، رفضت إلحاحه، فضغط على خصري ثانية، وبرغم نحوله كانت يداه قويتين، أمسك بيدي الاثنتين في يد، ضمهما وقبلهما بحرارة، واطال التصاقهما بفمه متلذذاً، وامتدت يده الأخرى، مازالت مقاومتي قوية، هددته بالصراخ كي يسمع الجيران، قبل يدي الاثنتين ثانية، لم امكنه من التحكم بي بحركاتي، عض قليلا، فتألمت فهددني إن قاومت سيقطع ما في فمه، كان خوفي شديدا، وفي منزل اهلي، تذكرت ان لا نية ولا امل لعودة أحدهم في مثل ذلك الوقت، نبهته بأن النار ستحرق القهوة، وتحرقنا وتحرق البيت، فأمسك بي وفعلها اناس كثيرون قبله، حاولت التحرك يمينا وشمالا للتخلص من قبضته القوية، وبجرأته ورجولته، وهو يحذرني من أن اخرج اي صوت، أضاف ذلك البدوي البسيط خبرة جديدة لم تحدث مثلها من قبل معي، وبرغم شعوري بالندم والرهبة، أو من طمعه ليلاحقني بعدها، لكنني تمنيت أن يحدث مثل ذلك كل يوم كزوج، لم أشعر أنني خسرت يومها، لأنني مضى علي سنتان بعد طلاقي من ابن عمي، لم أستنشق نكهة الرجال لا برضاي ولا بالإكراه، لأن والدي وإخواني ظلوا حريصين علي، ويحدون من خروجي من المنزل إلا بمصاحبة واحد او واحدة أخرى.

بعدها لم أسمح لمريبط أن يقترب مني في منزلنا، بل كنت اخترع اساليب كثيرة كي التقي به نهارا او مساء في أي مكان بعيد كالصعاليك، قلت له مرات عدة المثل الذي يقول (عوّد كلب ولا تعوّد ابن آدم)، إعتاد ذلك البدوي على غزو هذا الجسد، كم كانت والدتي تتشاءم عندما ترى ذلك الرجل، فهو بشع الوجه، نحيل بملابس غير مرتبة، مع انها نظيفة وجديدة، لكنه لا يحس اختيار المقاس، ولا اللون، فيظهر كأنه استعار تلك الملابس يومها من شخص له جسم اكبر من جسمه في كل المقاييس، سمرته زائدة وبشرة وجهه كرغيف محترق، لكن وسبحان الله عندما تعجبنا عقلية أحدهم ستعجبنا ملامحه مهما كانت، ولا أدري إذا كانت عكس هذه المعادلة صحيحاً، وفي اعتقادي قد ننجذب لحمال وبهاء وجاذبية شخص ما، لكن بعد أن نتعامل معه نكتشف انه دمية او تمثال، تزوره مرة واحدة ثم لا تفكر بعدها بوجوده معك او قريبا منك، وبعد كل تجربة أومغامرة ممنهجة، كنت أستغفر الله وأعلن أنني سأتوب، ألجأ للصلاة والعبادة الزائدة بعد كل مغامرة، وأنحو باللائمة على الرجل في داخلي، فهو المذنب وهو الذي يغزوني ويحضر لي الهدايا والمبالغ النقدية فيزيد من إغوائي.

أكثر ماكان يثير حيرتي، كيف يستطيع أن يعطيني أربعين أو خمسين ديناراً كل شهر؟ وهل كانت الفلوس فعلا هي المؤثر على نفسيتي أو هو مريبط بذكائه وفطنته ولطف حركاته وعنفوانها، هي التي كانت السبب في إعجابي بهذا الإنسان بشع الخلقة، لكنه رجل بكل المعاني والصفات الأخلاقية والنفسية والذكاء، وشجاعته وبلباقة هي التي وافقت هواي، مترافقة بشعوري برغبة الخروج من عالم الظلم الذي مرّ بي، سواء في طفولتي ومراهقتي وبعد تزويجي من ابن عمي الأهبل، صراع ظل يلاحقني حتى هذه اللحظة، شعوربالذنب بعد كل مرة، ولكم عاتبت نفسي وأنّبتها لأنني استسلمت له ورخصت، لكن يظهر أن المال حارق للمبادئ والأخلاق دائماً، أو انني أعيش عمراً فوضويا، لايعكس حياة معظم الناس، ولا ماضي حياتي ولا مستقبلي، لكم كنت أخشى أن يعرف والدي أو إحدى إخواني بمغادرة المنزل للقاء شخص غريب، والأغرب انه كان يعرف أنني من الممكن أن أحمل، فأحضر لي ثلاثة علب حبوب منع الحمل تكفي لثلاثة شهور، قال بعد أن تنتهي سأحضر لك مثلها.

مع أن هذا الأمر ليس مستغربا في عمان، فعمان هي مدينة المتناقضات، مدينة الأسرار والأسحار والأسعار، عمان شعوب وقبائل لا يشبهها مكان آخر في العالم، مدينة فريدة تتميز بصفات تميزها عن كل مدن الدنيا، سترنا الله لشهور طويلة، عندما حل الشتاء اشكو همي لوالدتي وللغيوم، وادعو الله أن ينزل المطر طول السنة حتى لا أفكر بالخروج، أو لمرافقة صديقي الشجاع مريبط، وعند بداية اي شتاء، أبدأ بمعالجة نفسي، لأتخلص من عادة المغامرة بالخروج مع غريب، اعتدت على كل شيء، فالحرمان في حياتي امر طيبعي، والمتعة المجانية تكررت حتى أصبحت مطلبا أحيانا، وليس دائما، لكنها ظلت الجرأة والتمرد على المألوف والممنوع جزءا من شخصيتي، اخاطب نفسي، انني لا أضر احدا، ولا أضر بنفسي، ولست مستعدة لأضر نفسي، لا بل هو جسدي وأنا حرة به، اليس جسدي؟ وجسدي يطلب أشياء كثيرة من طعام وشراب ومتعة وراحة ولباس ورغبات أخرى كثيرة أتنازل عن معظمها، فأتوافق مع مغامرات مريبط أحياناً والبي حاجته، دون أن أتعب احدا أو اسبب ضررا لأي مخلوق.

مريبط برغم بداوته وبساطته يحسن معاملتي، يشعرني بأهميتي وبحبه المفرط لي، أقرأ الشوق في عينيه المستجديتين، فيسرقني، أجد نفسي أنني أحس بضعف أمام ذلك الصغار الذي يبديه، الاستجداء أحيانا يرقق القلوب، فأشفق عليه وأتوق لإراحته، وكأنني أقدم صدقة ووقتا جميلا له تكفيرا عن ذنوب سابقة، بذنوب جديدة، فينسيني المخاطر وكرامة أهلي، يأخذني إلى العمارات والبيوت التي تحت الإنشاء، بسبب خبرته في المدينة وكثرة تجواله، ومرة ناول حارس العمارة دينارين، طلب منه أن يذهب لشراء ساندويتشات لنا وله بدينار كامل، واجرة له بدينار، وماذا نتوقع من امرأة اعتادت على الصعلكة منذ نعومة أظفارها؟ اكتسبت جرأة لكن محسوبة دائماً، لم أكن استغرب مغامرات صديقي وجرأته.

أحيانا كنت أخترع الخروج بحجة زيارة صديقة لي، لا يشك أحد بكلامي بعد أن كبرت، وكوني مطلقة وفي منتصف الثلاثينات من عمري يعتبرونني حريصة وأفهم ما يضرني وما ينفعني، ولن أقبل أن أسيء سمعتي، على أمل ان يزوجوني ثانية، كنت وقتها بأبهى صورة، تكامل جسمي جمالا، وشكلي إغراء، وصرت جذابة جدا في نظر كل الشباب المتزوجين والعزاب، يسمعونني علنا بكلام مدح لطولي واستقامة قامتي، وجمال تناسق جسدي علناً أحيانا، وتلميحا في أحيان أخرى، فيصفون طولي او جمال ملامح وجهي، او انسياب جسمي اوجمال الملابس عليّ، في الليل يترك الناس العمارة غير الجاهزة بلا إضاءة، فلا امل بوجود شخص هناك ليلا، وخاصة في شهور الصيف، لكن مريبط كان يحتفظ بمصباح كهربائي صغير، لكي يساعدنا في التأكد من نظافة المكان وخلوه من الناس والحشرات، يظل للسرقة طعم مختلف ولذيذ، نثبت وجودنا في العمارة غير الناجزة، ويسمونها عظم، وكان يحمل معه سجادة خفيفة في سيارته البكب القديمة، وهي من سيارات إحدى البلديات القريبة من عمان، أخذني مرة إلى مغامرة غير محسوبة في الصحراء الجنوبية الشرقية من عمان، فصعدنا إلى حوض السيارة ولعبنا اكثر من ساعتين، ولحسن حظنا لم يحضر لتلك المنطقة احد يومها، سارت أمورنا على هذه الشاكلة وخلال عامين قبل زواجي الثاني.

وعن طريق المعارف واصدقاء والدي، تعرف زوجي الثاني درويش على والدي، هش له والدي ورحب به، حين عرف ان درويش الرجل الكهل المغترب يخطبني للزواج، ولأنه كان يعمل في دولة عربية بترولية، وافق والدي مبدئيا على الفكرة، حتى يستشيرني، للمرة الأولى والدي يفكر باستشارتي، ربما لأنه صار يشعر بالشيخوخة والتعب من تحمل المسئوليات الكبرى، والعمل والشقاء لأجل كل شيء يهم العائلة، أخبرني بقدوم درويش ليراني، فلم اعارض الفكرة، وتم الزواج وسافرت معه إلى الدولة العربية التي يعمل بها، وكان قد حضر للأردن مع ستة من أطفاله، كان المجال متاحا لي لأعمل في تلك البلد البترولي، لكن كثرة الأطفال في البيت اوقفتني عن البحث عن عمل، تمنيت أن أساعده في تحمل تكاليف تصريف الأسرة الكبيرة، لكن لصغر أعمار أطفاله، وكلهم بحاجة لخدمة وتربية، وفي السنوات التالية حملت ورزقني الله ابنتين وولد واحد هو مسامح.

لم أنس صديقي مريبط الصعلوك مثلي، بل كنت أذكره جيدا، واذكر جرأته وكفاءة ممارساته وحنانه الحميم، لم تكن رغبتي هي الجنس بل أحاسيسة الفطرية والانغماس الكامل في أجواء مرافقتي له، كان يشعرني أنني انثى تستحق الحياة.

زوجي الأول إبن عمي لم يصدف أن أشعرني بأهميتي وإنسانيتي، ليس عن خبث او قصد، بل عن سذاجة وجهل وربما طيبة، كان يشعر انه يؤدي واجبا عليه ويمارس حقه كزوج يحل له أنى شاء، ثم وابن عم، ومعظم من تعامل معي من قبل، كان همه نفسه وحاجته فقط غير عابئ بمشاعري، حتى لو أظهر أحدهم بعض اهتمام بي.

أما صعلوكي مريبط، فكان غير ذلك، ويصعب على سمحة وصف دوافعه، مخلص صادق أمين لدرجة انه يود لو يؤلهني، وزوجي الثاني درويش كان كل همه أن يعيش بقية عمره مستورا، بعد ان صدم بوفاة زوجته في آخر الثلاثينات من عمرها، بعد أن خلفت له ستة أطفال، خلال عشر سنوات قضياها متزوجين، وكان درويش إنسانا بسيطا مسالما، وفيه الكثير من الطيبة والهدوء والصبر على احتمال الأذى، ولأنني قبلت مهمة الأم والزوجة والشغالة لهذه العائلة برغبتي ودون ضغط من والدي، بقيت راضية بالاهتمام بأولاده وتربيتهم، وحتى بعد أن صار عندي ثلاثة أطفال من زوجي الثاني درويش، شعرت بأن أولاده السابقين والذين هم تحت إدارتي، سيكونون عونا لي على تربية أطفالي، لم يعد يخطر ببالي اي رغبة خارجة عن الحلال أو خارج بيت الزوجية، ثم انني لم أفكر يوما أن أسعى للحصول على الجنس، بل اجبرت على ممارسته منذ طفولتي، ودون استشارتي او موافقتي. المهم لم أستطع أن أنسى مريبط طول حياتي وحتى بعد ان ابتعدت عن الأردن ما يقارب ست سنوات، حيث اضطررنا للرجوع لعمان بعد تهجير الفلسطينيين من الكويت بسبب الاحتلال العراقي.

لا أدري كيف عرف مريبط عن مكان إقامتي التي اختلفت ونأت عن موقعها قبل زواجي من درويش، كنت قبلها أعيش مع أسرة والدي، اما بعد عودتنا هاربين مطرودين من الكويت، فكنت في معية زوجي درويش، وفي الشقة الواسعة التي استأجرها لنا شمال عمان، تواصل معي مريبط، لكنني حذرته، ولا أمل في خروجي معه ومن أجله كما كان يحدث في سنوات الطيش قبل زواجي الثاني.

مرت بعدها ثماني سنوات أخرى بعد عودتي لعمان، صار مريبط يحادثني بالهاتف، بعد ان انتشرت الهواتف المحمولة في عمان، فاجأني مرة بعد موت زوجي رحمه الله بأن زارنا في منزلي، وصدف ان كانت كنتي زوجة ابني خارج البيت او في السوق قبل قدومه، لكن اكثر ما ظل يحيرني كيف استدل عليّ ثانية، وكيف تذكرني بعد غياب طويل عن عمان، وحين سألته ابتسم، وقال (هذا سرّ يختص به البدوي) نشرب القهوة معا، ونتذكر ايام زمان، لم يعد نطاطا مثل ايام زمان، لقد شاخ، وضعفت قواه ونظره، لكن الجلوس معه لذيذ، والذكريات ملأتنا شوقا ونشاطا ومرحاً وسعادة يومها، ودأب على زيارته لي، وحتى مع وجود كنتي ميرا ومعه شيء من طعام مثل الكباب او حلوى او فواكه، يجلس ساعة او أقل، يشرب القهوة والشاي، وقد يتناول الفطور معي أو ما تيسر لطعام الغداء، كان يعجبه أكلي، وهو الشيء الذي أختص به وأتقنه، فطبخي مميز في حارتنا، وتمدحه كل النساء ويحببن الأكل من طبيخي، يغادرنا بعدها مرتاحاً سعيدا، ولم نعد نفكر في مخالفة الشرف والتقاليد، ونسينا مطالب الجسد، ولهذا كنت أشعر براحة ضمير أثناء وجوده، وأشعر بحلاوة الصداقة النظيفة، وحلاوة الوقت الذي نكرسه للمذاكرة والعتاب وللحب العذري البريء، آه لكم عاتبت هذه النفس بعد كل زيارة بريئة يقوم بها العجوز مريبط لي، كنت أحسّ بجمال الحياة البريئة النظيفة، وطعم الصداقة والإخلاص، أشعر بســعادة ورضا عن نفسي وعن يومي لأننا نحب بعضنا، ولا مطمع لنا في أجسادنا، بل هو التقارب والحاجة النفسية لإشباع ذلك الشوق الدافق بين أضلعنا كلانا، ننسى أنفسنا خلال زيارته التي لا تطول أكثر من ساعة أو ساعتين على الأكثر، فنحس أننا محلقين في أجواء علوية طاهرة، نرفرف كطيرين التقيا فجأة وتوافقا على رحلة قصيرة في غابة غناء.

**الفصــــــــــــــل السادس والعشرون**

استأجرنا شقة واسعة في الطابق الثاني من عمارة متوسطة الحجم، بعد عودتنا للعيش في عمان من الكويت عام 1991، أكره الوحدة والعزلة، بدأت محاولات التحدث مع جاراتي والتعرف عليهن، لأنني عدت لبلدي ولذكرياتي فيها بشوق كبير، زوجي درويش كان مرهقا حزينا على فراق الكويت ومصالحه المادية فيها، كان له أصدقاء ومعارف كثيرون من أبناء البلد الأصليين، ومن جنسيات عربية وأجنبية كثيرة، ظل هادئا صابرا صامتا اغلب وقته، لا يتكلم إلا لماماً، ونادرا ما يتحدث معنا ومع اولاده، إلا لضروريات أو بإلحاج مني او من ابنه مسامح الذي ازداد تعلقه به كثيرا، حتى أنه كان يحب ان يبقي الطفل في حضنه، ويشتري له كل مايشتهيه، فتعلق الطفل إبن الثلاث سنوات بوالده درويش، وصار معادلا موضوعيا لقبوله الحياة الجديدة في عمان، مهدئا ومسكناً.

صرت أتقرب من الجارات، حتى اتعرف على شئونهن، هل هي متشابهة مع أحوالنا أو مختلفة، أو لعلّي أكتشف بعض أسرار الزوجات والصبايا، كنت اتوقف طويلا امام باب الشقة او النافذة أراقب كل جارة أثناء غياب أزواجهن في العمل وفي ساعات ما قبل الظهر، اكتشفت القليل من الأسرار بالمراقبة عن بعد، شاهدت رجالا غرباء يزورون بعضهن بين العاشرة صباحا، والثانية عشرة ظهرا، فأسأل السيدة برفق ولطف ولباقة حين نلتقي عن الرجل الذي دخل عندهم، كنت أحرص على أن لا أظهر نفسي أنني أتجسس أريد أن أعرف كل شيء، فإن لجأت للف والدوران، لا أتشدد أغير الموضوع، وأنسى سؤالي، ففي أغلب الحالات يقلن إنه قريب زوجها، واخرى تقول انه ابن خالتها، وثالثة قالت إنه مصلح كهربائي، ورابعة قالت إنه نجار، ارادته ان يكشف على خزانة يلزمها تصليح.

أما من دخلت مزاجي منهنّ كانت صادقة معي حقا، فهي امرأة شقراء، ممتلئة الجسم، ضحوكة، تقربت منها حتى صرنا صديقتين بحق، صرنا نصارح بعضنا ونتطرق لبعض ما جرى لنا، كانت جريئة لا تهتم بشخص زوجها ولا تخشاه، نلتقي كل يوم تقريبا إما في منزلها أو في منزلي.

وفي أحد الأيام وبعد العاشرة والنصف صباحاً، سمعت صياح طفل، شككت بالأمر، أطللت من النافذة فإذا بجارتي تعاقب ابنها بالضرب، خرجت اعرف سبب ضربها له، فقالت إنه يصيح ويرفض أن يذهب للعب مع الأطفال، وحين اقتربت تجرأت بدخول بيتها دون استئذان، فشاهدت رجلا يجلس في غرفة الضيوف، فرجعت، والغيت دخولي عندها، لكنني سألتها لمرة واحدة عن الرجل الغريب في بيتها، فابتسمت في البداية، وحين الححت عليها، ضحكت وقالت لي، يعني لازم تعرفي، ألا يكفي انك شاهدت الرجل، عرفت انه صديقها يعرف انها تحب المكسرات وأشكال الكعك المختلفة، يحضر لها في كل زيارة بنوع من تلك الأشكال والحلويات، ولسوء حظها أن زوجها بدخله المتواضع، لا يمكنه شراء مثل تلك السلع التي تكاد تكون مقصورة على الأغنياء في عمان، أنعم انا وابني من هذه الحلوى، إذ لم تكن تجرؤ على إبقاء شيء مما يأتي به صديقها، حتى لا يسألها زوجها كيف حصلت على ذلك، إلا ماكان مالحا، فتقول له أنها أخذتها مني، ربما تبقي جزءا بسيطا من الهدية مرة في الشهر، بحجة أن الجارة أرسلت لها ذلك، دعتني مرة لزيارتها بعد الواحدة ظهرا، تحدثنا وشربنا القهوة ثم استأذنتها للعودة لبيتي لمساعدة أطفال زوجي الثلاثة الذين ما زالوا دون الخامسة عشرة، وقبل مغادرتي طلبت مني الانتظار لدقيقة، فإذا بها تقدم لي علبة كاملة فيها معمول وغريبة هدية لأسرتي الكبيرة، حاولت ان لا آخذها، لكنها اصرت فقبلتها بعد أن غمزتني دون كلام.

صار ابني الوحيد يكبر شيئا فشيئا، استفدت كثيرا من وجود إخوانه الستة اكبر منه، حتى يتعلم منهم الرجولة والمحافظة على نفسه ودراسته، ولحمايته من الأولاد الأشقياء لو اعتدى أحدهم عليه، اثناء لعبه في الشارع قرب شقتنا، أولاد زوجي يحترمونني ويخشون غضبي فيهتمون بأخيهم ابني اكثر مما أتوقع، مع أنه أشقاني كثيرا في تربيته، لأنه كان مدلللا جدا، وطلباته كثيرة، وكم وقعت في حرج بسبب نظرات إخوانه غير الأشقاء، لأنني ألبي له طلباته، إذ لم يكن متاحاً لهم مثل هذا الحق، وبعد أن بدأت الأمراض تهاجم زوجي درويش، ولم يعد يقوى على العمل صارت إمكانياتنا المادية تضيق يوما بعد يوم، ويكبر ابني مسامح قليلا قليلا وكما يقول المثل الشعبي كل شبر بنذر، وصرنا ننسى النعمة التي كنا نهنأ بها في الفترة التي قضيتها مع زوجي درويش في الكويت، فنفعنا القليل من التوفير الذي استطاع زوجي توفيره من عمله هناك، وبدأ ابناء زوجي يكبرون ويجدوا أعمالا او وظائف تعيلهم، وقد يساهم أحدهم في دعم والدهم، او دفع فاتورة الكهرباء، او فاتورة الماء، مرت السنوات بسرعة بعد أن بدأ المرض يشتد على زوجي درويش او بعد وفاته رحمه الله

يكبر ابني مسامح واشتد عوده، لكنه لم ينجح في امتحان الشهادة الثانوية وللأسف، حزنت كثيراً حين شاهدت وسمعت زغاريد الفرح وإشعاعات انوار الأفراح في بيوت أهالي الطلاب الناجحين، انطويت على نفسي، ولم أدر بماذا أجيب جاراتي وأهلي، الذين أنحو باللائمة عليّ، فلم أستطع إجابتهم لأن كلامهم ونقدهم كان صحيحا نوعا ما، كان الوضع أول تحد لابني في حياته، وحتى لا يذل او يظهر ضعفه، بدأ يحاول ان يجد له عملا يناسب جسمه المدلل، وياما حذرني الكثيرون، وخاصة الجيران وزوجي درويش، من كثرة تدليل ابني وإطعامه كل ما يشتهي، ومما يشتريه من الدكان دون أن يعارضه أحد، ولم أسلم حتى من انتقاد بعض الغرباء وكل من عرفنا ومن اقاربي واقارب زوجي، لأنني ادلله فوق ما هو مألوف، مما جعل وزنه يزداد فوق المعدل من أمثاله.

في تلك الفترة، عرف صديقي البدوي مريبط عنوان سكني، فصار يمر من الشارع ويتوقف عند باب العمارة التي استأجرنا شقة بها، لكنه بدأ يحادثني ويضحك لي، ثم يضع في يدي خمسة دنانير أو عشرة مرة او مرتين كل شهر، ودون أن يطلب مقابلها اي شيء، كان يردد أمام ابني انه يحترمني كثيرا، ولأننا عشنا في دولة عربية بترولية، فقد اعتدت على الصرف الزائد، والأكل الزائد واللبس الزائد، وكل شيء أحب أن يكون ممتازا وزائدا عن المعقول، فكنت أرحب بالدنانير القليلة التي يضعها مريبط في يدي، ويعصر أصابعي عليها محاولا أن يخفي الأمر عن ابناء زوجي وزوجي والجيران. وفي حالات قليلة، كان يدخل ليسلم على زوجي ويجلس معه ربع ساعة او نصف ساعة ريثما اجهز الشاي لنشربه سويا، وكان يناول ابني نصف دينار، فيقفز طفلي مسامح إلى الدكان ويشتري بها كلها، نعاتبه أنا ووالده على شراء الكثير من الشبيس والشوكولاته والبوظة والتوكس وما شابه من الحلويات التي تعج بها الدكاكين. يشرب مريبط الشاي وسرعان ما يستأذن قائلا، سأذهب إلى عملي ، حتى لو كان الوقت ليلا، يسأله زوجي هل عندك عمل في الليل، فيقول، نعم أكشف على مطاعم او مخابز.

هل أتاك حديث قومي؟ غار أحدهم حين راقبني فوجد أن شخصا زار منزلي في غياب زوجي مرة، وربما استغلوا سذاجة أبناء زوجي وجهلهم بسبب صغر سنهم، وقلة خبرتهم، فاستجوبوا بعضهم، وأخبروهم بأن شخصا يزورنا ويناولني بعض النقود دعما او مساعدة لابني، ولأن زوجي بدأ المرض به، فشكوا أنني أتصرف سوءا خفية عنه، فطنوا لي، لا يتذكرون وينكرون ان كل ماحلّ بي هو بتأثيرهم، نسوا كل أخطائهم ومشاكل بيوتهم وعائلاتهم، ووضعوني نصب أعينهم، وبعضهم من اقرب الناس لي، حتى إن بعضهم روادني عن نفسي مرة، حتى أنه تجرأ قائلا، (ألست انا أبدى من الغريب؟)، لعنته ولعنت الرابطة التي تجمعنا، فاجمعوا امرهم على تجريمي زورا وبهتاناً، هجروني في البداية بعد أن هددوني، لم أعبأ بكل ذلك،لأننا نعيش في بلد آمن كريم، صدف أن تجمعوا واقتربوا من بيتي، لمعاقبتي أو على أمل وجود الزائر الغريب في بيتي، جاءوا من كل حدب وصور، تلاقت عيونهم وتوافقت نواياهم، همهم البعض منهم ولملم، وفي نيته تصرفات خاصة، وآخرون طمعا في جسدي، وبعضهم عنده حقد قديم او بلا حكمة، المهم إن معاداتي جمعتهم هذا اليوم وعلى غير عادة، أهلي ومن لف لفهم لا يتفقون عادة مع بعضهم على خير ولا يتفاهمون، وتدميرهم في تدبيرهم، لهذا نرى القوم في حيرة وخلاف وفقر وهزيمة دائمة، يطمع الغير بهم، ويتحالفون مع أعدائهم ضد بعضهم، فهم دائما خاسرون، أهلي يحزنني حالهم، ادعو الله في سري وفي علني أن يهديهم، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، المهم إن حقدهم الطاغي على بعضهم لحقني، عرف زوجي بطريقة ما عن نياتهم، فأبلغ الأمن بالهاتف عن خطة الشر لإيقاع الأذى بي أو للتخلص مني، زوجي درويش لا يعلم عني شيئا، إنسان طيب نظيف مسالم رقيق، أحبه، نعم أحبه بكل مشاعري، ولا أحسّ بالأمن والسلام إلا في حضوره واحتوائه لي، لكن الشرّ زرع قديم، أوقعتني به معاملة أهلي لي في طفولتي، فوجدت نفسي ضحية استغلالات عدة لا أملك لنفسي نفعا او مناصا منها قبل زواجي من درويش، لا أدري كيف تربصوا بي وعرفوا عني، فلا نرى من قومي إلا خسارا، وجزاؤهم نار على رؤوسهم تحرقهم كل حين، اتفقوا على انني على غير هداهم، وبعد اتصال زوجي بالأمن، حضر رجال أمن متخفين بملابس مدنية، وظلوا مختفين متربصين لعل أحد اقاربي يتقدم صوب البيت، لكن الخائن جبان، ويظهر انهم تنبهوا، ملّ رجال الأمن من المتربصين، وفجأة سمعنا زامور سيارة إنذار تقترب من بيتنا، وحين توقفت، خمدوا وتجمدت حركات بعضهم، هرب أغلبهم، لكن رجال الأمن أمسكوا باثنين منهم، واختفى الباقون كفئران هاجمتها القطط المتربصة بها، وكأن لم يكن هناك أحد.

**الفصـــــل السابع والعشرون**

أشكر الله ثم أشكر جارنا الذي حال دون رغبة ذلك البشع المتهور، بعد وفاة زوجي بأكثر من عامين، كنت في أحسن حال في العام 2004 ، وفي أجمل هيأة يتمناها أي رجل، صحيح انني بلغت السادسة والخمسين من عمري، لكنني كنت بصحة جيدة ولا أشكو أي مرض أو عرض، محافظة على عصمتي، خشية ان يشاع عني سوءا او تتشوه سمعتي، وقد أصبحت أرملة، ثم وإن ابني مقيم معي حتى بعد زواجه، ولكي تظل ابنتاي المراهقتان مطلب الرجال،في الحي الذي أقيم فيه شمال مدينة عمان، حين سمعت طرق الباب فتحته لأواجه رجلاً لا أعرفه، ابتسم وقال إن معه أمانة لي من شخص عزيزعلي، وضع ذاك الرجل البشع خمسين دينارا في يدي، كنت بأمس الحاجة لذلك المبلغ، وهو مبلغ كبير، خجلت أن أتركه خلف الباب، فدعوته لفنجان قهوة، لأعرف من هو ذلك المحسن أو الوفي الذي تفقدنا بهذا المبلغ، استأذنته لأجهز له القهوة، لكنه أصر على أن أجلس بجانبه ليحدثني، ظلت يده تحاول أن تمسك بيدي في منزلي، وابني الذي أصبح عمره اكثر من ثلاثة عشر عاما كان في المدرسة، وخزني ضميري، او كما نقولها بالعامية (توغوشت)، ولا أدري كيف سمحت لرجل غريب بالدخول للمنزل يومها، كنت وحدي في البيت، وابنتاي كانتا في السنتين الأخيرتين من المرحلة الثانوية في المدرسة، أصرّ على أن أقترب للاستماع له، داخلني شك وقتها، لكنني أعرف أن هناك أشخاص كثيرون عرفو عن وفاة زوجي، وهناك احتمال ان يكون أحدهم أرسل هذا المبلغ كصدقة او إعانة، ومع استغرابي للأمر لكن المبلغ أعجبني، وحب الاستطلاع جعلني أهدأ حتى أفهم الحكاية، ابتعدت قليلا، وجلست قبالته، حتى يخبرني من هو ذلك الشخص الذي أرسل لي تلك الأمانة، بعدها ابتسم وقال هل تصدقينني؟ قلت له إن شاء الله سأصدقك إذا أخبرتني الصدق، قال انها من شخص اسمه فلان، وحين ذكر اسمه، تذكرت انه صديقي العزيز مريبط، والذي انتقل في عمله إلى منطقة بعيدة من عمان، حاول مواصلة الإمساك بيدي ثانية، لكنني نفضتها ونهضت لتجهيزالقهوة واجب الضيافة، فأصر على أن ضيافته هو بقائي بجانبه، وصار يسمعني كلاما ناعما، وأخبرني انه معجب بي جدا، ثم قال:

- بقيت أتمنى التحدث معك بعد أن حكى له مريبط عن لطفك وكرمك

ثم أضاف قائلا، إنه كان يراقب حركاتي ومشيي وظهوري امام بيتنا دون علم مني، بدأت أتفهم قصده، ولكن دون أن أشاركه مشاعره، وكأن المطلوب مني أن أعطف عليه، لأنه متيّم ويتحدث لي بتذلل وعشق وشوق جلي، لكنني أقتنعت أن كلامه متصنع، وربما أغوى صديقي الوفي مريبط بطريقة ما، ففجعله يتحدث عن علاقتنا التي ظلت سرية ببراءة، انحني وحاول أن يقبل يدي، بعدها امتدت يده لشعري المنساب الطويل، أحسست بنفور وكراهية له، وصرت أتساءل بيني وبين نفسي، من أين جاء هذا البلاء، وكيف التخلص من هذه الورطة، او كيفية تقديم الشكر له، بدل المبلغ الكبير الذي قدمه لي، لم أضطرب ولم أقلق وأنا في منزلي، وبين سكان آخرين في العمارة نفسها، فقد اعتدت على طمع الرجال بي، وأخذ حاجتهم مني برضاي أو غصباً، شعرت بقليل من تعاطف، لكن سرعان ما نسيت أي حاجة لي، فكنت في وضع وسط بين الإشفاق عليه، وبين عدم قبولي لأسلوبه، ولا أرغب في مشاركته اي مشاعر، فاستبعدت فكرة التجاوب معه بأي شكل من الأشكال، وبعد ان وعى ابني وصار يدرك الأمور، وخاصة في منزلي، فلو كان الموقف في مكان آخر غير بيتي لربما اختلف الأمر، أقول لربما اختلف الأمر.

امتدت اصابعه الحارقة إلى ركبتي، وكنت بملابس البيت المتحررة حين فاجأني بدخول المنزل، لم تكن فاضحة او قصيرة لكنه الثوب كان غير طويل وبنصف كم، وملابس البيت واسعة فضفاضة، أهاجني نوعا ما، دفعته ورفضت تطاوله هذا، وقلت له تريد ان تشتري شرفي بمبلغ خمسين دينارا، أخرج من بيتي، وأرد لك مالك، هدأ قليلا، اعتدل في جلسته واعتذر، وقال لم اقصد أن أزعجك او اغضبك، فلا تغضبي، واعتبريني اخا او صديقا او حبيبا لا هدف لي إلا رضاك، قلت له الصديق والأخ لا يفعل مثل ما تفعل، فلا تضطرني لمعاداتك وطردك من منزلي، إعتذر ثانية وصار يقبل يدي وأصابعي، ثم انحنى وعرض عليّ أن يقبل قدمي، كأنه طفل او متسول يستجدي المال او الرحمة، أشفقت عليه وهدأت قليلا، وبدأت افكر بطريقة أفضل لتقليل خيبة أمله، وإذ بجرس البيت يدق، وبالباب الذي أبقيته نصف فتحة ينفرج ببطء، ويطل جارنا صاحب العمارة، دعوته للدخول، فلم يقبل الدخول في البداية حين شاهد الرجل، فلفت انتباهي إلى أن خزان الماء قد امتلأ، وبدأت الماء تفيض على سطح المنزل، ابتسمت ودعوته لتناول الشاي معنا، وقدمت الرجل الضيف لجارنا، قائلة إن الرجل يسأل عن شقة لاستئجارها لابنه الذي ينوي تزويجه، قمت وجهزت الشاي، شرب كل منا كأسا، وقدمت لجارنا صاحب الشقة، ايجار الشهر وقدره ستون ديناراً، مستخدما الخمسين التي كانت مخبأة في صدري، أسفل ساندة ثديي، وحين نهض جارنا خارجاً، قلت لكليهما، حان موعد ذهابي لتعزية جارة قريبة حسب اتفاق مسبق بيننا، ومع مغادرة جارنا يغادر الزائر منزلنا، وسألني إن كنت أريد أي خدمة للمنزل، حتى لا يعرف جارنا سبب زيارته، فقلت له سنقوم بدهان الشقة بعد شهر او شهرين. فرحب بالفكرة وقال إنه مستعد للقيام بهذا العمل.يدخل ابني من المدرسة وقتها ويلقي حقيبة المدرسة بعيدا، ويستأذنني ليذهب لمنزل الجيران كي يلعب مع ابنهم.

لأول مرة أتعفف وأنجح في حماية نفسي وصيانة هذا الشرف المضحك المبكي من أن يحتله غريب مقابل المال، تباهيت بتصرفي وسلوكي، وارتفعت معنوياتي يومها، مع انني لم أبع شرفي بالمال يوما ما، وكل ما حدث كان عفويا وطارئا، سواء بالإكراه او بالإعجاب، الشرف والمحبة لا يمكن أن تشترى او تباع بالفلوس، دعوت الله مخلصة أن يعينني على أن أظل شريفة مستقلة لا مستغلة، وقادرة على إدارة شئون حياتي دون حاجة لأحد من خلقه، اللهم يسّـــر لي أمري، واشرح لي صدري، وأجعل لي نصيرا من أهلي، يقدرون حاجات حياتي، من الطعام والمسكن والملبس، ليس ذنبي أنني غير متعلمة وإلا كنت سأجد عملا يغطي حاجاتي مثل غيري من النساء المتعلمات.

من واقع خبرتي وتجاربي ومشاهداتي ومن القصص التي سمعتها، وخاصة من السكرتيرات وصغار الموظفات، أن المرأة العربية مداسة الحقوق، حتى بعض ممن درسن وتخرجن ويأكلن ويعشن من عرق الحبين، نعم إنها المرة الأولى التي ستر الله بها هذا الجسد وأخرج رابحة مرتاحة الضمير، ولكن لا أنسى إن الشيطان هوالذي يرافقنا نحن البشر، رجالا ونساء، يوسوس في عقولنا لنفعل الأخطاء والمعاصي، لكن الحظ ساق جارنا ليحضر لينبهني عن هدر الماء على سطح المنزل، وحجة لتذكيري بموعد دفع إيجار الشقة التي نقيم بها، أثناء إبتلائي بذلك الطارق، فكرت في البداية بطرده، لكن ذلك سيكون لافتاً للنظر وبضجة وعليها شهود، وسيثير الكثير من التساؤلات بين الجيران الكثر حولنا، فهداني الله لمعالجة الموقف بصبر وحكمة وتعقل، وببطء، ولكم أحس بثقة بالنفس، وشكر لله، على أنني نجحت في التعفف لوقف استغلال غريب لي، وبرغم فهمي ومعرفتي بالحياة وبالناس، إلا أن اثر الأحداث الماضية، جعلت من شخصيتي ضعيفة في بعض المواقف.

إن أهم ما أحرص عليه هو الستر والتغطية، وللعلم فقد نججت في كل ما مر بي وسترني الله، لهذا أشعر برضى وكفاءة حديدية هذه الأيام، برغم وحدتي ووحشتي بعد وفاة زوجي الذي أحببته، وأذكر دائما ان الله عوضني خيرا بأن رزقني زوجا صديقا احبه وأحصل على ما يلزمني نوعا ما، وما يطلبه جسدي بالحلال والرضا والصدق، ولهذا شعرت أن الله عوضني خيرا، بدل مواقف الهزيمة التي خسرت فيها قبل ذلك، وبزواجي الثاني أحسست ان الحياة جميلة وتستحق ان نحياها، لأنني طبقت الصدق فيها والإخلاص والأمانة والوفاء، وها أنا احرص على صيانة شرفي،حتى بعد ترملي، ربما إن المسألة اكبر مني ومن أي امرأة أخرى، إذ لولا نكبة فلسطين والهجرة، ولولا غدر بريطانيا وابتلاؤنا بالصهاينة وهزيمتنا عام 1948 ثم وعام 1967، لما حدث كل ذلك، سواء ماحدث لي، او ما حدث لغيري من المتاعب والمصاعب والعواقب، لعن الله بريطانيا ووعدها المشئوم الظالم، تدخلوا فيما لا يعنيهم، بلادنا لنا، فكيف يحق لهم ان يمنحوها لغرباء مجرمين لا يخافون الله، ولا يعرفون السلام والحاجات الإنسانية الأساسية. ويظهرأن الهزيمة تخلف هزائم وخسارات كثيرة متوالية.

لكم تمنيت أن يطيل الله عمر زوجي درويش، حتى بعد ان عجز عن المناورة مع جسدي، إذ إن التصاقه بي وأنفاسه ولمساته كانت تكفيني، وتعطيني الشعور بالأمان ومتعة تكفيني، وبعد أن بدأت الأمراض تقوى عليه، شعرت بالاكتفاء والقناعة من وجوده في حياتي، ولم يعد يخطر ببالي اي مخالفة للشرف والعفة، صرت أحسّ أن جسدي لا يتطلب اي مخلوق يقترب منه إلا زوجي العزيز، إن وجوده يملأ حياتي قناعة وأمناً، وكثيرا ما صليت لأجله ودعوت الله أن يشفيه، حتى أظل مرتاحة متفرغة له ولتربية أطفالنا الثلاثة ومواصلة تعليمهم وتزويجهم وتأمين حياة صحيحة مناسبة لهم.

كانت روحي تتشبع حبا وقناعة، لأظل ظلاًّ وداعمة لذلك الإنسان النبيل، ولكم كنت ازداد سعادة حين أحسّ أن زوجي سعيد بوجودي في حياته، وحين التصق به واحقق له الكثير من المتعة، وحسب اعتقاد سمحة، إن اي امرأة يمكن أن تقنع بالقليل القليل، حين تجد نفسها في المكان المناسب ومع الشخص المناسب، وتصبح الحياة وإطالتها هدفا لكليهما، لأنهما يريان الحاضر والمستقبل بنفس النظرات وبنفس الأهداف وبتلاقيها، واليوم أصدق الحكمة التي تقول، لا تعرف من أين يأتيك الرزق ولا متى؟ وبدوري أقول سبحان مقسم الأرزاق ولا ينسى من فضله أحد، ورزق اليوم كان بلا مقابل، لكن لم أنس المثل الشعبي القائل، (رزق المهابيل على حساب المجانين).

**الفصــــــــل الثامن والعشرون**

بعدما طفح الكيل، ونضجت كما يقولون، صرت أمل من الحياة مع زوجي ابن عمي جفال، صرت أفكر بعمل ما، لكي أرتاح، أو يتغير نمط حياتي، فابني المعوق ظل يضطرني البقاء في البيت طويلا، حتى يكبر، وعلى أمل أن يصير قادرا على المشي ووضوح النطق، أرسلناه لمدرسة المعوقين التابعة لوكالة غوث اللاجئين، صحيح خفف عني قليلا، وجعلني أهتم بابنتي اللتين جاءتا متأخرتين الأولى بعد أربعة أعوام من ولادة الإبن، والثانية بعدها بعامين، مع كمال صحتي وطولي الجميل، إلا أنني لست مكثرة في الحمل حتى دون أدوية منع الحمل، وفي الواقع لم أكن أعرف حبوب منع الحمل في تلك المرحلة من إقامتنا في المخيم، مع انني كنت أسمع أنهم يقدمونها لكل سيدة تطلبها في عيادات وكالة الغوث الدولية، والنساء في المخيم وكل مكان تواجد فيه الفلسطينيون، ييتحدثون عن رغبة العالم في أن لا يتكاثر المهاجرون المليون فلسطيني بسرعة، وحتى مع استجابة بعض النساء المدنيات لهذه الرغبة، إلا أن تزايد اللاجئين ظل فوق المعدل العالمي، بعد حملي الثالث واضطراري للجلوس والهدوء، تأصلت في عادة استدراج النساء الشابات وكبار السن لتشجيعهن للتحدث عن ماضيهن، ومغامراتهن في سني المراهقة وبعد الزواج.

لقد عرفت الكثير الكثير مما يصعب ذكره وتكراره، لكن في النتيجة خرجت بفهم لطبيعة المراة، إن المرأة أمهر من الرجل بكثير، صحيح أن الرجال لا يشبعون، يحبون الزواج من اثنتين، او أكثر، او يلاحقون النساء الأخريات الغريبات عنهم، الأبكار والمتزوجات، ويغروهن بكل الوسائل ليقعن في حبهم او يوقعونهن ويهربون من مسئولية ذلك، وكم من رجل اضطر ان يتزوج الفتاة التي غرر بها حتى لا يصاب بمكروه او خشية من أهلها أو للستر على غلطته، وبعضهن بهيئة بشعة وقبيحات، لكن الرجل يضطر للزواج منها إما بحكم قضائي، او خشية من أهلها الذين قد يقتلونه او يقتلونها لتطهير شرف العائلة كما سمعنا في التراث.

أما المراة فهي أعقل من الرجل وأفهم بكثيروأركز، وطبيعة الأنثى أنها أهدأ وأكثر صبرا وتحكما بالنفس من الرجل، مع أن التهمة الدارجة بين الناس تقول أن المرأة بخمس شهوات، والرجل بشهوة واحدة، لكن ما ثبت لي أن المرأة أقوى من الرجل في كل أنواع المشاعر والأحاسيس، ولا يتفوق الرجل عليها إلا بالقوة الجسدية وتحمل المشاق والحروب وشقاوات الزراعة البدائية، لكن الزراعة الحديثة والتي تتم بالالات، سواء للحراثة او الحصاد او الزراعة فلا تتطلب مجهودا عضليا، وأي أمراة يمكنها ان تقود الجرار او الحصادة او ماكينة قطف الزيتون بسهولة، فروح الصبر والتأني والاحتمال عند المرأة تجلعها قادرة على الوصول لمعظم أهدافها لو أرادت.

ولا اعمم او أدعي هنا أن كل النساء يتخذن الأصدقاء، ويخالفن عهد الشرف وخيانة الزوجية، بل أتحدث عن ا لمرأة حين تصمم على أي أمر، وليس خيانة الزوج فقط، إذ إن المرأة حين تضطر وتجد نفسها انها تحت ضغط متواصل، وفقر دائم، وحرمان جسدها أو من معظم ضروريات الحياة، فستجد نفسها تفكر طويلا وتحاول الوصول لشيء من متع الدنيا بذكاء وفطنة ولصوصية متقنة، فمن يظن أن أي امرأة صامتة هادئة راضية بحالها وواقعها المرير، فسيكون تحت السواهي دواهي كما يقولون، والرماد الخامد أسفله جمر حارق، ومعظمهن تنطلي ألعابهن على الزوج والأهل، وقلة ينكشفن، وخاصة اولئك المتعجلات والمتهورات، وبعضهن يتقصدن الانكشاف كانتقام او معارضة لواقعها، لعها تجد لها مخرجا من ورطتها وظلم زوجها لها اواهلها، كي يحصلن على الخلاص والطلاق أو الموت عند اليأس المطبق.

قد يلعنني الكثير من الرجال وكثير من النساء على كل ما فعلت او ذكرت او كشفت، لكن لدي إيمان بالله وبالحياة يجعلني أواصل سرد سيرة حياتي والمفاهيم التي استفدتها من واقع ما مرّ بي، لعلني أنفع امرأة واحدة مظلومة في الحياة على الأقل، وأشعر أنها تنفست الصعداء، ووجدت شفاء نفسيا لها، او عثرت على امرأة مر بها تجارب وشقاء واستغلال مثلها او أكثر منها، فهذا يرضيني حتى لو راقت حكابتي لامرأة واحدة فقط في هذا العالم الواسع الضاجّ بالحركة والتمرد والتقدم وكل أنواع النجاح والفشل.

اكتشفت بعد سنوات اربع من زواج ابني ان البيوت اوعية، والسكان كالماء يتخذون شكل الإناء الذي تحل فيه، وبواقع خبرتي وحرصي على ابني وحياته، اكتشفت ان زوجة ابني عاشقة للرجال، لقد سبق وحذرته ووقفت في وجهه ليغض الطرف عن فتاته تلك قبل الزواج، لكنه اصرّ ولأنه وحيدي اضطررت للسكوت والموافقة، فهل هي لعنة ترافقني؟ فتذكرت أنني سبقته واضطررت للخضوع للغرباء بالرغم عني، فوقع ابني صيدا سهلا لهذه الفتاة اللعوب، كما سبق ووقعت، واليوم زوجة ابني تفعل أمورا لا يعرف عنها ابني، وعلى حسابها تتحرك لفعل الشيء نفسه، هي بلاء يلاحقني، كنت أقع في طفولتي وبداية حياتي مكرهة وبالرغم عني، لكن هذه المرأة التي ابتلينا بها تسعي بنفسها نحو إرضاء جسدها ومعارفها الكثر قبل زواج ابني منها، سامحه الله، المهم ان الفاس وقعت في الراس، ومازال ابني معجب بها، فكيف ستعالج ام مسامح هذه الحالة بمعرفتها وبطول خبرتها، دون أن تسبب الأذى لابنها مسامح؟

أتساءل ماهذا البلاء يا ربي؟ هل التهجير القسري للفلسطينيين خلق تلك الأحداث، هل الهزيمة تنبت أشجارا وأحداثاً تتوالد منها أحداث مبكية ومحزنة ومخزية دائما؟؟؟ والخطأ يلد الخطأ، والشر يلد الشر ويورثه؟، وربما في مواقع مختلفة؟ ليس معي وحدي، او مع كنتي؟ إنها عثرات عائلية كما سمعت من التلفاز.

إن أي خلخلة سلبية في اي شعب واي ثورة تسبب هجرات تترك آثارها على مستقبل وحياة ذلك الشعب، وخاصة الأطفال والمرأة والتعليم والصحة، فوقعت اسوأ الأثار من نكبة فلسطين على المرأة، فكنتي زوجة ابني شابة فلسطينية نشيطة قوية مندفعة وهي من منتجات المخيمات، تغادر البيت بعد العاشرة صباحا في غياب زوجها، تدعي أنها لم تعتد على السجن والمكوث في البيت، وتخرج بحجة أنها تزور صديقة لها لطرد الملل عنها، ولتظل نشيطة محبة لبيتها وزوجها، وهي سرعان ما أنجبت اول طفل لها بعد زواجها بعام تقريبا، لتثبت نفسها في بيتها الجديد، وليزداد زوجها تعلقا بها وحاجة لها، تترك طفلها تحت رعايتي، وعند المساء، تطلب من زوجها ان يحضر بسيارة الشركة التي يعمل بها ليأخذها معه إلى البيت، تنتظره في الشارع العام على بعد مسافة كافية لتضليل الزوج كي لا يتمكن من معرفة موقع صديقتها، وأعتقد بيت صديقها الذي كانت تستمتع بحريتها معه، أحسست بمرارة كبيرة وحقد على هذه الكنة التعيسة، لم يهُن عليّ أن أرى زوجة ابني تخون ابني، ومع اني اضطررت لعمل ذلك من قبل، إلا أنني وجدت أن الأمر فظيع حين نضحت، وعلي أن أفعل شيئا أنقد ابني من مصائب كثيرة متوقعة مستقبلا، فقد يطمع العاشق ويقتل ابني لكي يتخلص منه، أفاجئ ابني مرة فأطلب منه مراقبتها، ما إن نوت الخروج في يوما ما، حتى أخبرت ابني بالهاتف النقال كي يحضر ويدعي أنه مكلف بعمل ما، تطلب زوجته منه أن يوصلها لمنطقة صويلح، حيث منزل صديقتها التي تنوي زيارتها، نزلت من السيارة، وتظاهر بأنه غادرها لكنه ابتعد قليلا ووقف خلف عمارة قريبة من المكان الذي نزلت فيه، ثم مشى بنفسه يتتبعها، حتى وصلت للبيت الذي دخلته، تحرى عن أصحاب البيت، فعرف أنه اعزب، لأن زوجته مطلقة وهو موظف في إحدى دوائر وزارة الداخلية، لم يجرؤ ابني على استدعائها للعودة لبيتها وقتها، بل كشفها وضمر خطة لفضحها في وقت أفضل، وبعدها بأسبوع ربما، أخبرته برغبتها بالخروج لزيارة صديقتها المزعومة في صويلح، وحين خرجت من بيت الرجل صديقها، وجدت زوجها بانتظارها عند باب العمارة التي يقيم فيها عشيقها فتفاجأت واضطربت، لكنها قالت له كنت عند صديقتي التي تسكن في هذا البيت، فأخبرها قولي انك كنت عندي صديقك (عزوز) حملها للبيت، كان ابني ما زال شابا في الواحد والعشرين من عمره، أي أنه لم يكن ناضجا بما فيه الكفاية، لم يأخذها لأهلها ولا رغب فضحها، لكنه بطيشه قرر أن يعاقبها بنفسه ويؤدبها في ذلك المساء، وفور وصولهما بدأ التحقيق معها، وأعاد عليها الحوار على مسمعي، وفهمت وتأكدت ان شكي كان في محله، بكيت وقتها واصابني الهم والغم، اضطرب نبض قلبي وأحسست بأنني أكاد أختنق من الحزن والمرارة، فهذه المرأة ما زالت شابة وتبلغ العشرين من عمرها، وبإمكانها أن تدمر ابني الوحيد بالتعامل من ورائه مع اصدقائها الكثيرين، لو استمرت ، قلت في نفسي، كن بعوني يارب، احم ابني من ضلال وسقوط زوجته، مالهذا البيت يارب، في الأمس كانت أم الولد مكرهة، واليوم زوجة الولد تمشي للفساد بنفسها وعلى حسابها، هل المصائب تورث يا ربي؟ أوهل العيب يعرف مقره وطريقه؟ إنها غلطة ابني وإصراره على هذه المرأة المتعلمة والماهرة في صيد الرجال، كانت هذه الفتاة لعوبا قبل زواجها من ابني، وقد اكتشفت ذلك بنفسي، ولكم حذرته من تجنبها والبحث عن امرأة أخرى نخطبها له، لكنه اصر عليها، سبحان الله، (كل فولة ولها كيال) ونحن الذين سعينا لاحتوائها، لكننا لم تعلمها الفساد وخيانة الشرف، بل كان مدربة ومهيأة لمثل هذا قبل زواجها، رفضتها زوجة له، لكن البلاء أصرّ على أن يلحقني ويلحق ابني، فأصرّ امسامح على هذا البلاء وتزوج هذه المرأة الساقطة.

بدأ ابني في معاقبة زوجته ميرا الخائنة بالضرب، فصارت تصرخ وتصيح بأعلى صوتها، كنت أتعذب من سماع صياح الكنة، لم أحتمل أن أشهد على عذاب إنسان، عاد لذهني شريط طويل من ذكريات الطفولة، وبرغم أنني لم اواجه تعذيبا على أخطائي، إلا أنني تذكرت أن المرأة إنسان ضعيف، حين تقع في مجتمع تراثي تقليدي، ويسهل اصطيادها وقيادتها، حتى لو ضد مصلحتها، وكثير من تلك الأفكار خطرت لي، من سجل ما جرى معي ما عانيته او مارسته، فوجد نفسي أتقدم كي أحميها، لأنني لا أقوى على سماع ومشاهدة اي تعذيب، زادت من صياحها قاصدة وكلما ضربها بيده او بحزامه، كلما رفعت صوتها وحاولت الهرب والخروج من باب الشقة، فيحول ابني مسامح دون خروجها ليقلل من فضجها بين الجيران.

سمع بعض الجيران صراخ ميرا، فتقدموا لمعرفة سبب ضربها وللفصل بينهما، حاولت إحدى النساء أن تأخذها معها لبيتها، لكن ابني رفض ذلك، فسألت هل أتصل بأهلها كي يحضروا لأخذها معهم، فتدخلت ورفضت الفكرة، وأقنعت المرأة أنهم شباب وسوف يعودون لبعض متحابين بعد قليل، وإذا أتعبنا أنفسنا لأجلهم، فلن ينوبنا إلا وجع رؤوسنا، كما يقول المثل الدارج (يا داخل بين البصلة وقشرتها، ما ينوبك (يأتيك) ألا رائحتها)، حتى ميرا نفسها رفضت ان يتصل احد باهلها، فخفت حدة غضب ابني، وعاد الجيران إلى بيوتهم، تقدم فضربها بحزامه مرتين ثانية، وعادت تصرخ، فانهارت أعصابي ولم أطق ذلك العذاب، دفعتها لغرفتها وهمست في أذنها ان تعلن توبتها لزوجها، فطلبت مني بنفسها على مسمع ابني أن أتدخل لوقف عدوانه عليها، وقالت انها ستتوب عن مخالفة اوامر زوجها، وطلبت منه الصفح، وأعلنت توبتها امام زوجها، رفض مسامح ليلتها تناول طعام العشاء، وظل جالسا على كرسي وحيد على شرفة المنزل الصغيرة، وفي آخر الليل قرر النوم على ارضية صالة الضيوف، نفورا منها وهجرا لها، وكالعادة نمت انا وابنتي في غرفتنا الخاصة، ولكن وبعد ساعة او اكثر سمعت غنجها، ونغمات استمتاعهما بأصوات ربما كانت مقصودة لإغاظتي، نظرت للصالة فلم أجد إبني في الموقع الذي بدأ نومه فيه، سمعت دبيب اقدامها تتجه صوبه، ارتمت بحضنه، وبهمس جذبته لغرفتها ثانية، ازدادت معرفتي بهذه المرأة حين سمعت صراخها أثناء استمتاعها بزوجها، فهي امرأة خبيثة خبيرة تعرف كل فنون الشرور، تلبي مصالحها في كل المواقف والظروف، وتخرج رابحة، صرت أتخيل كيف استطاعت ان تلوي مناعة ابني حتى اصرّ على خطبتها والزواج منها، مع انه كان مطيعا لي، ولم يصدف ان خالفني في حياته وتصرفاته قبل زواجه من هذه الملعونة، وتبين لي أن المتعة تمسح كل السيئات، والحرمان منها عند البعض قد تمحو كل الحسنات.

**الفصــــــل التاسع والعشرون**

بعد أن مضى على زواجي من ابن عمي ست سنوات، أوصاني والدي كعادته أن لا أنسى زيارة شقيقته عمتي الأرملة، وخاصة لأنها عجوز تعيش وحدها، بعد ان سافر ابنها الوحيد للعمل في بلد أجنبي، زرت عمتي يوما على غير ميعاد، فوجدت رجلا حسن المظهر نظيفا هناك، ترددت وهممت بالعودة، لكن ترحيب عمتي بي جعلني اتوقف لأسمع كلامها، شكرتني لحضوري، وقالت ساقك الله في الوقت الذي كنت ادعوه ليفك ازمتي، ثم جذبتني وقدمتني لضيفها قائلة، هذا حمدي صديق ابني محمود، يعملان معا وحضر هذا الضيف لزيارة أهله، ونفذ رغبة ابن عمتك الذي ارسله ليطمئن على صحتي وأوصل لي هدية من محمود ابني، هززت رأسي محتارة ماذا أقول لها، ولكن ما فاجأني هو سرعة طلبها مني البقاء في البيت، حتى تذهب للسوق وتشتري حاجات لطعام الضيف، لأن حضوره كان مفاجأة سارة لها، ولم تكن عمتي العجوز على علم بأن شخصا سيزورها، مرسلا من قبل ابنها للاطمئنان على صحتها، قلت لها أنا مستعدة للذهاب للسوق بدلا منك يا عمتي، وسأشتري حاجياتك لكي اريحك، ثم اقتربت منها أكثر، وجذبتها بلطف وخرجنا من البيت ثم همست في أذنها، كيف تريدينني أن أبقى مع شاب غريب؟ إنني أخجل أن أظل مع ضيفك يا عمتي، ولم يسبق ان عرفته ولا شاهدته من قبل. لكن عمتي قالت

- الله اكبر، ماذا سيحدث لك في غيابي نصف ساعة او اكثر قليلا؟ هل الرجل غول سيخطفك أو أسد سيأكلك، أعرف انك امرأة عاقلة وقوية وجريئة، ثم ومتزوجة، ولست محرومة من أي شيء، وهاهو الرجل يسمع، ويعرف أنك امرأة متزوجة، انا احتجتك اليوم يا بنتي، لكن لا أستطيع ان أجبرك، وطلبي أظنه بسيط وطبيعي حسب عاداتنا، فمن ماذا تخافين؟؟

- لا يا عمتي، الأمر ليس كما تظنين، لا أستطيع رفض طلبك اولاً، لكن انا خايف، انت عارفة كلام الناس.

- افا، يا عيبك، انا عمتك، واعرف الأصول وعاداتنا، انت في بيت عمتك، وأنت بنت رجال واصول، وأنا عارف تربيتك وتربية والدك وطريقته في تربية ابنائه وبناته، ابوك مضرب مثل في الأخلاق والتشدد في التربية والمحافظة على الأخلاق والحمد لله، أفتخر بك وبوالدك وبتربيتك.

- شكرا يا عمتي، والله ما أنا عارف ماذا اقول لك.

- انا كما قلت لك لا أستطيع اجبرك، سأضطر اترك الضيف لوحده في البيت، او آخذه لبيت اهلك يرتاح عندكم حتى ارجع من السوق، أو تريدين مني أن اكلم جارتنا تظل في البيت حتى أرجع.

- . . . . بعد تفكير وتردد، قلت:عمتي، توكلي على الله، لكن رجاء لا تتأخري.

- لكنها قالت لا أدري ما الذي سأشتريه، وعندما اكون هناك سأجد لي حاجة نستر بها وجهنا ونكرم الضيف صديق ابن عمتك محمود.

أي ان العمة أصرت على الذهاب للسوق بنفسها، وبقيت سمحة في البيت، لم تدخل سمحة البيت بعد مغادرة عمتها، كنت اقف قرب باب البيت، ادخل مترا او مترين للبيت، ثم أعود امام الباب واتحرك في متر من الأرض او مترين، لآظل قريبة لو لزم للضيف خدمة، لكن بعد ما يقارب الخمس دقائق تحرك الضيف يبحث عن شيء، فاضطررت للاقتراب منه لأسأله إن كان بحاجة لخدمة اساعدها بها، ضحك وشكرني، ثم قال

- بحثت عن كأس فارغة وعن الماء كي أشرب.

عرفت ان مثل هذا هو من واجبي، فمشيت في بيت عمتي المكون من غرفة واحدة واسعة، وخدمته بالماء.

كنت كشجرة كمثرى مثمرة، تتلألأ الثمار عليها من كل جانب، فكان جسدي يشع إشراقا وملامحي وصدري، زينت نفسي صدفة في ذلك اليوم قبل تحركي لزيارة عمتي، وما إن شاهدني الرجل، حتى لمحت بريق عينيه وانجذابهما، وكأنه أستفاق من حلم طويل، ركز نظره على ملامحي مندهشا لأي موقع من جسدي ينظر، الصدر المندفع الشاب، والقوام المشوق، والطول الساحر، واعتدال قامتي، ووجنتاي المشعتين كحبتي كمثرى ناضجتين مضيئتين، أو لشعري المتمرد المنساب على كتفي وظهري خارج المنديل الكبير نوعا ما، حيث اعتدت محاولة تغطية شعري الغزير به.

عمتي نظرت لي بإعجاب ودهشة هي الأخرى، وإظهارا لإعجابها وافتخارها بي، تتقدم في حماس وهي تتأملني، أمسكت عمتي بيدي وجذبتني طالبة مني السلام علي الضيف، فمشيت ببطء وتردد وخفر، لكنني سلمت على الضيف حمدي بإشارة من يدي من بعيد، مرحبا به لإرضاء عمتي، كنت محرجة جدا، ثم فكرت كيف ارفض طلب عمتي وأنا قادمة لزيارتها وأداء أي خدمة ترضيها كما أوصاني والدي؟ صادف يومها أنها تريد ان تحتفل بصديق ابنها المغترب، لكن الضيف فاجأني، تقدم صوبي، وبادرني بمد يده للسلام، ربما حركت يدي قليلا، فوجدته يمسك بيدي للسلام بقوة ورجولة،وبقبضة غامرة تفيض ثقةً وترحيباً، شعرت بإحساس غريب في يدي ودفء، او هي حرارة الحرج التي حركت دمي وزادت من نبضي، ارخيت يدي واصابعي حتى لا يضغط عليها، لكن أصابعه ظلت تحتضمن كفي وأصابعي بشمول غريب لثوان قليلة، وحين أطلق يدي، أخفيتها خلف مؤخرتي لا شعوريا، وكأنني أريد أن اخفي الأثر الذي أحسست به، وكيف طوق كف يدي بطريقة خفية لم يسبق لي أن خبرتها، أشار لي بالدخول وعدم التحرج أو القلق، لكنني ابتعدت قرابة متر عنه وعدت للالتصاق بعمتي، ومحاولة دفعها للوقوف قرب باب البيت.

وبعد أن توقف حديثنا انا وعمتي، غادرت البيت، وبعد أن قدمت له الماء، اقترح عليّ ثانية أن أرتاح على الفراش الذي يجلس عليه، لعدم وجود كراسي او مقاعد في بيت عمتي، وقال إنه لا يريد أن أظل واقفاً طول فترة غياب عمتي، تقدمت بخفر وببطء وحيرة وتردد وجلست، ألملم أطراف ثوبي الطويل، محرجة من الموقف العجيب الذي وضعتني به عمتي، لم أقبل أن أشاركه الفراش، بل اخترت فرشة صغيرة مربعة ووضعتها على ارض الغرفة مقابله، وعلى بعد متر أو أكثر قليلا،ألملم أطرافي وأضغط جمسي، أحاول إخفاء كفتي قدمي الخشنتين، لكنني سبق وأدمنت عدم الخشية من الرجال، ابتسم الضيف حمدي ابتسامة غامضة وهو يتأملني، ولكن عينيه كانتا تنطقان بترحيب ذي معنى وانجذاب، أوكأنه يفكر من أين يبدأ في الكلام، عمتي تخاطبني قبل مغادرتها:

- سأغيب نصف ساعة أو ساعة تقريبا، فإبريق الشاي على ا لنار، جهزيه واسكبي الشاي واشرباه معا، وإن أراد القهوة فتعرفين مكانها، وجهزي له القهوة بالطريقة التي يحبها الضيف يا سمحة. وبصوت خافت نوعا ما واستحياء، وأنت يا ضيفنا دير بالك على بنت أخي سمحة، حتى تخدمك وتقوم بواجبك في غيابي عن البيت، قلت على استحياء وبصوت خفيص متردد

- حاضر ياعمتي، تكرمي، أعلم أن غيبتك ستطول أكثر من ساعتين بسبب بعد البيت عن السوق، ومشيتك بطيئة، سأجهز لضيفنا الشراب الذي يرغبه. لكن أرجوك يا عمتي أن تحاولي أن لا تتاخري، لأن عليّ أن أرجع لبيتي قبل عودة زوجي من العمل، وتعرفين انه غير منضبط المواعيد، ولا يهتم بالعمل أحيانا، فيتركه دون داع اوتردد، لأنه يعيش في معية والديه.

- انتظريني حتى أعود يا سمحة، إياك أن تتركي الضيف وحده، انت (ست بيت شاطرة)،وامرأة كبيرة وناضجة وتفهم الواجب، إنني أعتمد عليك وأفتخر بك، فلا تتركي بيت عمتك قبل ان تعود.

وقبل أن أجيبها، بادر الضيف بقوله:

- لا تقلقي يا أم محمود، سنشرب الشاي ثم القهوة ونستمع لأخبار الراديو، وشيء من الأغاني ونتحدث ريثما تعودين، ماذا تقولين يا سمحة؟ ابتسمت قليلا، وتقابلت اعيننا، لكنني خجلت وطأطأت رأسي على استحياء، هززت رأسي بخفة مع رغبة بإخفاء موافقتي، ولم أجبه على سؤاله.

نهضت بعد دقيقتين تقريبا، لأن الماء في إبريق الشاي الموضوع على النار بدأ يغلي، أتممت تجهيز إبريق الشاي ونقلت لوازمه لأضعه أمام الضيف.

تحركت للأمام قليلا عن الفرشة، لأقترب من الصينية التي عليها إبريق الشاي والكؤوس، لكن حمدي سبقني إذ مد يده، وسحب الصينية بما عليها، وبدأ يسكب الشاي لي وله، لم يسألني عن كمية السكر للكأس، بل كأنه عرف انني احب الشاي الحلو جدا، فوضع في كأسي ثلاث ملاعق من السكر، وقال، تذوقي الشاي، فإن أردت المزيد من الحلاوة أضفت المزيد من السكر لك. تناول الكأس ومدها صوبي، فتباطأت في تناولها من يد الضيف، لأن المفروض أن أقوم انا بواجب الضيافة لضيف عمتي، امسكت بالكأس بكلتا يدي، حتى لا ترتج او تهتز، وأحسست أن يدي اليمين فيها ضعف ولا ثقة لي بضبط الكأس من يده. وحين أمسكت الكأس بكلتا كفتي، لاحظ ذلك فلم تتركها أصابعه حتى وضعناها كلانا أمامي.

أعجبني الشاي بالنعناع يومها، كنت أعاني من جفاف في حلقي، طاب لي شرب الشاي، وأحسست أنه لذيذ، وخاصة وان عمتي جهزت لنا المزيد من النعاع، وقر لذهني أننا في بداية الجلسة، وأعرف أنني سأمكث مدة أطول، مما جعلني أهدئ كثيرا من اضطرابي وقلقي وإحراجي، فهي المرة الأولى التي يوكل لي مهمة كهذه، أراها غريبة نوعا ما، سألني حمدي عن النعناع وهل أحبه، فأجبت نعم أحب النعناع والميرمية او اي نبات له رائحة زكية، فقال يمدحني، انك تفهمين الكثير من أمور الحياة، فقلت، الحياة؟ قال نعم. فوجدتني أقولك

- إن الحياةأحجية تتطلب جهدا كبيرا لفهمها، الحياة حظ، الحياة صعبة على البسطاء، فهي تتطلب كفاءة وقدرات متعددة، الحياة مهرة إن لم تضبطها ستتمرد عليك، أو تركلك، ولكن بذكائك ومهارتك تستطيع ان تدربها وتسيرها على هواك، كي تركبها لتأخذك إلى حيث شئت في أمان وراحة ربما.

مد حمدي يده ورفع قامته، معربا عن فرحه الكبير وأعجابه بكلامي وانطلاقي في الكلام دون استعداد او حرج، كنت أتحدث عن الحياة بثقة ومعرفة، ومن واقع ما مرّ بي من خبرات ومرارات وسقوط، مدحني ومد يده ولمس كتفي يباركني على كلامي المميز ويمدحني، وكأن سمحة الأمية خريجة جامعية.

إنشرحت أسارير حمدي كثيرا، وزاد من تركيز نظراته فلي يتأملني، مما أعاد الحرج لي مؤقتا، وحين لاحظ حيائي، نظر صوب باب البيت سارحا، يفكر بما عليه ان يجيب على شطحتي.هدأ بعدها، ثم بدأ حمدي يتحدث عن ابن عمتي وعلاقته به، وعن عمل كل منهما، وصار يسألني عن زوجي واهلي ووالديّ، وأنا أجيب باختصار ، لكن ومع طول الحديث، بدأت أحسن بأن ضيفنا إنسان رقيق أكثر فهماً مني يحب الناس والمجاملة، فزال حاجز الخوف من نفسي والحرج نوعا ما، وتحسنت حالتي النفسية في منزل عمتي، وتذكرت ان عليّ أن أرضي عمتي حتى تخبر والدي عن اهتمامي بها، ثم عليّ أن أحسن معاملة الرجل الضيف، حتى يحمل انطباعاً جيدا يذكره لابن عمتي عني وعن اسرتنا واهلنا، وعلى أمل أن يبلغ عمتي عن لطفي معه حين ترجع لبيتها من السوق، كنت أحب ابن عمتي جدا، وكان يدور بيننا حوارات ونقاشات دافئة قبل سفره، كنت معجبة به ويبادلني اعجابا ايضا، برغم انه يصغرني بعامين، لكن والدي تعجل بتزويجي من ابن أخيه الضائع، على أمل أن يلمّوه او بأمل إصلاحه شبه المعوق، وبعد أقل من ساعة، سألته إن كان يريد شرب القهوة، ريثما تعود عمتي، فرحب بالفكرة، وأصرّ على الوقوف معي في المطبخ الصغير الضيق، أثناء تجهيز القهوة، وطلب المشاركة في العمل، فقلت له، هذا أمر بسيط، ولا يحتاج مساعدة، فقال:

- دعيني ان أجهز القهوة حتى تشربي من قهوتي يا سيدة سمحة، بقيت واقفة أحاول الابتعاد عن موقد الكاز (البابور) وهو ينجز بها. وضعت فنجانين على الصينية، وأردت حملها للعودة للفراش، لكنه ظل ممسكا بها ووضع إبريق القهوة الصغير على الصينية ثم حملها ومشى عائدا صوب فراش الضيافة الأرضي، فاجأني نوعا ما حين وضع يده على كتفي، ويقدمني أمامه. يسكب القهوة وأنا أركز نظراتي على تصرفاته وحركاته، وأثناء عمل القهوة، سألني:

- هل تحبين القهوة حلوة جدا مثل الشاي او سكر خفيف، او سادة بلا سكر.

- أفضلها بحلاوة قليلة، وكما يقولون (عالريحة)

المهم زال قلقي تماما بعد أن ناولني فنجان قهوتي، وصار يقترب مني، ويلمس يدي كلما اراد ان يتكلم او يلفت نظري، أنحرج في كل مرة يلمسني في بيت عمتي، مع انني معتادة على الرجال ومخاطبتهم، لكنه ضيف عمتي في بيتها، وغايتي ان اقوم بإكرام الضيف، فتسامحت معه، ربما لأعرف المدى الذي يفكر فيه، صرنا نمزح ونضحك بانسجام عادي دون تطرف او غزل، لكن أصابعه صارت تطيل إمساكها بيدي، ثم فاجأني مرة بتقبيل يدي، لم أتعود على رجل غريب يقبل يدي، أحسست برجفة خاصة وبمتعة عجيبة، لكنني خجلت جدا من نفسي، لملمت اطرافي، ورجعت للخلف قليلا تحسبا من ظنونه، نهضت بهمة لكي أحضر له كأسا من الماء مع القهوة، فاستغرب الرجل همتي، وتبعني واضعا يده على كتفي، قائلا:

- سيدتي الجميلة، أنت جميلة، ورشاقتك نشطتني وطولك سحرني، جسمك ممشوق القوام لم أر مثله من قبل، مع ان الجمال في البلاد التي نعيش بها كثير، وسامحيني على جرأتي وصراحتي، فلقد تأثرت كثيرا من نمط العيش والتفكير في البلاد الغربية التي نعمل بها انا وابن عمتك، وكعربية نادرة أراك ملاكاً في صورة بشر، فاسمحي لي أقبل يدك ثانية، سامحيني على تطاولي كضيف، وكل ما أقصده أن تكوني صديقة لي، او تواصلين الجلوس معي، لأنني منذهل بكل مؤهلاتك وأفكارك، والأهم من ذلك هو لطفك ودماثة أخلاقك.

- تعلم يا ضيفنا العزيز حمدي انني امرأة متزوجة، ولا أفكر إلا بالستر والعيش بسلام بين أهلي ومع ابن عمي، وعلى أمل ان يرزقنا الله طفلا سويا اتسلى به يملأ عليّ حياتي أثناء غياب زوجي، او انشغاله عني، وكثيرا ما يغيب وينشغل ويذهب لقرى مجاورة عند أصدقاء له.

هز رأسه ثم جذبني برفق للعودة للجلوس لمواصلة شرب قهوتنا، بعدها فوجئت به يمد جسمه ويضع رأسه على ركبتي متمددا على ارضية الغرفة، حاولت التملص، لكن يديه القويتين ثبتتني بحزم ونظرات حانية مستعطفة، ثم مدي يده إلى ساقي وصار يتحسسهما، وبعد عبث واستمتاع متحرر دام أكثر من نصف الساعة، تحضر عمتي، وتجدنا في غاية السعادة والراحة، انشرحت هي الأخرى، وسألت الضيف حمدي قائلة:

- لا تؤاخذني با ابني على تأخري، فالمسافة طويلة، ولا مجال للوصول إلا مشيا على الأقدام. فيجيبها بمرح قائلا:

- إرتحت كثيرا يا خالة في بيتكم، وابنة أخيك شابة جميلة الخلق والخلقة، وأكرمت ضيافتي وأتمنى لو لديّ وقت طويل لكي ألتقي بها وبك ثانية نتسلى ونتحدث ونقضي أوقاتا أخرى مثل وقت اليوم القصير، وسأنقل لصديقي العزيز ابنك محمود أعظم الأخبار عنك وعن سمحة، وكم سيسعد ابنك محمود بسماع اخبار صحتك ونشاطك.

بعد دقائق من بدء أحاديثنا، شعرت بانجذاب عجيب لهذا الشاب الغريب الفحل، ولو أوتيت الشجاعة والصراحة لطارحته الحب بكلمات أسمعها من الأغاني، لكنه كان إنسانا لبقا وحسن المعشر، عرف أنني متزوجة، فكان يتصرف بحرية واسترخاء وباطمئنان، فأنا في بيت عمتي وهو كذلك، وعمتي في السوق، فلماذا لا يبوح برغباته ويمارس حريته معي، وجدت نفسي مهيئة ومطواعة، بل حاولت ممارسة الجنس برغبة وشوق، لأختبر مشاعري، وكيف أحسّ بالإلتصاق مع توفر شوقي لذلك.

حمدي هذا، غير فكرتي عن الرجال الذين سبق وطعنوني واستغلوا جسدي وغادروا حياتي، لكنني تمنيت لو أعيش واموت تحت رعاية شاب مثله وفي حضنه الدافئ الذي أشعرني بجمال التوافق، سعدت كثيرا برجولته ولطفه وكرمه، أتحسس عبي الذي يكتنز خمسين دولارا هديته لي قبل وصول عمتي، لم أخبر عمتي عن كل ما أسعدني به حمدي والأثر الذي تركه خلال أقل من ساعتين من عمر الزمن ، لكن عمتي لاحظت أنني كنت منشرحة مسترخية ومنفتحة جدا معها ومع الضيف، طلبت مني العودة لتناول طعام العشاء عندها مع الضيف، لكنني أجبتها:

- سأحاول العودة لكما يا عمتي إن سمح لي زوجي، وقد سبق ووعدت والدتي بزيارتها مساء هذا اليوم.

- توكلي على الله يا بنتي، أدعو الله أن يوفقك وأشكرك جدا على إكرام الضيف، ومساعدتي، وقبل مجيئك كنت محتارة، كيف سأترك الضيف في البيت وحده، او أطلب منه الانتقال لمنزل والدك، او أحد أقاربنا الآخرين، كي ينتظرني حتى اعود من السوق.

في طريق عودتي لبيتي، بقيت محتارة كيف جرى كل ما جرى، وكيف سحرني ذلك الإنسان وسلب إرادتي، استسلمت للرجل الغريب، إننا نحن النساء نصارع الحياة، ونحاول الثبات بعزم ومجابهة، ولكننا نستجيب لصدق المشاعر، فطبيعة الأنثى الرقيقة الحنون، توقعها أحيانا في متاعب غير متوقعة ولا محسوبة، والحنان والحب الصادق يشل المقاومة ويبرز الكرم والشجاعة، برغم سرعة خطواتي لكنني أرى نفسي كأنني متوقفة، لا أريد الابتعاد عن بيت عمتي، عشت لحظات من السعادة لم أشهد مثلها، وأخشى أنني لن اجد مثلها، فالضيف راحل غدا لبلد بعيدة، وقد لا يعود ثانية. أمشي رافعة رأسي وظهري، أظهر انسياب جسمي حسبما مدحني المحب العابر، وقبله كثيرون، تساءلت في داخلي وبي إحساس بالرضا عن نفسي وحياتي، ثم وجدتني أسأل نفسي بصوت مسموع، (هل الطول والجاذبية نقمة أم نعمة؟) لم أجد جوابا حاضرا في ذهني، لكنني أحسّ براحة ونشاط، والغريب أن خبرتي مع الرجال قبل الزواج كانت بالإكراه والاغتصاب واستغلال سذاجتي، وإهمال أهلي وحاجتهم للمساعدة، وربما كان ذلك وكل ماحصل معي هو بسبب التهجير والهزيمة الأولى والثانية، وبرغم تلبيتي لرغبة والدي في العمل، وسكوت والدتي وأعمامي وعشيرتي على عملي، إلا أنني كنت أحسُّ بالمسئولية كي أساعد أهلي وأسرتي على عيشة معقولة، وأي عيشة كانت؟ في خيام ممزقة، أو غرف صفيح ثم في بيت من الطين، وفي مناطق مختلفة من بقية فلسطين، وفي مخيمات الغور وحول أريحا، لم أستشر ولم يتح لي فرصة لمنع استغلال الرجال لي من قبل، لكن هذه المرة أجد نفسي منذهلة من تصرفي.

ما إن اقتربت من مكان سكناي مع العائلة في غرفة خاصة لي ولزوجي، خطرت ببالي أفكار مختلطة، هل سينام معي زوجي الليلة، إنني أحس باكتفاء وراحة، لكنني أشعر بالذنب وعدم الرضا، مع انني ما زلت أحس بنشاط وحب للحياة والاسترخاء.

أشعر وقتها لو طُلِبَ مني ان أنقض جبلا او أنقله إلى مكان آخر لفعلت ذلك وحدي، إن بي قوة هذا اليوم تجر سيارة محملة، تتجلى روح الشباب في كياني، أشعر أن كل من مررت بهم من الناس والحيوانات والطيور والأشجار، كلها اتفقت على ان تحبني وتريد التقرب مني، لكنني متزوجة.

فماذا عن الرجل الغريب ضيف عمتي ؟أينا الرابح يا ترى، هل كسبت شيئا من انسياقي لمداعباته، أو ماذا كسب هو نفسه، ولماذا لا أسأل أينا الخاسر؟، هل أحسّ الرجل بتجاوبي معه وانسجامي وبالتراخي الذي هبط علي كأنني في عالم آخر، أو هل ظنّ أنني رخيصة سهلة المنال يا ترى؟

لكنني لاحظت انشراح ملامحه، تغمره سعادة لا توصف، وكأنه حظي برضاي عنه ولتعاملي معه بتجاوب ورغبة، بجسمي ومشاعري وخيالاتي كلها مجتمعة؟ كان هائما يتكلم بكلمات حالمة، ويثرثر ويهمهم كأنه في حلم او في حالة سكر، ورأيت نفسي أنني بعيدة كل البعد عن عالم الواقع والأهل ونحن متلهفان ومتجاذبان، كنا كأننا في حلم مجنون، نعبث ونعانق ونهمس ونصرخ ونتصارع بمرح وانسجام.

إنها الحقيقة بل كنا في عالم غريب أقرب إلى الخيال منه لواقع حياتنا العربية، لا أصدق نفسي أنني عشت فعلا تلك اللحظات، تذكرت أنني عائدة لبيتي الصغير، لا أريد أن تمحي آثار تلك النزوة الغريبة العابرة، لم أشعر برغبة في رجل من قبل كما شعرت اليوم، هذه المرة أشعر بأنني سعدت برغبتي ومهارتي وجاذبيتي، أود لو أعود لألقي عليه نظرة ثانية قبل عودتي لمنزلي، لأتأكد اننا فعلا مارسنا كل ما خطر ببالينا، أخشى أن ما أراه الآن أمام ناظري من ذكرى سعيدة كان وهماً؟ أو انني في حلم، وقرب مدخل دارنا، وجدت نفسي أواجه زوجي عائدا من عمله متعبا متراخيا، سبقني للبيت وألقى بجسده كجثة هامدة، وقتها فطنت لواقعي، وصرت أضحك من نفسي، بأن كل ما فكرت به كان حلماً، ولم أمارس شيئا مما كان يدور في خلدي..

حين تكون الأرض رخوة تحت قدميك أو سبخة، فإنك لا تدري اين تقف وإلى اي اتجاه تسير، هذا إذا تمكنت المسير، ستنظر حولك باحثا عمن يشد ازرك او ينصحك او يجذبك لينقذك ويخرجك من شرور موقفك، وإن طال انتظارك، فلا بد من خطوة أولى تخطوها لعلك تظفر بالنجاة، او تصل إرضاَ صلبة، لكن يظل الاحتمال بقبولك الجحيم والمزيد من الغرق والمتاعب، و جهادك وحرصك على الحياة يا سمحة لا يتوقف، حتى وانت في جحيم السبخ والطين والوسخ.

تنادي عليّ حماتي، لتناولني طبقا من الطعام لابنها، امشي متباطئة بلا رغبة، لم أسأل نفسي، لماذا لم أطبخ لزوجي؟ ولماذا لا يشتري لوازم الطبخ لأمارس دوري كربة بيت، أساعد حماتي في بيت العائلة، تطعمنا من طبيخها كل يوم، ولكن وللأمانة دون منّ ولا أذى، أشعر بخواء، هو ضغط يشبه المغص في معدتي، همّ يتسرب إلى قلبي، أحسست بأنني متعبة مرهقة، وتساءلت في نفسي، هل أنا امرأة ساقطة، او ضعيفة او انني خلقت لإسعاد الآخرين في ممارسة الحب فقط؟ ما الذي يجري لي في حياتي، ألا يكفي ما جرى لي في طفولتي وفي سنوات المراهقة، هل سأبقى تائهة مضيعة؟

كنت أتهرب من الرجال في سنوات عمري المبكرة، واليوم وجدت أنني متعطشة للحياة والحنان، أشعر بأن قلبي به فراغ يتسع للعالم، احب النشاط، احب الناس، احب حريتي، لكنني مقصرة في تحصين نفسي، هل أنا امرأة عاهرة؟ او ما هي الصفة التي تنطبق عليّ؟ سهلة متهاونة في صيانة هذا الجسد الملتهب والمتعطش للحياة والاحترام والحب، إبن عمي، أين ابن عمي، يا إلهي! امِتْني يا إبن عمي، أو يَسِّر لي عيشا يناسب عقلي وجسمي ومشاعري، يا رب يسر لي إنسانا يحميني ويحمي هذا الجسد من الفضيحة، إن النيران التي تتأجج في داخلي، لا يعرف عنها أحد، ولا أبوح بها لأحد، وابن عمي زوجي، أحاول الاستسلام له، لكنه مثل ديك الدجاج ما إن يقفز على ظهر دجاجته، حتى ينزل مترنحا او يحاول الاستعداد للركوب ثانية بطريقة آلية متعجلة، وهذا يزيدني هما وربما شبقاً، ويشعل لهفي وحرقتي وتعطشي. هل كل النساء مثلي؟ هل الزوجات يعانين نفس ما أعاني؟ الحياة الجنسية هي نصف العيش، أو انها ثلت العيش على الأقل، والصحة هي الثلث الثاني، والمال هو الثلث الثالث الذي يكمل الحياة المعقولة، تأتي بعد كل هذا القناعة والأحاسيس التي تغلف هذه الثالوث الحياتي كالشرنقة، او هو البيت المستور، لتشعرك بأنك تعيش حياة طبيعية، يارب سامحني على افكاري، وبالرغم من انني غير متعلمة، إلا ان لدي افكارا عن حياة كريمة، أو إنني أدعو الله أن يجعل حياتي اليوم افضل من حياة يوم أمس على الأقل.

**الفصــــــــــــــل الثلاثون**

في الكويت

ما إن وصلت الكويت مع زوجي درويش للمرة الأولى حتى أحسست بأمان ما، ووجدتها فرصة للتعرف على زوجي والانفراد به ودراسة عقليته والتعود على الحياة في ظله، أولاده الستة أشغلوني كثيرا، وبعد أن لاحظوا انني أهتم بهم وأساعدهم، بدأوا يقتربون مني وتزول مخاوفهم من المراة الغريبة، فعلت كل ذلك اللطف والتقارب لهم، حتى أثبت حسن نيتي، وكي أتمكن من دراسة نفسية زوجي، وأضمن أن يحبني ويتعلق بي كمنقذة لما اصابه من حزن على فراق زوجته أم أولاده، ثم على أمل أن يعوضني بحب وإعجاب،ويريحني من هموم الماضي ومشاكلي التي سبق ووقعت بها لعلي أنساها، وفي المحصلة أردت تجديد حياتي على أمل أن اعيش نمطا جديدا يخالف كل ما مر بي، لأنني أشعر بندم وحسرة على كل ما مر بي من تجارب، كاستغلال جسدي والإيقاع بي.

لكن بعد مرور أسابيع على وجودي في بيت محصور، ومجتمع بلا مجتمع، ووحدة في شقة صغيرة بلا ناس، إلا من أطفال كل همهم الطعام، وهمهم أصبح إضافة لواجباتي للمحافظة على نظافة البيت ونظافتهم، كل ذلك زاد من إحساسي بعزلتي وسجني داخل الشقة، بدأ الضيق يتسرب إلى نفسي قليلا قليلا، مظهرة رضاي عن حالي، ومع محاولاتي الاقتراب من زوجي يوما بعد يوم، لكن حضوره للبيت يكون متأخرا يوميا فلا مجال معنا للجلوس والتحدث على راحتنا، وإقبال الأطفال الستة على والدهم، ورغبته في تعويضهم ببعض حب ومسايرة، قلل من فرصي لأقول شيئا يقربنا اكثر، او أتصرف لأعبر عن رغبتي بإدخال لحظات من السعادة والرضا على نفس زوجي، فكل أحاديثنا ولقاءاتنا تكون عاجلة، يعود للبيت متعبا وجائعا، يغسل ويأكل وهو يداعب صغاره، يتمدد بعدها ثم يبدأ بالتثاؤب ويبدو عليه النعاس، حتى انه يغفل أبناءه الستة بسبب إرهاقه، وإن خاطبهم أو داعب أحدهم فعلى عجل.

تستطيع احتمال حرارة الكويت والرطوبة ما دمت سجين الغرف المكيفة بمبردات الهواء، لكنك تظل محروما من حرية الانطلاق مع الأجواء الخارجية مثل بلادنا فلسطين،، والطبيعة الفلسطينية والأردنية غير متوفرة في الكويت، فلا ترى في الشوارع الا السيارات والأرض الجافة او المبنية بالإسمنت والحديث والمعادن الأخرى، لكنك لا ترى حرشا او مجموعة من الأشجار او الثمار او الأزهار، عملت الدولة على استيراد تربة يضعونها على أطراف بعض الشوارع المهمة، وزرعوا بها أشجاراً صغيرة تحتمل الحرارة، وبعض الأزهار، لكنك كفلسطينية لم تعتادي على مثل هذا السجن، ولم تألف نفسك الحرمان من مشاهدة الأشجار المظللة والطيور المحلقة والمغردة، والثمار التي اعتدت على مشاهدتها مدلاة على أعصانها تعلن عن نضجها ولذة مذاقها، فلا شيء مثل هذا في الكويت، لكن وجود الدخل العالي في أيدي الناس، يجعلهم لا ينحرمون من أي طعام او فاكهة او خضار في الدنيا، فأسواق الكويت عامرة تحتوي على كل ما يخطر على بال الإنسان، وحتى مالم يخطر ببال الكويتيين من قبل، او مالم تره العين قبل ذلك، فصار مجتمع الدول البترولية هو مجتمع استهلاكي، ولا يفكرون إلا في طعام او شراب او لباس، وأصبحوا وكأنهم مخلوقات عجيبة أنزلوا فجأة من كوكب غريب، يتكلمون العربية لكن لا يعرفون ولا يفكرون بأن هناك عرب حولهم يحبونهم ويتمنون التوافق معهم، وأصبح همّ كل أثريائهم أن يستغلوا الفائض من أموالهم في بلاد أجنبية، بدل استثمارها في بلاد عربية تحتاجهم، صرنا نلاحظ أنهم يزدادون تباعدا عن هموم غيرهم من العرب. فمع هذه الأجواء والحصار صرت اتمنى العودة ثانية من حيث أتيت، زوجي الجديد درويش لم يأل جهدا في محاولاته التقرب مني، ويقول لي:

- إن صخب الأطفال وإزعاحهم يسليك لعلهم يكبرون بسرعة، ثم ستنشغلين بعد ذلك بأطفالنا منك يا سمحة.

لكنه كان يزيد من ضيقي أحيانا أخرى، حيث يهمل جسدي وحقي كأنثى وكزوجة، فأجد نفسي في معمعة حياة مختلفة كليا عما نشأت عليه وترعرعت به،ولكن أهم ما جعلني اتفاءل خيرا بزوجي الثاني أن درويش لم يسألني خلال الأيام العشرة التي قضيناها معا في الأردن عن زوجي السابق، وحياتي وخبرتي ومشاعري قبل لقائي به، بل أكد لي أنه لا يريد أن يتحدث عن الماضي ولا عن بنتي المعوقة والتي بقيت في حضانة والدها، ولشدة حرص والدتي علي، كانت تصر على أن تسألني عن كل كلمة يقولها زوجي الجديد كلما التقينا، في تلك المدة البسيطة قبل سفرنا، لكنها كالعادة تبدأ كل يوم بذكرياتها والمرارات التي مرت بها، وسرد أحلامها وذكريات الهجرة والمخيمات، ثم تبدأ توصيني الاهتمام بزوجي، ومحاولة كسب رضاه ومحبته، كنت ابتسم، وأعرف جيدا ما تشير له، فأهدئها، وأقول لها إن زوجي الجديد درويش رجل ككل الرجال، ولم نعش مدة كافية حتى أروي لك ماخبرته وما عرفته عن طباعه وتصرفاته ومعاملته، فهو يشعر انه مرتاح معي كما يبدو لي، يتنهد كثيرا، ويسرح بعينيه أكثر، لكنه يدللني ويداريني كضيفة، وربما يريد ان يعرف سبيلا للتعامل معي، فبماذا تنصحينني يا أمي بعد هذا؟. .

برغم أن والدتي لم تعرف المدارس ولا العلوم، لكنها كانت مدرسةلي ومرجعا حين تتعقد الأمور، ومعلمة ناجحة في التربية وقدوة، حسب منهجها وفهمها المحدود للحياة وبثقافتها التراثية الفسطينية، كل ما كان يهم أمي تكرار قولها، ديري بالك على زوجك يا بنتي، لا تبدأي المشاكل معه، وإن ثارت مشكلة، عجلي بحلها بالسلام، ولا تكثري الجدل والمعارضة، وحاولي إرضاء زوجك،وافعلي ما يروق له ما استطعت، ثم اهتمي بنفسك وبمظهرك، وإن لاحظ زوجك ا هتمامك به، فلا بد أن يهتم بك، ثم تضيف قائلة، ها أنت ترين كيف يتصرف والدك معي، يحترمني ويفعل اي شيء يرضيني، لماذ كل ذلك؟ لأنني احتملت عيش الضنك وصبرت على قسوته أول حياتنا، وعايشته حتى اقتنع بأن لا حياة له إلا بوجودي معه، مع انه يغضب او يسب أحيانا، لكنني لا أثور ولا أزيد الكلام معه، حتى يبرد وينفس عن غضبه ونفسه، يروق بعدها ويعرف فضل الزوجة العاقلة في البيت، والأهم يا بنتي ان لاتدعي الرجال ولا النساء الغريبات يتدخلوا في حياتك، ولا معرفة أسراركما، احذري الغرباء والمتطفلين والطامعين، ولا شك انك تعلمت الكثير من غدر الغرباء، لكن أوصيك وأحذرك، إن غدر النساء الغريبات اشد ضررا من غدر الرجال، هل تفهمين؟

أضطر لمقاطعة والدتي في بعض الأوقات، والاحتجاج بأن زوجي سيحضر بعد قليل، ولا نريده ان يرانا نتناقش في امور ليست مناسبة هنا في الشقة المفروشة والتي يستأجرها خلال زيارته لعمان. تمد يدها للأمام متمردة معترضة على إيقافي لها، لكنها لا تتحدث ولا تقول المزيد، بل تنفخ نفسا طويلا، وتهمهم قائلة (الله يهديك يا بنتي ويصلح أحوالك).

لا أدري كيف صرت أفكر بعد ستة شهور أن أعالج نفسي من الإحساس بالملل وكثرة انشغال زوجي بعيدا عن البيت في الغربة، اولاد زوجي السابقين ستة، وكلهم بحاجة لي، وأنا سيدة أحب العمل، زوجني والدي لهذا الكهل لأسباب كثيرة، ذكرت بعضها، وسيرد ذكر أمور اخرى خلال سياق حديثي الطويل من حياتي المضطربة، والدي يعلم جيدا انني كفؤ لأي موقع احل فيه، ففي العمل لا تحتمل امرأة اخرى الجهد والتعب اكثر مني، ولا تستطيع إنجاز ما أستطيع إنجازه، وفي التعامل مع الرجل فيعرف والداي خبرتي وقدرتي على الصمود والنجاح في التعامل مع جميع أنواع الرجال، حسبما خبرني والدي من عملي في مواقع مختلفة منذ طفولتي، لا أعتقد أن والدي جاهل، ولإنه لم يمسك عليّ أي غلطة او مخالفة للدين او التقاليد، لأن كل ما مرّ بي ظل بعيدا عن معرفته او اطلاعه، لذلك أراه معتزا بي وبقدراتي واستقلالي، وأعتقد أنه يعلم أن سمحة ليست غرة ولا غبية، وها أنا هنا في إنشغال ليل نهار، طبخ كثير، غسل كثير، صياح كثير، ومكوث طويل كالحبس في منزل صغير، شبه أمية لا أستطيع أن أقرأ جيدا، ولا مجال للهرب من العمل إلا بمتابعة التلفاز ومشاهدة المسلسلات والأفلام، لكن معظمها مسلسلات ذات اتجاه ديني وأخلاقي، والترفيه يكاد يكون نادرا في التلفاز ايامها، لكنهم يعرفون بلدهم، وطبيعة شعبهم، والاتجاه الذي يسعون له لتوجيه غالبية المشاهدين، نسي الناس المذياع، وصار التركيز كله على التلفاز، إنني امرأة حرة أمتلك نفسي وجسمي وعقلي وأصونها أيضا، سجن البيت في الكويت اضناني كثيرا في بداية الأمر، تعودت على البحبحة والحرية في الحركة في فلسطين وفي الأردن، حتى حين كنا نعيش في مخيم عقبة جبر، كان المخيم كله ميدانا لي، لا يحد من حركتي ضيق ولا شارع ولا زاوية أو أي ملاذ، أستمتع بتحركاتي في الفراغ الواسع الضاجّ بالحركة والحياة أنّى ذهبت.

لم أنس انني جذابة، فكنت أسمع كلمات الإطراء أنّى حللت، من شباب وبنات ونساء وشيوخ، (ماشاء الله على هالقامة، طول مثل عود الزان، والكثير الكثير من التعليقات ومقاطع الأغاني) المرأة العربية وخاصة الفلسطينية تسمع ولا تعلق، لكن كل كلمة تسمعها تتداخل في مشاعرها واعصابها، ما زلت شابة والحمد لله، حين تزوجني درويش حملني لجميع اقاربه، يتباهى بجاذبيتي وقامتي المعتدلة، أتباهى بمشيتي أنّى ذهبت، وأرى صدري يندفع أكثر، كلما رفعت رأسي، وكأنهما ضوئي سيارة، يزيدان عينيّ إشراقا كي أسير حيث أريد، الطفل يتنبه لصدر امه عفويا، ومن واقع خبرتي ومعرفتي، فإن الرجل طفل كبير يتوقف ويتجمد عندما تقع عيناه على صدر امرأة جميل، لكن العقل والتراث يلجمانه، ويحدان من اندفاعه وطيشه، فيحاول أن يخفي طفولته، والمرأة الخبيرة والمجربة تعرف إمكانية سرعة إسقاطه، وإزالة غمامة التثاقل التي تغلفه.

ومما خفف من إحساسي بالضيق في الغربة طوال السنوات العشر في الكويت، أنني رزقت بطفلين من زوجي الثاني درويش، لكن وفي المقابل صرت مسئولة عن ثمانية اطفال في البيت، ويكبر الأطفال يوما بعد يوم وعاما بعد عام، ويصبح بعضهم ينفع نفسه ويساعدونني، لكنهم كلهم ظلوا يحتاجونني في غسيلهم وفراشهم وطعامهم وتهدئتهم وتربيتهم، والمحافظة على صحتهم، الكبار يشاركون في نقل الأغراض إلى المطبخ او إعادتها، وفي غسل الخضار أو ترتيب الغسيل، لكن أعباء المنزل ظلت تتزايد يوما بعد يوم، زوجي كان يعمل عملين، عمل حتى الثانية بعد الظهر مع الحكومة، وعمل خاص بعد العصر للقيام بصيانة خفيفة في البيوت وحسب الطلب، وهذه كانت تدر دخلا علينا بما يعادل او يزيد أحيانا عن دخل زوجي من الوزارة.

**الفصــــــل الواحد والثلاثون**

صحوت مرة متأخرة، فوجدت أن معظم الأطفال قد غادروا لمدارسهم، لم يزعجونني، وتدبروا أمرهم مع بعضهم، صغارهم ركبوا حافلات المدرسة، والأكبر مشى صوب المدرسة الثانوية، سررت منهم، وتأكدت ان نفوسهم طابت، وصاروا يقدرون هذه الأم الثانية لهم، فلم يزعجوني او يعملوا على إيقاظي للمساعدة في تجهيزهم للذهاب للمدرسة، والاهتمام بأكلهم قبل خروجهم، فتولى الكبار منهم مساعدة إخوانهم الصغار، وتم كل شيء بهدوء وحرفيه نوعا ما، نهضت متثاقلة من الفراش الجيد الوثير، واتجهت للنافذة، شاهدت بطريق الصدفة طيرا غريبا، يدور في أجواء منطقتنا، لم اعرف نوع ذلك الطائر ولا شكله، لكنه حام وحام، نزل على الأرض نظر يمينا ويسارا، وللبعيد، ثم حلق ثانية ولف ّ حول منطقتنا لينزل ثانية على الأرض اليباب، ظننته يبحث عني، وربما عرف أنني في غربة ووحشة لم أستطع التعود عليها، وتساءلت في نفسي قائلة، سبحان الله العظيم، ما معنى انه اختار هذه الديرة، وقد انتابته الحيرة وأحس بالضياع والتيه قرب مكان سكني؟.

خرجت مرة من البيت مع زوجي ومعناابني الطفل، لشراء حاجيات للبيت، انشغل زوجي مع تجار الفواكه، وانشغلت انا بشراء الخضار وفحصها، أبدى أحدهم إعجابه بي قائلا:

- ما شاء الله شو هالطول والجسم المستقيم؟ والله إنك مزيونة يابنية،

- أنا متزوجة يا عم.

- اعرف انك متزوجة، وهل تظنين أني ابله أو أعمى.

- وللسخرية ولكي أكتشف فكره أجبته، لكن قل لي كيف عرفت انني متزوجة؟

- لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهذا الطفل، اليس ابنك

- نعم هو ابني،

- لا تلد المرأة طفلا دون زوج.

ضحكت بصوت مسموع، وأردت أن أمدحه لبساطته، وعمره الذي قدرته فوق الخمسين عاما، بسبب غلبة الشيب على ذقنه المشذبة والمنسابة بعناية ونظافة وترتيب فقلت له:

- نعم زوجي هناك، هو ذلك الرجل الطويل. ثم أضفت، ماشاء الله عليك، أنت ذكي وفاهم ياعم.

ابتسم دون أن يرد، لكنني لاحظت انه أحسّ براحة، فأعطاني ربطة سبانخ كبيرة وربطة جزر وربطة فجل وربطتي بقدونس ونعنع طازجتين وقال هذه مجانا لك، اشتريت حاجتي منه ومن غيره، وعدنا للبيت بعد إتمام شراء ما يلزمنا من السوق، ولانشغال زوجي الدائم، صرت أذهب لبائع الخضار نفسه بالتكسي كما دلني زوجي، حتى لا نظل بلا أكل حتى عودته، وحتى يظل هو متفرغا لأشغاله، صرت آخذ معي واحداً من أولاد زوجي الكبار، ويهتم الثاني الكبير بإخوانهم الأصغر، أخرج مرة او مرتين كل أسبوع.

سرّ زوجي مني لأنني تعلمت أن أساعده في تأمين حاجات الطعام له ولنا، أحسست بمشاعر الرضا عن نفسي، لأن زوجي أشار انني أصبحت ذا فائدة له ولحياتنا، فما إن أصل عند صاحب دكان الخضار والفواكه، حتى يجهز لي كرسيا، ويعرض عليّ الشاي او المشروبات الغازية، اتمنع عادة، لأنني حضرت لشراء حاجاتي من الخضار، وتركت الأطفال في البيت، ولا أريد أن أمكث طويلا، لكن الرجل يصر على أن أشرب شيئا مما عنده، وشاهدت بأم عيني انه يكرم عملاءه الرجال او النساء، بكلام معسول او بضيافة من أي نوع، مشروب او يعرض على المشتري الاستراحة على كرسي جيد، ريثما يرفع صبي المتجر الأغراض ويوصلها لسيارة العميل المشتري، سواء كان المشتري عربي غير كويتي، او كان كويتيا او كويتية.

بعدها لم يعد بي حاجة لمرافقة أي ولد معي، بل صرت أذهب له وحدي بسيارة تاكسي، صار ذلك يتكرر مرة كل أسبوع، وفي حالات نادرة مرتين، بعد انتهاء مهمة شراء اغراضنا الغذائية، كنت احب أن أمشي في الأسواق القريبة، إذا أترك اغراضي في نفس المتجر، او أمشي قبل ذهابي لمتجر الخضار والفواكه، وخاصة في فصل الشتاء واوائل فصل الربيع، حتى أنني كنت أذهب للمتجر ماشية، إذ كان سوق الخضار يبعد عن سكننا حوالي كيلومتر أو أكثر قليلا، ومسافة كهذه ليست طويلة ولا صعبة على سمحة، وخاصة حين يكون الجو لطيفا، كان ذلك المشي الصباحي يذكرني بنشاطي في مخيم عقبة جبر، لأن الغور هو ايضا حار صيفا، لكنه يكون مقبولا جدا وجميلا صباحا في الربيع والخريف، وبعض أيام الشتاء، وأغلب سواقي التاكسي في الكويت أيامها كانوا بدوا او فلسطينيين، وكلهم يحاولون التحدث مع أي امرأة بأي كلام، اسكت في البداية ويواصل البدوي كلامه وإلحاحه، يحرضني على التحدث، مع انني لا أحب التورط مع سائقي السيارات، فمعظمهم صيادون انتهازيون.

اعتادت سمحة على أجواء الكويت، وكيفية التعامل مع ناسها وتجارها نوعا، وبتوالي الأيام ازددت معرفة في الرجال في بلد لم أعرفه من قبل، إنهم يستغلون جهودنا لنعمر لهم بلدهم ونخدمهم، كي يرتاحو ويزدادوا غنى على ظهور اهلنا والغرباء، والثروات تنمو بين أيديهم ومن خلفهم وتحت أرجلهم في تسارع وتزايد عجيب، ونحن نكتفي بالطعام واللباس ودريهمات قليلة بعضنا لا يوفرها، بل يقلدهم في نمط حياتهم الاستهلاكي، ونعتبره في تراثنا تبذيرا، لكنهم يعتبرون انهم يريدون ان يمتعوا أنفسهم خلال العمر القصير، ولتعويضهم عن الحرمان الذي عانى منه آباؤهم وأجدادهم، حيث كانوا يعيشون حياة بداوة وضيق وفقر وضنك، والقوي فيهم يعيش على صيد الأسماك او الغوص في مياه الخليح بحثا عن لآلئ لا يتمتعون بها، بل يستغلهم تجار المجوهرات، ويبتاعونها منهم بأبخس الأسعار.

وفي أحد الأيام ذهبت للسوق ماشية، شعرت بحرارة وعرق لطول المشوار، وحرارة الشمس التي أصبحت قوية صباح ذلك اليوم، وخاصة وانني غادرت البيت حوالي العاشرة صباحا، فعرجت على متاجر الملابس، استعرض بفضول ولمعرفة بعض الموضات الجديدة، فصادف أن شاهدت امرأة جميلة تشبهني، ومما زاد من جاذبيتها كانت تلبس قميصا نسائيا وتنورة قصيرة، أعرف ان زوجي لن يسمح لي بزيارة السوق بمثل هذه الملابس، لكنني أحسست بالغيرة، ولماذا أظل محرومة مما تلبس النساء في هذا البلد، بقيت متجمدة لدقيقتين او أكثر، أتأمل تلك الحسناء وتخيلتها ممثلة سينما أو مغنية او أميرة، فقلت في نفسي، وهل حرام عليّ أن أتشبه بهذه الحسناء؟ وهل نضمن أن نبقى في الكويت؟

بحثت في السوق حتى وجدت تلك الملابس، فإذا بها فوق ما يحتمل زوجي وميزانيتي، غالية بدرجة لا أصدقها، البلوز بخمسين دينارا، والتنورة بسبعين دينارا كويتيا، إذ حسبت أن قيمة القطعتين تكفي عائلة أردنية تعيش بها شهرا كاملا، أجلت الحصول على ما تمنيت، لعل الله يفرجها عليّ، وأتمكن من تحقيق تلك الأمنية، وفي رحلة ثانية بحثت عن ملابس حديثة في متجر كبير، سحرتني الكثير من محتويات ذلك المتجر، وتمنيت لو لدي نقد كاف لشراء بعضها للتمتع بلبسها وإغراء زوجي درويش.

دعاني التاجر للجلوس وعرض عليّ شراباً كعادتهم حين يجدون امرأة جميلة، او امرأة تجرؤ على التحدث، بعدها دعاني لمكتبه، فسألني عن جنسيتي، ولما عرف أنني فلسطينية الأصل، أحسّ براحة وازداد جرأة، قال انتن الشاميات وبنات فلسطين جننتونا بأشكالكن وجمالكن ومنطقكن، تفهمن الرجل وتكلمنه بما يتمنى ان يسمعه، طلبت منه أن يخفض لي في سعر خناقات الصدر، والبلوزات الكاشفة، ضحك، ثم قال بعد ان تختاري ما يعجبك، سنراعيك ولا يهمك، وسنساعدك حين نحاسبك قدر استطاعتنا، أرتاحت سمحة التي في داخلي لكلامه، أحسست أنه يتفوق عليّ في خبرته بالتعامل مع الطرف الآخر، وجدت انني امام رجل خبير ومجرب، لاحظت أنه منبهر بشكلي، مع انني كنت ارتدي دشداشة ساترة وطويلة وعلى رأسي منديل اسود كبير، تطورت الأمور وازداد مزاحه وأنا أتأمل الملابس التي راقت لي، والصبي يحضر قطعة بعد قطعة لي، إنهم يعرفون المرأة طبعا، ويعرفون ضعفها أمام الموضة والجمال والإغراء، ثم وعدم قدرتها على مقاومة عروض الملابس الجميلة، قام صاحب المتجر بنفسه وبدأ يطلب مني أن أقوم لتجربة ما يعجبني في غرفة المقاس، دلني وقادني صوبها، وظل ينتظر، أعجبت ببعضها، ثم ركز يده على كتفي، وطلب مني أن أستريح على كرسي ريثما نبحث أسعار الشراء، زادت ثرثرته التشجيعية حين وجدني أحمل حمالتي صدر، وبلوزة مودرن كاشفة جمال جسد المرأة، وحين سألت الصبي عن أسعار ما أحمله، وجدت أيضا أنها فوق طاقتي على شرائها في ذلك الوقت، فتراجعت عن الشراء ووعدت بالعودة لهم في مرة ثانية، اعتذرت له أنني لا أحمل من النقود ما يكفي لشراء اي شيء في ذلك اليوم، وعليّ أن أعود للبيت حالا، لأن أطفالي ينتظرونني، فقال:

- لاتهتمي بأمر ا لدفع اليوم، اختاري ما يلزمك وليس شرطا أن تدفعي قيمتها اليوم، فيمكنك ان تسددي قيمة ما اشتريت بعد اسبوع او حتى شهر او شهرين، مرة واحدة او على دفعات، وإذا تأخرت، فسأطلب من سائقنا ان يوصلك لمنزلك، ونريدك ان تشتري من عندنا، حتى تدلي معارفك على محلنا.

وعندما اصررت على المغادرة، أشار للصبي أن يلف بلوزة حديثة وحاملة صدر من أشهر الماركات كهدية لي، ودعاني للعودة أي وقت أشاء، حاولت الاعتراض على الهدية، ولكنه منعني حتى من مجرد الرد او الكلام، بل حملها الصبي، واتجه لتشغيل سيارتهم لتوصيلي لمنزلي، اعتذرت للتاجر، وشكرته على شهامته وكرمه، وقلت له إنني لست جاهزة للعود للبيت هذه اللحظة فعلي شراء أغراض منزلية اخرى.

خرجت من محلهم التجاري الكبير والواسع، رافعة رأسي معتدة بتصرفي وحفاظي على شرفي وشرف زوجي، مع ان من عاداتي السيئة انني لا أجرؤ على مقاومة الرجل إذا أصر على التعامل معي بشكل خاص، لا أغري أحدا ولا أشجعه بسوء نية، لكن أثر طفولتي ظل مؤثرا على حياتي وشخصيتي.

إن انتصاري هذه المرة كان مكافاة كبيرة لي، وبداية لحياة نظيفة شريفة مستقبلا، لكن تصرفات الرجل كانت غريبة علي شيئا ما، أثنى عليّ وقال انتن الشاميات ملكات جمال، وفيكن من النعومة والأحاسيس ما يجعل الرجل ينسحر بنظراتكن وحركات اجسادكن، لم أدر وقتها ماذا عليّ أن أقول أو أفعل، يقولون (غزل الغريب حلو) حاولت ان أوقفه بإشارة بيديّ، لكنه جذب يدي وهزها بلطف وثرثرة، مكررا دعوتي لزيارة المحل كلما أصبح لدي وقت لزيارة السوق.

عشت حصار ثلاث سنوات في شقة في عمارة مع الأطفال والعمل والمطبخ والغسيل، لا أشكو ولا أتذمر، سواء قبل عودة زوجي أو بعد حضوره وراحته، حيث يعود درويش الطيب مرهقا كل يوم بعد الثامنة مساء، يأكل ثم يشعر بالنعاس وينام مبكرا، لم أكن ألومه ولا أفكر بالتنكيد عليه، فهو إنسان محترم هادئ لبق، يحاول إراحة هذا الجسد والتنفيس عنه مرة كل أسبوع قدر إمكانه،كان مدنيا ناعما حضاريا، لكنه يظل دائما مقطب الجبين، ويميل إلى الجد في معظم الأوقات، لا يعرف المزاح ولا تهيئة المرأة للفراش، وإذا كان مرتاحاً يمد يده ويمارس رغبته سواء كنت مهيئة او في فكر آخر، لا يناديني وأنا أعمل في البيت طبعا، بل يصبر حتى أقترب منه او بعد ان نذهب لغرفة النوم،اصحو فور وضعه يده على جسمي، مرحبة بتوجهه، أحاول أن اجد به لذة كبيرة، وأتمناه كل ليلة، وأحيانا وصل بي الأمر أن أتجرأ وأمد يدي اداعبه وأثيره حين ألاحظ أنه سيغط في نومه بعد قليل، فعلها في أوقات كثيرة، لكنه كان يضعف ويعتذر في بعض الحالات.

حضر زوجي درويش مرة مبكرا قرب السادسة مساء، تناول عشاءه معنا، ودخل غرفة النوم كي يستريح، تبعته وأغلقت الغرفة علينا، لمس جسمي فتجاوبت وخلعت ملابس البيت، لكي أزيد من تهيئة المجال له، تمددت بجانبه، وقبل أن ألتصق به مددت يدي ولمست صدره أداعبه،وأبعد من ذلك، رفع رأسه فجأة ونهض قائلا:

- يا ألله تذكرت ان (أبو دحام) المطيري ينتظرني في منزله، الله يلعن الشيطان، كيف نسيت، سأذهب له الآن لإصلاح خراب طارئ، وهو رجل طيب وكريم، ولا يحتمل الخراب يوما آخر، ولا أريد أن أفقد زبونا مهما مثل هذا الرجل، لأنني طلبت منه شراء الأغراض اللازمة. وخلال دقيقة كان قد فتح باب الغرفة وخرج يرتب نفسه ويلعن الشيطان الذي جعله ينسى ويعود للبيت قبل إتمام ما ارتبط به.

لم أجد كلاما مناسبا ارد على زوجي، لكنني احترت هل اعود للبس ملابس البيت او البس ملابس النوم وانام وحدي في الغرفة، تذكرت ان الأطفال سيقيمون الدنيا ويقعدونها لو نمت مبكرة في تلك الأمسية، لأنني لم أهيئهم لموعد النوم بعد. تمنيت لو كان زوجي شابا قويا، ليشبع هذا الجسد الملتهب للحب قبل مغادرته ولو لخمس دقائق كل ليلة، زوجي الثاني درويش إنسان طيب ولطيف وناعم لكنه يظل متعباً، يحس بشيء من هزال وهو يعارك الحياة ويتزايد معه مرض السكر في الخمسينات من عمره.

ولأسفي الشديد إن زوجي لا يعلم أن المرأة عالم ظلامي، يمكنك إنارته أحيانا، إما بشمعة او بمصباح قوي، فتهنأ او تتعلم، لكن المرأة لا تحتمل طول الإضاءة. فتبتلعك أرضها انت ومصباحك. يمكنك السير معها في الظلام، كأي حشرة او حيوان ، لكن ذلك أيضا لا يطول، فقد تتعثر وتصبح طعاماً للدود، أو تملُّ هي منك فتلقي بك خارج الحدود، و تمحي من الوجود.

**الفصــــــــل الثاني والثلاثون**

في الكويت نسيت زوجي الأول الساذج، وكدت أنسى ابنتي المعوقة، حيث عهد بها ابن عمي لوالدته للاعتناء بها، أدركوالدي أخيرا أنه كان مخطئا لإكراهي على الزواج من ابن اخيه الفقير، والغريب ان ابنتي المعوقة من ابن عمي لم تؤثر على شخصيتي تأثيرا سلبيا، إذ ولدت بعد أكثر من ست سنوات من زواجنا، مع انني لم أكن آخذ أي موانع للحمل، أما بعد زواجي الثاني من درويش وبعد مرور خمس سنوات على وجودي في الغربة ظل اهتمامي منصباًعلى ابنتي الجديدة من زوجي الثاني درويش وإبني الحبيب مسامح، ادللهما في محاولة لان يعيشا غير محرومين في طفولتهما مثلي، وفي أفضل مستوى من عيش الطبقة المتوسطة.

لم تتغير مواعيد ذهابي لشراء اغراض المنزل عن ذي قبل، وزوجي سرّ من تعاوني معه، وتخليصه من مسئولية تأمين الطعام للعائلة، لتكريس جل وقته للعمل والآنتاج وزيادة دخلنا.

ندمت كثيرا بعد المرة الأولى مع ذلك الرجل البدوي الكهل، لكنني تذكرت أنني أكرهت على ذلك في طفولتي وتألمت، وشبهت تلك المرة بفعلة صاحب المزرعة الذي أهدر بكارتي، ودون أن أشعر برغبة في ذلك، بل تألمت وعانيت بعدها الكثير انا ووالدتي في تطبيب الجرح وصيانة جسمي، لكن فعلة الشيخ ابو لحية تركت أثرا مغايرا نوعا ما، عاينته وهو مهتم ومتلهف، وشعرات لحيته ترتجف، كان نشيطا مخلصا في طيش وتعجل، تأكد لي بعدها ان الجنس هو سلطان متحكم بالرجال، وتذكرت أيضا أنه حاول زيادة تأثيره عليّ، على أمل أن أحس أن أمورنا تجري بشكل طبيعي في متجره. وأظنه أنه صار يعتبرني كوصيفة له، يدخلني في غرفته الخاصة في الطابق الثاني فوق المتجر، كلما زرته لشراء أغرض البيت، بمعدل مرة في الأسبوع أو كل اسبوعين على الأكثر وكأنه مهيأ هو وغرفته الأعلى لذلك، احمل من متجره ما يروق لي من الخضار او الفواكه دون أن يلتفت الرجل لما حملت، وكأنني فرد من أسرته، فكان ذلك يتم دون مراقبة منه او اهتمام لما افعل، صرت اوفر ثمن الخضار لي، كي أشتري به مصاغا ذهبيا، او أساعد والدتي حين نزور الأردن كل سنتين، انتقدت العجوز مرة على كرسي قديم عنده، فوعدني بتغييره، وفي مرة ثالثة وجدت انه اشتري اثاثا جديداً كاملا لمكتبه في الغرفة الخاصة، وحين سألني عن ابني من زواجي الثاني، أبلغته انني أعز ابني كثيرا، فصار يشتري له الحلوى والألعاب، ويناولني خمسين ديناراً كويتياً لشراء حاجات ابني، فوق ما أحمله من متجره من الفواكه والخضار، أكذب على الولد والبنات قائلا أنني اشتريت الهدايا لهم، فيعاتبني زوجي على هدر الفلوس قائلا: (لا أريد أن تضيعي الفلوس على الألعاب او الحلوى، فلنهتم اولا بتغذية أطفالنا حتى يكبروا وتبقى صحتهم جيدة) قلت له: لا تقلق، إنني لا أطلب منك اكثر مما تعطيني وأنا أتصرف وادبر نفسي، وها انت ترى انني لا أخص ابني أو ابنتي بما أحضره، بل جميع أطفالك يشاركون ابننا ويفرحون بما أحضره لهم، وحين عرف العجوز صاحب الخضرة أنني فلسطينية، قال اه يا فلسطين يا بلد الطيبات، يابلد القوة والسحر والمعجزات، كم كنا ساذجين قبل نكبة فلسطين، كنتم الضحية فمن مصائبكم التي حلت بكم، وعلى يدكم تعلمنا الكثير الكثير.

برغم عدم رضاي عن كل ماحدث معي في اسطورة حياتي، إلا أنني كنت احذر دائما من النهايات، واخشي سوء العاقبة، فبقيت أتحقق وادقق بكل خطوة أخطوها أو اضطررت لها، لم أكن يوما ما راغبة او مخططة للوصول لأي رجل في هذا العالم، ثم لم أسع برغبة إلى اختيار الخطيئة بنفسي، بل كانت حياتي كلها مفروضة علي، وتعلمت أمورا كثيرة عن الحياة والناس والرجل بشكل خاص، فهل يعرف الرجل كيف يتعامل مع المرأة يا ترى؟ لكنني أتعجل فأقول للرجل، إن المرأة الحقيقية هي الأمور التي لا تفطن لها، وهي الشيء الذي لا تراه.

أما أهم ما استفدته في تعاملي مع الرجل، فهو الحرص وعدم التهور من تلك التجارب التي مرت بي، عرفت إن من يحاولون التسرع والقفز إلى النتيجة النهائية هو نشاط محفوف بالمخاطر دائما، مثل القفز عن صخرة عالية، أو قفز غبي لقطع سكة الحديد قبل مرو قطار سريع، فقفزك عن صخرة عالية، قد يجعلك تعاني من آلام الرض او تعطل المفاصل، او الكسور، إلا إذا كنت اتخذت احتياطات كافية، كأن تقع على فرشة من قش او قطن سميك ، اوتقع في بحيرة أو بركة ماء، ومغامرتك بقفزك فوق سكة الحديد قبل وصول القطار السريع بثوان، فإن سلمت من الموت دعسا، فهناك فرصة أن يصطدم رأسك بحجر او بالأرض، وتعاني من آلام لا تعرف مداها، هناك دائما خطرمن تعرضك لصعوبات وعقبات لا تقوى على تجاوزها، قد تقع في شركها، وتنشغل في أوقات طويلة لمحاولة الخروج من مأزقك الجديد متعطلاً، بدل التقدم والحصول على ما كنت تريد.

بعد عودتي مع زوجي درويش للعيش ثانية في الأردن بسبع سنوات، تزايدت الأمراض على زوجي، وعطلته عن مواصلة العمل والانتاج، لكن أولاده من زوجته المتوفاة، كبروا وصار بإمكانهم العمل وإعالة انفسهم، ولحسن حظهم وحظي انا نفسي، ظل عمهم واقفا معنا، ومستعدا ليساعدنا، ويساعد أولاد أخيه على الحصول على وظائف تناسب هواية وثقافة وإمكانيات اي منهم.

بعد موت زوجي الثاني درويش، لم نغير مكان سكننا، بل بقينا في منزلنا المستأجر والمريح في عمان، وبرغم أنني كنت في اوائل الخمسينات من عمري، إلا ان صحتي وشكلي مازالتا محل إعجاب الناس، وما زلت انا نفسي احس بحب الحياة والسعادة والرفاهية، وطمع الآخرين بي كان لافتا لي، وبسبب طمع بعضهم في ثروة ومال خلفه زوجي لي، ربما كان هذا سببا لدورانهم حولي، وعلى الأخص من أقاربي، أو أقارب زوجي، لكنني لا أنكر ان لجسمي وشكلي وجاذبيتي كما تردد كان الأثر الأكبر، لم أعد أهاب الرجال ولا أخشاهم، صفة اكتسبتها بالخبرة والمراس مضطرة او برغبتي، لكنني دربت اطفالي على التسامح والطيبة واللين، أولاد زوجي صارو يعملون في وظائف مختلفة، ولا يعودون للبيت الا متأخرين ليلا، ليرتاحوا من أعمالهم ووظائفهم غير المريحة، وتزوج ثلاثة منهم في حياة والدهم رحمه الله،، وبعدها بدأ المرض يقوى على زوجي، حتى سافرت روحه إلى بارئها.

ظلت الشقة الواسعة مأواي انا وابني وابنتي حتى بعد أن تزوج ثلاثة من أبناء زوجي وانفصلوا عنا، وسافر اثنان للخارج، بقي عندي ولد واحد نجح في الثانوية ودخل الجامعة، اما إبني فظل مدللا، والده لم يتشدد معه، بل أفسدناه كلانا بتدليله، لم نمنع عنه اي طلب، ولم يفكر والده رحمه الله يوما بمعاقبته او تخويفه، فلم يفلح مسامح في النجاح في الشهادة الثانوية، فتعلم مهنة على أمل أن يعتاش من ورائها، لم أستفد من أبناء زوجي الا النزر اليسير، ولا لوم لنا عليهم، إذ صاروا مسئولين عن اسرهم، ولا مجال للضغط عليهم ولا حق.

اعتدت على انسياب سيل النقود بين أصابعي، وبقيت أعمل على الحفاظ على ما توفر لدينا، حتى تبقى الثروة الموفرة لسنوات العجز والشيخوخة والمرض، ومرض زوجي الطويل أنقص الكثير من توفيره، فصرنا نعيش على انتظار ما يساعدنا به الرجل الطيب شقيق زوجي، كان المستنير من رجال أيام زمان، حيث المبادئ والقيم والأخلاق والشهامة، حين شاهد أخاه مريضا، تعهد بمعالجته وجميع أدويته حتى توفاه الله،وأبقى التزامه الشهري بتحمل أجرة الشقة التي نقيم بها، حتى بعد أن زادت عليه مسئوليات اسرته، لم نتوقع أن يجعلنا نعيش في بحبوحة من العيش بعد وفاة زوجي درويش، بل واصل دفع مبلغ إيجار الشقة وستين دينارا أخرى فوقها، بدأ ابني يعمل في سن مبكرة، بعد فشله في الثانوية العامة، كنت قد اعتدت على الصرف الزائد، فما عليّ إلا أن أجد مصادر أخرى إضافية لتريحني نوعا ما، نجحت في التعامل مع وزارة الشئون الاجتماعية بواسطة احدهم، فخصصوا لي راتبا شهريا بسيطا، لكنه كان داعما ثابتا لي.

أصحو متأخرة صباح يوم ربيعي، فأخرج وأقف على الشرفة الجنوبية الصغيرة، أرقب الأشجار وحركة السيارات والمارة في حارتنا، ولأن العمارة مكونة من أربع طوابق، فيمكننا أن نرى الشارع العريض العام، وأسمع تغريد الطيور وحركات طيرانها من غصن إلى غصن، ومعظم بيوت المنطقة فيها حدائق صغيرة مزروعة بمختلف انواع الزهور والفواكه، في تلك اللحظة شاهدت دحام قادما، ابتسمت وقلت حضر الطائر الطارد، احسست بنشاط زائد في جسمي، وكأنني أهم بالتحليق، ولوجودي على شرفة في الطابق الثالث، أو انني يمامة تنتظر حبيبها او صديقها، فولجت للبيت مسرعة، ولبست ملابس استقبال لكن دون مبالغة ولا تجميل، غسلت وجهي جيدا ورتبت شعري، يزورني دحام بحجة أنه يكشف على عداد الكهرباء، او ساعة الماء، دحام صديقي القديم، لكنه كبر كثيرا، وصار عجوزا، نجلس وحدنا نتسامر ونشرب الشاي، وخاصة حين تخرج زوجة ابني إلى السوق او لزيارة والدتها، وقبل أن نبدأ اي حديث، يتذكر أن يناولني أربعين او خمسين دينارا اول كل زيارة دعما لي حتى لا أتضايق او أضايق ابني الذي تزوج، يحلو الجو بعدها، وتعلو ضحكاتنا وتطول زيارته ساعة وحتى ساعة ونصف، نمزح ونمرح ونشرب الشاي والقهوة ثم يغادرني قبل حلول الساعة الثانية عشرة.

كنت ألمس ان صاحب العمارة التي نقيم بها لديه إحساس بشك بي، لكنه لا يجرؤ على معاتبتي او سؤالي عن معارفي، ونظراته كانت توحي لي بأنه يدرك بعض أسراري، او كأنه مطلع على ما قد يحصل، ولكم فكرت كيف أبرئ نفسي، وكيف أستطيع إقناع صاحب العمارة بأن زائري هو للصداقة والمحبة، وليس لي وله اي حاجة او رغبة في حاجات الجسد المحرمة، لكنها الحاجة للمادة وللإنفاق على ابنتي وابني، وهذا جعلني أغفل عن معاناة مثل هذا الشعور، كي اواصل إطعام طفليّ اللذين صارا يكبران بيسر، وبصراحة أبدى كثيرون رغبتهم في دعمي ومساعدتي، ولا أدري كان ذلك تطوعا ومحبة في الله، ام لهم مآرب أخرى، لكن وحتى أسكت الجارات وارشوهنّ، واصلت ترضيتهن بالكرم، عملت من بيتي شبه مضيف لهن، يحضرن كل يوم او يوما بعد يوم لشرب القهوة الطازجة عندي، كنت أشتري افضل انواع القهوة وأغلاها، ليس هذا فقط، بل كنت أحرص ان يكون في بيتي اشكال من الحلوى والمعجنات، فيأكلن ويشربن ويستمتعن، ولكنني لم أكن أغفل أن أوقعهن بأحاديث تضطرهن بمصارحتي كيف يتعاملن مع ازواجهن، وكيف يعاملونهن ليلا وفي الفراش، عرفت الكثير من أسرارهن بهذه الطريقة ضمنت أن لا تجرؤ اي منهن انتقادي او محاولة الكشف عن زواري لو شاهدت إحداهن دخول احدهم عندي من نوافذ شققهن، او راينه خارجا، ففي كل مرة آتي بسبب له علاقة بالشقة وما يلزمها من ماء وكهرباء واثاث وصيانة. وحتى أضمن أن لاتشي بي زوجة صاحب العمارة، أدخلتها في زمرة المعجبات بي، واعطيتها حرية التحرك في بيتي، وفعل ما يحلو لها في شقتنا، وكانت تحب طبخي، ويعجبها مذاق اطعمتي، فصارت تطبخ لزوجها ليأكل وحده او مع اولادهما، اما هي فتأكل وجبة او وجبتين كل يوم في منزلي، مما جعلني اطور علاقاتي كما يلزمني.

**الفصــــــل الثالث والثلاثون**

هناك فرق بين ما تفكر فيه وبين ما تفعله، فإذا كنت تفعل شيئا تريده، وفكرك مشغول بأمر آخر، فستجد انك في ورطة، وعملك فيه اخطاء، كمن ينتظر رغيفا حتى يأكل خبزا طازجا ساخنا، لكنه يفكر كيف نصنع كرسيا أو يغمض عينيه ليرتاح قليلا، فسيصحو على رائحة خبز محروق بعد قليل، هكذا كل حياتنا، التركيز الصحيح او القراءة الصحية او الاستعداد الصحيح، للتقدم والوصول للأمل، اما ترك الأمور تسير عكس ذلك فهي الخسارات والندم.

رزقت بولد وبنت من زواجي الثاني ونحن في الكويت، راقت لي السكنى في عمان بعد اضطرارنا لمغادرة الكويت، وظلت علاقتي تتحسن بالجارات، زوجي ظل مريحا ليويثق بي، ولكن بعد وفاته حظيت بحرية لم يتيسر لي مثلها من قبل، فقد أصبحت امراة ناضجة، وعندي بيت مستقل وأطفال، وصار بيتي مفتوحا للجارات، وحتى بعض الرجال ممن لا شبهة في زيارتهم مثل جابي فاتورة المياه ، اوجابي الكهرباء أو جابي التلفون او آخرون من موظفي البلدية، والمهنيون مثل دهان او كهربائي.

بعد أن كبرت تعلمت كيف أدافع عن نفسي، وكيف أصون كرامتي وأحمي شرفي، وها أنا أعيش في بحبوحة من العيش، ولا ينقصنى إلا رضاء ربي، ولقد منّ الله علي بحجتين، الأولى منهما كانت على حساب محسن، حسبما وصف عمله هذا، لكن الثانية كانت على حسابي ومن توفيري، وأؤكد إنني أصلي وأصوم وأقوم بأمور ديني.

بعد عمر الستين عشت سنوات جيملات، كنت ما زلت جذابة نوعا ما وبصحة جيدة، فاستمتعت بحياة الشرف والسلام والكرامة والاستغناء عن حاجتي للرجال بدافع من نفسي في أعماقي وبقناعة ، لم اسمح لمخالفة هذه المشاعر إلا مرتين، إحداهما كانت مع صديق قديم عزيز جدا، وقف معي ايام الشدة والظلم والظلام، مع انه سبق وطلب مني أن اطلق زوجي مرات عدة ليتزوجني ونعيش معا حلالا ونظاما، لكنني رفضت بإصرار لأسباب كثيرة، كان متزوجا وله خمسة من الأولاد والبنات، ولي ولد وبنت، فلن يستطيع أن يسعدني أو يسعد أهله السابقين، رفضت قاطعة هذا الأمر، اضطر الرجل بعدها أن يقبل ما أريد حسب رغبتي، بدأنا نتذاكر على الهاتف، وأشبعني من معسول كلامه الذي سبق واعتدت عليه، فرقّ قلبي له بعد إلحاح، لكنني ندمت، وأخبرته إنني صرت احترم جسدي واحبه، فهو ملكي الخاص، ولا يملك سلطة عليه اي مخلوق بشري سواي، وانني اتمتع بحرية واحترام، فقراري النهائي هو صيانة جسدي والاحتفاظ به لي وحدي فقط بعد وفاة زوجي، لم أعد بحاجة لا للمال ولا للرجال، المهم لا أدري كيف نقع نحن النساء، طاوعته مرة وتابعت رغبته.

ذلك الإنسان هو الوحيد الذي أحببت الأوقات التي قضيناها معا، أحسست انني انحذب له، ويبدو لي ان لديه حس وانجذاب أمين لهذا الجسد المتوقد للحياة والفهم، تمنيت أن تطول تلك العلاقة، لكن الظروف كانت اقوى منه ومن جهوده بكثير، وأنا اعرف انني لست مؤهلة لأكون شريكة عمره، فاطفالي الثلاثة يحتاجونني، وكلام الناس سيكون اشد من وقع الحسام على نفسي وعقلي وسيرتي. التقت عيوننا، فرأيت عينيه مفتوحتين مندهشا، وانا انتظر في شبه استسلام وترقب، حرج على غير العادة، لا أعرف ماذا أقول ولا ماذا افعل، ولا كيف اتحرك كي لا أشعر بأنني رخيصة او مبتذلة، إنني لم ولن ألاحق الرجال للمال ولا للجنس الرخيص، إنني إنسانة احب الحياة كما خلقنا الله، وليس ذنبي ان جسدي جميل، ولست مخطئة أنني احب الحياة والجمال والأمان، وليس ذنبي انني نشأت طفلة خبرت الكثير من المخالفات والاستغلال، لكن هذا لم يجعل مني امرأة ساخطة على العالم والمجتمع، بل رزقني الله بعقل سوي والحمد لله، فلم اتابع الشرور ولا الآثام، بل هي الظروف التي ظلت تلاحقني، وتثير فيّ الانجذاب للتجارب، كنت مكرهة او مضطرة في كل ماحصل معي في طفولتي، لكنني صرت اعرف قيمة الحياة اكثر بكثير من اي امرأة عادية عرفتها او تعاملت معها، إن المرأة العربية إنسان مضغوط، تقع تحت تأثير الرجل ورغائبه، وتعاني الاستغلال في كثير من رغباتها وحاجاتها وكرامتها، كل هذا جعلني أتذكر وافكر في تصرفاتي لمراعاة كوني ارملة واما لأطفال ابرياء يحتاجونني، وعلي أن أقوم بدور الوالدين بتوازن، على أمل ان يجد أطفالنا مجالا مقبولا لحياتهم مستقبلا، وأعز مالديّ هذا الطفل الذي أكرمني الله به في آخر حمل، وهو سويُ ذكي، برغم انه لم يكن مجتهدا في المدرسة، لكنه يحبني ويطيعني، فهو نور عينيّ اللتين ارى بهما، ومرافق لنبض قلبي الذي لا يهدأ مادمت على قيد الحياة. أثارني صديقي القديم بنظراته، فشعرت بانجذاب له، وكأنني أقترب منه قليلا قليلا، او ربما هو ا لذي كان يقربني منه، كانت كل مشاعري مركزة على عينيه وملامح وجهه، فلم أتذكر ما جرى، وكأن بقية جسدي أسفل عيني لم يكن مني، او هو الذي أصبح مالكاً لهذا الجسد، نعم كنت أحس بدفء وشوق غريب، ولذة بين كتفيّ وصدري وعمودي الفقري الداخلي، لكنني لم ادر هل أجلس على كرسي او أبقى واقفة نعم أحسست بجسده يقترب من جسدي، وأحسست بقوة تدفعني او هي تجذبني للاقتراب منه، ظلت نظراته تثيرني، تمنيت أن يطفئ مصباح الغرفة، كي أحس بحريتي في الظلام، مددت يدي أشير للضوء، فهم مقصدي، سرعان ما وصل اصبعه وأطفأ المصباح القوي، وبقي مصباح ضعيف أخضر يميل للزرقة، بدت ملامحه اكثر جاذبية، ولا أدري كيف يراني، علا تنفسه وانفرجت شفتاه دون وعي منه ربما، وكأن شفتيه في خلاف وعدم توافق او هو نداء غامض، او انهما مخلوقتان تبحثان عن ضالتهما، لأن كل واحدة منهما تريد جاذبا مختلف القطب، فالعتمة الساحرة وقتها أصبحت شافيا لحيرتي وقلقي،والضوء الخافت جعلني أرى جماليات العالم وأعماق غموضه اللذيذة، ازددت تأملا ورغبة في متابعة الفيلم، أدركت وقتها أن كل مخلوق به جماليات غامضة خفية عن العين يصعب تقليدها او نفيها، فجأة وجدت أن يديه تسندانني، وتزيدان من إحساسي بالانجذاب نحو تمثاله الماثل امام ناظري، والخجل يختفي قليلا قليلا، يطوق عنقي، وبدأت أحلم، انني لست في الغرفة وقتها، جسدي يحس بارتخاء، وأضعف عن مواصلة الوقوف، أغرق في بحر من أنفاس وعرق ودفء يحيط بي ويحتويني، إنه جو غامض عميق، تمنيت ان ابقى يعيني مفتوحتين، لكنني احسست بارتخاء وبي رغبة لإغماضهما، وفي راحة شبه مطلقة، اكتشفت انني في حضنه وهو يجلس على طرف السرير، ضغط علي قليلا وبرقة وحنان، محاولا ان يقربني له اكثر واكثر، او ربما هو تداخل الجسدين وامتزاجهما، تتعمق لمساته وتتواصل كأنه يسرقني قليلا قليلا، ليرضي جميع أجزاء جسمينا وأنا مطاوعة مرتاحة مرتخية، لا أملك قوة لأفعل اي شيء، يداه منشغلتان بمعالجة ملابسي، وبدأت أشعر ان جسدي يتنفس هواء منعشا دافئا.

وبرغم ارتباكي كنت كقطب مستقبل جيد للمساته وتخطيه كل الحدود، أغرق في عوالمه، وتنتابني موجات من القشعريرة الغريبة التي لم اعهدها بمثل هذا من قبل، أنفاسي تزداد ترددا ومعها نوبات من حركات لا إرادية، أحاول أن أخفيها، أوأجفل لأخفف من غبائي وسخافتي، فيهدهدني بلمسات تعيدني لعالمي الغامض، لم أشعر بمثل ذلك التمازج من قبل، وحين علت أنفاسه وشخيره، وجدتني اصرخ، لأهدئ من جهنم التي كانت تحرقني، أحسست نوافير تنبع من كل مسام جسدي، مما زاد من جرأتي او هي غفلتي وجنوني لألتصق بذلك الأنسان ثانية، أتعلق به وأزداد التصاقا ولجوءاً لينقذني من ذلك الجحيم، أو لعل روحي ترتد لرأسي وجسدي، وعلى امل أن أصحو من حلمي الذي لم اعرف مثله من قبل.

في تلك اللحظة صرت اعرف طعم الحياة الحقيقية في جو الأمان، ولطلما تمنيت لو أستطعم نكهة الاندماج مع من أحب.

كانت خاتمة نشاط تمردي،صرت بعدها لا أنتظر مرتادا او متطفلا، مهما بلغت مكانته في قلبي، ومهما احترقت تشوقاً.

أقفلت جميع الأبواب والمنافد لهذا الجسد، وبدوره ارتوت هذه الروح المتمردة، فعادت إلى ما أمرنا الله به، لأسمو بروحي وووجودي إلى عالم سوي نقي، صرت أحسّ براحة ويتزايد إيماني يوما بعد يوم، والحياة أساسها القناعة والحرية، ولأنني كنت مالك هذا الجسد وما زلت، لا سلطة لأحد عليه إلا عقلي، شعرت بأن الأوان قد حان لعيش نظيف، لا أحتاج أحدا، ولا أريد أن يحتاجني او يجتاحني أحد، اقتنعت بأن الحب لهيب لا يهدأ لو تابعته، فالنفس حين تحب أو بعد أن تقع في المحبة، لا يرضيها حد من الحدود البشرية، فهي كالنا، (تقول هل اكتفيت فتقول هل من مزيد).

جسدي يتراخى ويشكو من بعض المتاعب الصحية، والتي لا بد منها لكل مخلوق إن كبر، والشيخوخة المبكرة مرض، وخاصة حين نحسّ بها، مع إن مشاعري ظلت نشيطة، بدأ الزمن يشاغلني بهمومي الصحية والآلام في أكثر من موقع في جسدي، والأطباء والعيادات الصحية صارت مطلبي، ومع هذا بقيت لا أحب السهل او الخضوع أوالهبوط، بل علي أن أن أواصل صعود التلال الوعرة والطرق الضيقة والبعيدة، لعلي أحس بنكهة الحياة الطبيعية، حرة لايمسسني بشر بسوء نية او غرض جنسي، في بقية العمر الذي سيتيحه الله لي.

**الفصــــــــــــــــــــل الثالث والثلاثون**

قارئة الفنجان

عاشرت الكثير من السيدات والجارات في المخيم وفي الكويت وفي عمان بعد انتقالنا لها، وأكثر من ذلك بعد إقامتي في عمان ثانية، وجدت قلة من الناس يحبون نقل الأخبار السيئة، وخاصة الجنس اللطيف، ما إن تسمع إحداهن خبرا وحتى دون تأكد من حصوله حتى تدور بين الجارات تحكي عما سمعت من خبر سيء، وحتى لو كات في بقالة، لا تنسى ان تقول سمعت عن بعض الناس ان ابنهم وقع وانكسرت ساقاه ، او إن بعضهم سرق عشرة كيلو تفاح من بستان جارهم، وربما قطف حبة واحدة اشتهاها عن شجرة الجيران، او لو شاهدت صورة حادث انقلاب حافلة، والركاب على الأرض، سرعان ما تنقل الخبر قائلة اسفر الحادث عن مقتل اكثر من عشرة أشخاص شاهدت جثثهم على الأرض، اما عن الشرف والسمعة السيئة فلا تسأل فهي مهندسة تتقن سبك الحكاية لتجعلها مخزية او معيبة لدرجة الاحتقار، مع ان ما شاهدته او سمعت عنه ان فلانة من الناس تتحدث مع رجل عابر، قد يكون طلب شربة ماء، او سأل عن مواطن او مفقود.

حتى حين تدخل حافلة للذهاب للسوق او للسفر لمدينة اخرى، ستحتار اين تفضل الجلوس هل بجانب النافذة، او على الطرف مع الممر، او في المنتصف بين اثنين.

حياتنا فيها خيارات، ولكل خيار ميزة وعيوب، فإن كنت على النافذة الزجاجية الشفافة فسترى الخارج بوضوح وتتأمل الكثير من المستجدات والأمور الجديدة، ولكنك سترى ايضا الحشرات التي تضرب الزجاج، وسترى سرعة غروب الأماكن والجماليات وهروبها منك، وستجد صعوبة كبيرة في الخروج من موقعك.

وعندما تأخذ الكرسي الواقع على الممر، فسيكون بإمكانك التمدد وأخراج قدمك وتهويته في الممر اثناء سير الطائرة او الحافلة، ولكن ستجد ان كل من يمر سيحتك بك، وقد يدوس على قدمك او يصدمها، او قد يميل عليك بثقله وعلى كتفك ليتماسك حتى لا يتعثر.

وإن اتخدت جلستك في الوسط، فلا تحصل على الميزات التي سيجدها الطرفان، وستجد انك متضايق من اليمين ومن الشمال، وقد لا تجد ليدك متكئاً، ولو نعس اي من الشخصين من الجهتين او غفا، فسيتكئ عليك، وربما تفكر مرة ثانية بعدم السفر، أو أن تركب حمارا او تستأجر حصانا تركبه لتقضي حاجتك، دون اللجوء للمواصلات مع الناس الآخرين. ، او تمشي منفردا، إن كانت المسافة معقولة وتستطيع تحملها.

الحياة طرق متشعبة، تجد نفسك في طريق سهلة في بدايتها أحيانا، لكن بعد سلوكها تبدأ صعوبتها بالظهور، تجد نفسك مضطرا لمواصلة السير بها، لأن الرجوع يصبح أصعب عليك من مواصلة التقدم، وتغيير الطريق أكثر صعوبة عليك أيضا، وتخشى ان تضطر لصعود طريق اشد قساوة من تلك التي وجدت نفسك فيها.

لم أكن ليهدأ لي بال إلا إن أجمع الجارات عندي في منزلي على القهوة وبعض الحلوى، في مثل تلك اللقاءات كانت البهجة تغمرني اولا، بل تغمرنا جميعا ونحس بمزيد من سعادة ورضى، وخاصة حين تحضر قارئة الفنجان لزيارتي، كل شهر او كل شهرين، وإن تأخرت أوصينا بعض النساء لإبلاغها كي تتذكرنا وتعود لتزورني.

مشكلتي انني إذا شعرت بوجود قليل من مال في يدي، لا أستطيع حفظها ولا تأجيل صرفها، وحين أحس بملل او تعب من الخروج لشراء حاجات البيت، أفكر باستدعاء قارئة الفنجان، لنشرب القهوة معا، ونقضي ساعة او ساعتين بحضور بعض الجارات من صديقاتي المقربات، نتسلى ونتحدث وأحيانا نغني ونرقص وكأننا في حفلة عرس وفرح، يتم توافقنا على ذلك عادة، ونحاول ان نحيا حلما نشترك في تخيله، لأن المرأة العربية عموما، هي بين شقى الرحى كما يقولون، رحى التقاليد وتحكم الزوج، وقيود الأهل والمجتمع، ومعظم حقوقها مهضومة، لذا نتلهى بأمور بسيطة او تافهة، على أمل أن ننسى او نتغافل عن التهميش الذي نعانيه، وخاصة ممن يدّعون تمسكهم بالتراث والتدين، لكننا في أعماقنا نحسّ بأننا ننتقم لذواتنا، مما يحيق بنا من ضيم او إغفال لدورنا في حياة الرجل والأسرة، كنت أقدم لقارئة الفنجان ما استطيع من إكرامية مما أحصل عليه كما جرت العادة، أشعر براحة نفسية، وخاصة وانني اكتشفت ان قارئة الفنجان ليست سعيدة ولا مطمئنة ولا مرتاحة في حياتها، لم تخبرني بذلك بنفسها، بل سألت عنها جاراتها، فشرحن لي أن حياتها مزرية في بيت ابنها ومع زوجة ابنها المتعالية عليها، والتي لا تكن لها احتراما ولا تحب ان تراها في بيتها، تماما مثل كنتي زوجة ابني، التي تتمنى ان اغور اربعين طبقة تحت الأرض، حتى لا تسمع بي ولا عينها تراني، وكثيرا ما تمنت موتي في نفس اليوم الذي نتصادم فيه او يقع الخلاف بيننا، وهنا كنت أذكر قول قارئة الفنجان، التي تقرأ حظ الناس لهم، وتنصحهم كيف يخرجون من مآزقهم، لكنها لا تعرف كيف تخرج هي من مأزقها، وتكرر قولها في مرارة وضعف، ((مهما كنت مثاليا ستجد من يكرهك!حتى الملائكة تكرهها الشياطين)).

في كثير من الأحيان أشعر انني تطورت كثيرا، وتوسعت مداركي، حتى أنني صرت أنشد الجمعات والجماعات، صرت كلما سمعت عن اجتماع لنساء في أي مكان، اركب سيارة التاكسي وأذهب لحضور العرض او الندوة، كنت أنتبه لكل ما يقال وما يبحثونه، فأحسّ بأنني أتغير، وأشعر ان الحياة لها طعم مختلف، فالعلم بأي شيء خير من الجهل به، وبدأت أحاول ان أشارك بحضوري في أي جمعية نسائية يعلن عنها، او ندوة او لقاء، وحتى لو كان الحفل مختلطا، فأجده أكثر بهاء وجاذبية، فأنا بنت الرجال، وأحب الرجال، وكما يقولون إن المرأة شيطان لا بد منه، ونحن نقول إن الرجل شيطان لا بد منه، نعبث به، وحتى نتلذذ بذلك اللعب، وأوافق مع من قال (إن الحب لذة تعذبنا، ولكننا نستلذ هذا العذاب)، كانت تلك اللقاءات وحضوري لمثل تلك الجمعات، بديلا وحافزا لإيقاظ الوعي في عقلي، وزودتني بالكثير من المعارف، وأدعو كل امرأة أن تشارك وتمارس مثل تلك النشاطات الجمعية، لأنها ثقفتني بالكثير من المعرفة.

مع ان وجودي مع ابني، يجعل كنتي تعيش حياة سهلة لا ينقصها أي طعام او حلوى أو لباس، وكما تحلم اي شابة مثلها، لأجل ابني ولأجل راحته لا أجعلهم يحتاجون أي إنسان، ولا ينقصهم شيء او غذاء او فاكهة في البيت، بسبب تضحياتي وإنفاقي كل ما أستطيع الحصول عليه لإراحتهم ولاستمرار قبولي تحت مظلة ابني، أحاول أن أظل متماسكة متمكنة، وأحاول أن لا أتدخل في حياتها ولا مع ابني الوحيد، حفاظا على صحته وحياته ومعنوياته، لأنني اعرف جيدا أنها امرأة شريرة، تستطيع فعل الكثير من الموبقات والأفعال الشائنة خفية عن ابني، وتتهمني بالفجور والفساد والتدخل في حياتهما، ولأنني خبيرة وأستطيع اكتشاف ألاعيبها، فهي تعمل جاهدة وفي كل الأوقات على إدخال فكرة القطيعة في عقل زوجها، كي يقبل فكرة إبعادي والإنفصال مع زوجته عني، لكن لأن كل ما يهمني في هذه الحياة هو حياة ابني الوحيد، وحياة ابنائه اطفالها، مع انها تحاول دائما ان تبعد اطفالها عني، وتتحدث لهم ضدي.ولا أملك أن أكرر كلام قارئة الفنجان، مهما كنت مثاليا ستجد من يكرهك!حتى الملائكة تكرهها الشياطين.

وماذا تتوقعون من امرأة عجوز اكثر مما قلت، فهل تتسع عشرة كتب لسيرتي حياتي وأخباري؟ الا يكفي كل ما مرّ؟، الذكريات كثيرة وتزداد كلما ازداد عمرنا، نحاول أن نخفي الكثير من حياتنا، والحمد لله على نعمة النسيان، كثيرون يلعنون النسيان ويخافون من مرض النسيان، لكن النسيان مرهم لما نختزن من هموم وتجارب مريرة، ولو بقيت متذكراً لكل ما مر بي، فستسحقنا ذكريات الألم والندم، لهذا أقول بعد كل ما مر إنها حياة امرأة عجوز لا في العير ولا في النفير، اكاد اكون امية، ولا اثر لي في الحياة، ولا يعلم احد انني عملت شيئا يستحق الذكر، فحياتي كلها قدرية، لم يكن لي أي تخطيط او تصميم او برمجة لتتجه حياتي بموجبها، وكل ما قلته وما بقي مما لم أقله من مواقف سلبية ولى ولن يعود، لا في نظري ولا في طبيعة الحياة، نعم أعترف انني كنت في موقع المتأثر من الآخرين، حتى لو حاولت تحوير بعض المواقف، لأخفف عن نفسي وأقلل من همومي ومشاكلي، ولأشعر ربما بأنني أحيا كغيري في هذه الدنيا، لكنني أؤكد أن الآخرين هم الذين طبعوا حياتي بهذا الأسلوب الذي ذكرت جوانب بسيطة عنه، ولا أظن انني سأتفوه بالمزيد بعد ذلك، واللبيب من الإشارة يفهم، إن مجتمعنا معطوب، مجتمعنا مجتمع نفاق وزيف، وكما لمست وعشت وقلت، إن المخفي دائما اعظم بكثير مما يعرف الناس ويشاهدون، وربما حياة غيرنا من الشعوب هي كذلك، او أشد قبحا واسترسالا في الهزيمة النفسية والتصرفات غير المرئية، شاذة او مقصودة او عفوية، والكل يحاول التغطية على عيوبه، لئلا يصيبه مكروه او حسد او غيظ او يطمع به الغير، والغير يغطون على حسناتك احيانا، فحين يفعل البعض خيرا او عملا نافعا او مفيدا او فعل خير، يحاول بعضهم شطب ذلك، او التقليل منهأيضا بفعل الحسد، وفي أحايين أخرى فاعل الخير والمعروف يغطي على فعله، حتى لا يواجه صعوبات الطمع والحسد واللؤم والطيش والاغتصاب والسرقة والنهب.

تحس أم مسامح بشيء من إرهاق، تسعل قليلا، وتضع يدها اليمنى على اعلى صدرها من ا لجهة اليسرى، وبعد أن تهدأ نوبة السعال، تقول:

- ضاق صدري، وأحس ان قلبي يكاد ينفجر، ضعضعته السنون وطول العمر، لم يقتصر الأمر على متاعب الشيخوخة، بل اعاني الكثير من الكبت والحرمان والأسى والندم على مافات عبر هذا العمر، فلو أردت أن أحصي الدقائق التي أحسست بها كإنسانة تعيش بشكل طبيعي، لوجدتها نادرة وقليلة، وقد لا تساوي في مجموعها دقائق الساعة الواحدة، الحياة هي غير ما ترى، الحياة لغز، الحياة تشكيل برسم عشوائي مختلط الألوان والانبعاجات والخيالات، ألم يصدف ان توقفت امام لوحة فنية تشكيلية حديثة؟ الحياة هي كذلك، تداخل الوان واشكال وخيوط، لا ترى شكلا كاملا، ولا كلاما واضجا، ولا موقفا مفهوما بشكل كامل، بل هي حدس وتقدير يختلط تقسيره مع ما مر بالإنسان من معرفة وخبرة وأمان.

وإن كان لي أن أضيف أكثر من ذلك. فإن هذه المرأة البسيطة ترى ان التعبير الأمين عن أسرار الحياة، سواء في حالة النجاح، أو في حالة الفشل، يكاد يكون عصيا على الوصف، والأسهل منه هو وصف المرارة والخذلان والمصاعب، ولا تسألني عن ناس التاريخ، فكل جيل له همومه ومصالحه، وكل تاريخ له اهتماماته وتصرفاته، وهزائمه وانتصاراته، إن وجدت انتصارات، لكنني كثيرا ما أسمع أن ما يميز التاريخ العربي في القرون السبعة الأخيرة، هو الهزائم والتشتت والخوف والقلق والموت والملاحقة، والهموم تتوالد منها هموم ومشاكل تتفرع عنها، ينشغل الناس بالهموم الكبرى، مثل التهجير القسري فتتهيأ الظروف للمتسلطين والظالمين والطامعين ويتحكمون في رقاب الشعب، يتشددون او يتراخون كلما كان ذلك لصالحهم، فيزداد انتشار الظلم والفوضى والدكتاتورية والفساد، مما يجعل الناس ينشغلون بالفروع وينسون أصول الظواهر وجذورها، وما تتطلبه الحياة، وأغلب الآمال ما هي إلا وهم نفسي قد يتحقق جزء منه، ولكن الأكثر هو ان لا يتحقق منه شيء في دنيا العرب، قد تجد نفسك تتقدم خطوة او خطوات بسيطة، لكنك تكتشف بعدها انك تخلفت جدا عن المعقول والمأمول، او ازددت تيها وتضليلا.

**الفصـــــــــــــــل الرابع والثلاثون**

ملاقط

تعمدت زيارة المسجد بعد عصر ذلك اليوم، او قبل الغروب بنصف ساعة، فوجدت الشيخ يقرأ في كتاب كبير الحجم، أظنه في الأحاديث او السيرة النبوية الشريفة، سلمت عليه، وسألته إن كان ممكنا أن أسأله عن موضوع يشغل بالي، وضع ريشة طائر عند الصفحة التي كان يقرأ فيها، طوي الكتاب وأغلقه بتؤدة وهدوء، وهو يقول تفضلي يا ابنتي هاتي مالديك، شكرته ودعوت له بطول العمر والصحة، وأقدر انه كان في حوالي السبعين من العمر:

- يا سيدنا كيف نصل لرضاء الله بعدما اقترفنا من ذنوب؟

- يا بنتي إن الله غفور رحيم، نحن مسلمون، فإن كنا مؤمنين فإن الله سيغفر لنا في النهاية، حتى لو مررنا بمراحل من الغواية والذنوب، ولسنا كالكفار الذين تنكروا للإسلام والإيمان بالله، هؤلاء سيصلون عذابا شديدا ومقيما، اما المسلم، فيحاسب على قدر ذنوبه.

- لكن يا شيخنا ليست كل الذنوب والخطايا مثل بعضها،

- أراك قلقة يا بنتي، ماذا فعلت في حياتك؟

- والله يا شيخ ما صار معي على الرغم عني وليس برغبتي ولا بسعيي..

- اسمعي يا ابنة الأكرمين، السيئات والمنكرات التي نقوم بها مكرهين لا يحاسبنا الله عليها، لكن حين نفعل خطايا بقصد وبنية وبرغبة مسبقة، هذه هي الخطايا التي نحاسب عليها حسابا دقيقا..

- لكن يا شيخنا، ارى أن الإنسان ينسى الإيمان والمنهي عنه حين يقع تحت سلطة شيطان بشري؟

- أسئلتك كثيرة ويظهر أن حكايتك طويلة يا ابنتي، تعالي لي في وقت أكون فيه مرتاحا وليس قرب حلول وقت الصلاة..

ظلّ السؤال الذي يثيرني، ويجعلني أبحث عن الدواعي التي تجعلنا نخطئ، أو نخالف المسموح أو هو التابو، فهل كانت الفلوس فعلا هي المؤثر على نفسيتي أو هو فنون الإنسان كمريبط بذكائه وفطنته مثلا ولطف حركاته وعنفوانها، أو الأهل أو الحاجة أو الحرية، أو عدم الرقابة، كل تلك العوامل تحيرني، وأنا الآن في أواخر العمر، وأبحث عن تبرئة تريحني، فهل فعلا كان سبب مساهمتي في مخالفة أنظمة أهلي هو إعجابي بذلك الإنسان البدوي البسيط أو غيره في الكويت مثلا؟، أو الشاب المغترب الذي حضر لزيارة عمتي؟ مع ان مريبط كان بشع الخلقة، لكنه رجل بكل المعاني والصفات الأخلاقية والنفسية والذكاء، وشجاعته وبلباقة هي التي وافقت هواي، ودليل ذلك محافظته على استمرار علاقة بريئة نظيفة بعد شيخوختنا، فلم يختف ويندم، لا بل ظل يبحث عني حتى اكتشف موقعي، وصار يزورني كصديق حميم وكاخ، لامبتغى له في جسدي، بل ظل حافظا صدق تعاملي معه، ولشدة ذكائه أدرك بفطرته ذلك العشق الحميم الذي غرسه فيّ، ولم يصدف أن استطعت أن اعبر له بكلمة عن ذلك التعلق، لكنه عاشه ومتعنا بعضنا بنظرات رضا، ورسائل مشفرة متبادلة بلا كلام ولا لغة، ورافق ذلك شعوري برغبة الخروج من عالم الظلم الذي مرّ بي، سواء في طفولتي ومراهقتي وبعد تزويجي من ابن عمي الأهبل، وذاك صراع ظل يلاحقني حتى هذه اللحظة، شعور بالذنب بعد كل مرة، ولكم عاتبت نفسي وأنّبتها لأنني استسلمت له ورخصت، وبرغم بساطتي ونقص ثقافتي إلا من متابعاتي للمسلسلات الاجتماعية يظهر لي أحيانا أن المال حارق للمبادئ والأخلاق دائماً، أو لأنني عشت عمراً فوضويا، لايعكس حياة معظم الناس، وأكثر ما كان يشقيني ويعذبني أن يعرف والدي أو إحدى إخواني عن مغادرة المنزل للقاء شخص غريب مثلا.

ورغبتي الملحة في محاولة تبرئة نفسي، يخطر ببالي طفولتي في بيتنا الطيني الصغير ضمن مخيم اللاجئين الفلسطينيين، حيث كنا ننام على الأرض بفراش بسيط غير سميك، وبرغم دفء منطقة الغور شتاء.

لكن يصبح الجو باردا أحيانا في الليل، فيلتصق أفراد الأسرة كلهم ببعضهم، بحثا عن دفء، وبالأخص أخي الأصغر مني بعام ونصف، اعتدت على التصاقه بي، وصرت اقربه واحتضنه وجها لوجه، او أتغاضي عن التصاقه بي من الخلف، أحس بكفتي يديه الاثنتين تندسان بين فخذيّ سواء كان خلفي او بالعكس امامي، أما حين نكون مواجهة فيستكين تماماً لاحتضاني له، وبدلال يمد كفتي يديه ويدسهما في صدري من فتحة الثوب، وأتحمله ولا أنفر منه، لأن الأيام والشهور طويلة، والسنوات كثيرة ونحن في عمر الطفولة، لا يخطر ببالي امر سيء او رغبة مقصودة، بل أشعر بأنني أحتمل برودة يدي اخي الأصغر، فأتحمله لكي يشعر بالدفء.

وامتدت السنون وبقينا على هذا الحال وحتى بعد ان دخلت سن المراهقة، وبدأ صدري يبرز، لم يغير عادته، ولأن جو الليل ظلام وهدوء والكل لا يعرف ما يحدث، بقيت لا أعارضه ولا أنفر منه، لأن ذلك اصبح مألوفا لي وعادة عنده، ولم أشأ أن أصدمه أو اخلق مشكلة تثير جميع أفراد العائلة، لمحني في أوقات اضع كفتي يدي بين ركبتي وفخذي، فأدخل يده مرة بين يدي، واعتاد ايضا على ذلك، ولا أتضايق، وظل الأمر كذلك حتى في شهور الصيف، وفي فراش النوم كل يوم، وربما كان يشعر بنوع من اختلاف الطعم، فصار يتعمق في كفتي يديه، بعد أن صار عمره عشر سنوات وما بعد ذلك، وأنا كنت متعودة على ا لحال، فلم أفكر في الأمر من ناحية سيئة، بل ظل الأمر روتينيا عاديا عفويا، حتى وإن امتد بأصابعه لأعلى فخذي من الداخل، بعدها اجذب يده، او أبتعد، ولا أسمح له بالتوصل لمصدر الإشعاع الحراري، فأسحب كفتيه وابعده بصمت ودون تعليق، فيدخلهما في صدري، ويحركهما، بدأت وقتها أحس برضا وقبول لحركاته، وأعتقد جازما انه لم يكن يقصد لذة له او شبقا منه، بل وجد ان صدر الفتاة مختلف عن صدر الولد، فظل يحرك اصابعه، وكأنه يكتشف هذا الفرق، دون أن يتاح له تأمله بعينيه، ودليل سذاجته وبساطة فكره.

صدف مرة وحاول ان يتقدم من صدري بحضور والدتي، ومد يده إلى فتحة فستاني ليفتحه اكثر ويتأمل صدري، فأبيت ان أسمح له، ولفتّ نظر والدتنا لتصرفه، فما كان من والدتي إلا أن أنبته وعاقبته بضربه بحذائها الخفيف على ظهره ومؤخرته، فخرس وتأدب وانتحى جانبا خجلا محروما، أشفقت عليه، واقتربت منه بعد خمس دقائق، ثم همست في أذنه، لا تحزن يا أخي، والدتنا تريدك ان تكون ولدا جيدا ومؤدبا، فقم العب مع نظرائك، لا تحزن سأحتضنك في الليل الطويل، ألا يكفيك؟

` في يوم جنّ جنوني، لأن والدتي رفضت السماح لي مرافقة أخي الأكبر مني إلى البحر الميت، ولارتباط أخي الأصغر بي، ألح على والدتي أن يرافق أخاه واخته للسباحة هناك، رفضت والدتي الفكرة، قائلة هؤلاء شباب واولاد، فكيف تذهبين مع اولاد، اتركيهم لوحدهم، وربما نذهب بصحبة والدك قريبا، إلا أنني ألححت عليها ونسيت ان عمري اثنتا عشرة سنة، وصرت اعلو وانزل، الح عليها بالسماح لي بمرافقة أخي، حتى لانت، ولكنها اوصت أخي بأن يهتم بي ولا يبتعد عني، حتى لا أغرق او يسخر الأولاد مني.

كانت شهور صيف، وزائرو البحر الميت قليلون من شدة الحر، لكنها فرصة الفقراء واللاجئين لأخذ حريتهم تقليدا وعلى حسب ظروفهم، ركبنا سيارة قلاب مع مجموعة قليلة من الشباب وكبار السن والأولاد والبنات.

نزل أخي الأكبر لماء البحر وصار يمشي في الماء قليلا قليلا، قال لنا سأجرب أن أنام فوق سطح الماء، كما أخبرنا المعلم، ((إن الإنسان يطفو على سطح ماء البحر الميت دون ان يحرك يديه او رجليه، ويمكنه أن يحمل معه كأساً من الشاي يشرب منها على هواه بأمان))، لم أصدق ما سمعت، فصار يحاول ويتقلب ويفشل، إلى ان شاهدناه يتمدد فوق الماء ويرخي نفسه كأنه على فراش وثير، نزل اخي الأصغر الثاني للماء، وأنا واقفة في الماء لما دون الركبة، انحني وابلل يدي، لا أدري كيف تحركت يدي واقتربت من عيني، فنزلت ماء البحر في عيني، وأحسست بحرقة شديدة، ولم استطع ان افتحها لدقائق، حاولت بكل الوسائل التحفيف من الحرقان، وللأسف كانت اطراف ثوبي قد تبللت، هجم اخي الأصغر فجأة محاولا القفر على ظهري، فتزحلقت وجلست في الماء، وغرقت ملابسي في الماء أسفل الخصر.

اقترب اخي الأكبر مني، وحاول مساعدتي، للوقوف، لكنني لم أقبل الوقوف وفضلت الجلوس في الماء حتى يسبح اخواي، ويتعبا، حاولت ان أذوق لحسة خفيفة من ماء البحر الميت، لأنهم قالوا ان ملوحته شديدة، ولا يطيقها الإنسان، فصرت أسعل وقاربت على القيء.

ذهب أخواي بعيدا وتركاني وكان بالقرب منا اولاد وبنات وشيوخ غير كثير، ربما لا يتجاوز عددالجميع سبعة إلى عشرة، صرت احاول أن أتمدد في الماء كما فعل اخواي، اتمدد واتقدم في الماء، حتى طفوت، طرطشت الماء على وجهي فعميت عيناي، وكدت أغرق، صرت اتخبط في البحر، فانزلق سروالي في الماء وأنا اطرطش، وأحاول الوقوف والثبات، ولم استطع استرجاعه، وحدت نفسي فجأة مكشوفة حتى خاصرتي، كان همي الابتعاد عن المنطقة العميقة لكي أستطيع الوقوف براحة، وكلما وقفت اسقط ثانية، فأحرك يدي عفويا كي لا أغرق، ولكن ثيابي الواسعة والخفيفة والمصنوعة من النايلون الخفيف، ظلت ملتفة حول خاصرتي، وجسمي الأسفل وعورتي ظاهرة، تقدم رجل كهل، وطلب شابين لمساعدته في إنقاذي، حضر أخي الأكبر مني، فخذبني من قبة فستاني فانزلق فستاني تمام عن جمسي كاملا، لم يكن صدري قد برز بشكل واضح بعد، إذ كنت في الثانية عشرة من عمري، لكن ولداً مراهقاً صار ينادي على الآخرين، يقول لهم تعالوا شوفوا البنت عارية، حتى إن أحدهم تظاهر بأنه سوف يرفعني من الماء، فوضع يده بين فخذي وصار يضغط، صرخت شاكية، ولكن هيهات أين ثوبي؟ انتبه أخي الأكبر لي، دفعني للأعلى بقوة، ودس فستاني حول رأسي، وجذبه للأسفل، وسألني، إن كنت حضرت بلا سروال؟ فقلت له انزلق لأنه واسع، واختفى في الماء، فدفعني ثانية بعنف ولكن بحنية، حتى وصلت للشاطئ، ولحسن الحظ ان الجو كان مايزال قرب العصر، بقيت واقفة لأكثر من ساعتين حتى تجف ملابسي، وأخواي يلعبان مع غيرهما من الشباب، ولكننا اضطررنا للعودة للبيت قبل الغروب، وثوبي أصبح كأنه من الورق المقوى بسبب جفافه وترسب الملح الثقيل عليه، مع اننا كنا ننوي ان نأكل طعامنا الذي حملناه معنا قرب شاطئ البحر، وفي تلك الليلة المقمرة، وأثناء عودتنا جالسين على ارضية حوض القلاب، اضطجع أخي الأصغر على فخذي وفي حضني، وبدون أن يدري وجد يده تتسلل للفخذين الذين كانا بلا سروال، لا يفعل شيئا ولا يكثر من حركة أصابعه، بل تتخدر يده، وينسى امرها، لكن إحساسي ظل راضيا بحكم التعود، وكأنه امر عادي مادام ان الاخرين لا ينتبهون.

**الفصل الأخير :الخامس والثلاثون**

حتى يأتي الفجر، لا يستطيع هذا اللسان ان يتكلم

الحياة قاعة واسعة لها بابان، باب لبدء الحياة والدخول للقاعة، والباب الآخر هو باب للخروج والانتهاء، وتختلف حياة كل إنسان عن الآخر، بما يضعه في تلك القاعة من إنجازات أو تأثيث للحياة، والمطلوب أن تضع بين البابين أشياء نافعة.

نفسي ملتاعة وعقلي مضطرب، تقول ام مسامح، بينما يداها تعبثان بورقة مهملة صغيرة بين أصابعها، تقوم بثنيها ثم إعادة فتحها، وتارة تقطع قليلا منها، ثم تكمل أم مسامح قائلة،

ساقاي تزدادان ارتخاء وضعفاً، كأنني لا أقوى على الوقوف، إنني أقاوم تيار الانكسار، كنا أنا وجميع اسرتي في طفولتي ننظر لغد أفضل دائما، برغم بدائية المأوى ومحدودية الأشياء، وكمهاجرين محصورين، فتحت عيني ووجدت أسرتي تتمتع بروح صلبة، تتوقع الأحسن والأفضل كل يوم، كنا نحس أننا نتحسن كل يوم، بفضل كفاح والدي ووالدتي، وإصرارهما على إثبات وجودنا في عالم المخيم، وكنا نحن الأبناء والبنات لا نشكو ولا نمل من الحصر والاغتراب، إذ أن والدينا والناس من حولنا كلهم أمل، برغم الغم والهموم، والشعور بالضياع والخديعة والخيانة، إلا اننا ونحن اطفال ثم وفي سن الشباب ظل شعورنا معلقا بأمل العودة لفردوسنا المفقود فلسطين، بفضل مشاعر الصبر والمناعة التي شحنونا بها، فوالدي برغم شدته وقسوته أحيانا، إلا أنه يملك قلبا كبيرا، وطموحاته لاحدود لها، وبفضل إصراره على التقدم والنماء، تمكن بعد كفاح السنوات الطويلة من شراء ارض في موقع جميل في عمان، وللأسف بعد أن بدأت تهاجمه الأمراض والشيخوخة أي بعد أن عاش شبابه وكهولته مكافحا صابرا مرهقا.

بنى والدي بناية متوسطة بأربع شقق على طابقين،له ولأسرته الكبيرة، حتى يضمن بقاء اخواني مع أسرهم بجواره في عمان.

حين وجدنا أنفسنا في دنيا المخيم محدود المساحات ومع غيرنا من الآلاف، لم نقعد للنعي او البكاء على الذكريات والحداد على فقدانها، بل دأبنا على التعرف على بعض ، والاستماع لقصص كل مهاجر مثلنا، وهذا دفعنا على مداومة الحلم بعالم حر واسع مستقبلا وحياة نظيفة آمنة، وأصررنا على ترديد أننا سنعود يوما إلى حينا، وبيوتنا ومرابع أهلنا الأصلية، فكنا ننام بهدوء بعد العشاء على مثل هذه الأحلام والآمال، ونصحو مبكرين على أمل ان نتناول فطورنا سويا ومعا، نشرب الشاي ونأكل الجبن والزعتر وزيت الزيتون، لا يلزم ان نشتري الزعتر ولا البيض، لأن والدتي اقتنت عشر دجاجات، وديكا فالحاً نطاطاً.

زرعنا الزعتر في المربع الصغير الذي لاتتجاوز مساحته مترا في ثلاثة امتار بجانب بيتنا الطيني في المخيم، صرنا نحب بيتنا الطيني الصغير، ونحب بعضنا وجيراننا وجميع سكان مخيمنا، نتعارف ونتشاكى ونتقارب كل يوم، نمرح ونسرح مع أمهاتنا وأخواتنا وإخواننا، ونحاول اضحاكهم وتسرية همومهم، وحين يحضر والدنا مساء، نتأدب ونراقب عين الرضا في وجهه، وهو يطلب عشاءه ويتناوله بهدوء وشهية وقناعة، مع أنه خالي من اللحم، ومعظم وجبات الطعام للعائلة كانت من الخضار، التي ترزع بكثرة حول نهر الأردن والغور، وملامح والدي تنطق بإحساسه بسعادة، لأن له زوجة وأطفال اولاد وبنات، ينتظرونه ويخدمونه بطرق مختلفة، وكل همنا إرضاؤه وجعله يحسّ بمساهمة جميع الأسرة في إراحته، لتقول له شكرا يا والدنا، على كل ما تفعله لنا، فهو الذي يعمل لحمايتنا ورعايتنا حتى في أضيق الظروف وأصعبها، وغالباً ماكنا ننتظر اي فرصة تلوح، لكي نجعله يبتسم او يبش لنا او لنفسه او لوالدتنا.

عشنا على الأمل والمحبة، وفي نفوسنا الكثير من الوصايا والخطط الطفولية والجادة احيانا، أحسسنا ان الحياة مع العائلة هي جنة في جو التوافق والانسجام والتعايش، لكم شعرنا بأننا وجدنا أننا نستطيع ان نعمر المخيم والمنطقة بنشاطاتنا وتعاوننا ومحبتنا لأسرتنا ولجيراننا، لكننا ما إن بدأنا نكبر حتى بدات الحياة تواجهنا بعبوسها، وبمصاعبها ومستحيلاتها.

حتى وأثناء وجودي زوجة لابن عمي الساذج ، وبعد عمر 25 سنة بدأت بالتفكير في مواصفات الرجل الذي يناسبني، وقبلها بصراحة كنت مثل سيارة تكسي، لا تملك عقلا، ولا تعرف أي اتجاه تسير، بل لا بد أن يوجهها احد ما، لم أكن أملك لنفسي فكرا محدداً، بل أعيش لمجرد العيش، وسواء كنت مراهقة او صبية او متزوجة او مطلقة، بقيت بلا هدف في الحياة، لأنني كنت بلا مستمع أو رعية ولا حماة يتفهمون متطلبات الحياة، لا بل إن الظروف كانت كلها تدفعني لتمثيل دور التكسي، يقودني سائق مهما تغير أو تبدل.

اجوس فيافي الحياة، وظلمات الجهل، وأتوقف في محطات بائسة متباعدة خالية من الشموس النقية، أظل باحثة عن منقذ، كلما وجدت نفسي في ضياع وفراغ لا حدود له، هذا العقل لا يعترف بأن المدرسة وحدها هي التي تبني الفكر، بل الفكر نفسه والتقاليد هي التي تجعلك تتخذ قرارات المقاومة او الاستسلام او التصرفات الإيجابية أو السلبية.

فمن خلال تجاربي وعلاقاتي التي نبعت من داخلي او تلك التي فرضت عليّ، أكسبتني خيوطا من تأمل وتفكر وتمعن، أسئلة كثيرة صارت تتوارد إلى ذهني، ودون معلمة او موجه، كسبت بعض المعارف والمناعة، علمتني الأحداث الكثيرة التي مارستها مكرهة او برضاي، وزادتني إيمانا وثقة بأن الإنسان هو معمل للتجارب، وكما قلت سابقا، لا يوجد إنسان يطابق إنسانا آخر في أفكاره وآماله وعقده النفسية، وما يرضيه وما يسيء له، ومع هذا اكتشفت ايضا أن عنصر الفساد والقسوة والجهل هي السائد في بلاد العرب، ولأكن أكثر دقة في البيئات التي عشت فيها وترعرعت، وبعد تتبعي للأخبار والأحداث في البلاد العربية على مدى اكثر من خمسين عاما، سواء في الأخبار او الأفلام او المسلسلات، عافت نفسي الرجال ككل، ولو انني أعترف ان أي إنسان رجلا كان او امرأة لايستطيب الحياة بدون الآخر، فالمرأة بحاجة للرجل، والعكس صحيح، لكن تراثنا وعادات أهلي وشعبي، مبنية على فساد الفكرة، ويتم التطبيق عكس ما أراد الله والدين والحياة السوية والطبيعية، فالدين يدعونا إلى فضيلة الأخلاق، والهدف من التدين هو الحرص على النظام والعدالة، والطقوس كلها هي لتدريب الإنسان لكي يعتاد على النظام وتحمل المسئولية ويقظة الضمير، لكن الرجل المتسلط أساء للدين وللأخلاق، فتعامل مع المرأة كأنها عبد او جارية او أسيرة، والمرأة وعت نفسها في عالم ظالم يقوده نظام ظالم، يقف مع رغبات الرجل ومصالحه، ودخل في روعهم أن المرأة خائنة وغير شريفة، ولا يمنعها من الخيانة وسوء السمعة إلا تخويفها وإضعافها ووضعها تحت الرقابة والشك الدائم، والمنزل هو سجن للمرأة وليس مكانا للحرية ولا للانطلاق بدروب الحياة والفكر والعمل، وبعد كل ما مر بي من جهل وتحكم، فإنني أعلن رفضي المطلق أن يستغل الآخرون جسدي بعد اليوم، وقد بلغت الستين قبل شهور قليلة.

أحمد الله أنني لم أرزق بأطفال كثيرين في سنوات زواجي من ابن عمي، لم آخذ موانع، بل كان أهل زوجي وأهلي يحاولون تطبيبي وعلاجي بالسحر والشعوذة، على أمل أن يصير حمل آخر، فكل الناس أيامها كان همهم الإنجاب والإكثار، وحينما وعيت على نفسي متأخرة، لم أعد أطيق العيش مع ابن عمي، ربما كان هذا سببا مقنعا لوالدي لاتخاذ قراره الحاسم، ولأن ابننا كان معوقاّ جسديا، ولا يستطيع الوقوف ولا المشي، فاقتنع أهلي بأن شيخوختي ستكون تعيسة، وحسب التراث العربي والعادات، فإن المرأة العجوز يعيلها أبناؤها، ابن او ابنة في سنوات شيخوختها، والأب كذلك، لأن الحياة في بلادنا ومعظم بلاد العرب، ليست منظمة مثل بلاد الأجانب، لا بل تقضي المرأة طول عمرها بلا دخل ولا وظيفة وبالتالي بلا تقاعد، أعني المرأة الأمية أوقليلة التعليم، مع ان كل إنسان في بلاد الأجانب له مجال ليعمل فيه، ليحصل على دخل يكفيه بنفسه، او يضمن راتب تقاعد له او لها عند التقاعد والمرض والشيخوخة.

لم أكن أكره ابن عمي، فقد اعتدت على وجوده في حياتي منذ طفولتنا، لعبنا مع بعض وأكلنا مع بعض، وربما نمنا في غرفة واحدة أحيانا كأنه واحد من إخواني، لكن وعيت وفكرت بقادم الأيام، وأحمد الله أن أعطاني العقل والقليل من الفطنة لأعرف ما يضرني وما ينفعني، وحياة المخيم والتهجير تعلم المخلوقات كيف يتغلبون على مشاكل الحياة بأساليب تناسب قدرات الفرد العقلية والجسدية.

بعد وفاة زوجي درويش صرت أشتاق أن تزورني ابنتي مرة كل شهر، إذ تمكث يوماً او يومين مع حفيدي ابنها، فكان البيت يضج بلقائه مع أطفال ابني مسامح الثلاثة، وتكلفني زيارتهم الكثير الكثير من المال، على أمل أن أعوضهم او الفت نظر احفادي إلى وجودي، وليعرفوا انني احبهم، ولكي يبادلونني بحب مثله، فنسعد انا وابني وأحفادي بوجودها مع ابنها معنا، يشاركوننا الطعام والمنام والأوقات، صرت افتخر بابنتي من ابن عمي، ومن ذكائها وفطنتها، ولحسن حظها أن مدرسة البنات التابعة لوكالة غوث اللاجئين، كانت قريبة من بيت والدها، فدرست حتى الصف الثالث الإعدادي، وكانت من البنات المجتهدات، بعدها كان عليها الانتقال لمدرسة ثانوية بعيدة عن بيتها، فلم تواصل الدراسة لصعوبة وصول المدرسة، وأسباب اخرى اقتصادية، لكن ابنتي ورثت الكثير من صفاتي، كجمال الوجه والطلعة والجسم الجاذب، خاصة وأنها طويلة مثلي، ومثل معظم عائلة اهلي في الطول، وتم تزويجها في سن مبكرة، وربما كان ذلك للتخلص من تحمل مسئولياتها، الفقر يجلب الفقر، والجهل يثمر الضعف والمهانة والجهل، ومع هذا فهاهي تعيش حياة مستورة لا تحتاج إلا الكماليات، فزوجها يعمل سائق سيارة تكسي اشتراه بعد سنوات طويلة في عمله في قيادة سيارة شاحنة للآخرين، ويستطيع توفير أساسيات الحياة لأسرته، لم أكن يوما في موقف مريح لكي اساعدها في معيشتها بشكل جدي، إلا أنني كنت أشتري لابنها بعض الملابس او الألعاب، لأن حياتي مركزة على الاهتمام بابني وبأطفاله الذين أعيش معهم، ادلل حفيدي من ابني كما كنت ادلل والده في طفولته، ولأنني انا وابني وزوجته نسكن في شقة واسعة فكانت ابنتي وطفلها تسعد معنا حين تزورنا، ولكم اشتكت لي من ضيق سكنها الصغير، والمكون من غرفة واحدة ومطبخ بجوارها، ولا تملك غسالة تغسل بها ملابسها وملابس زوجها وابنها، بل بيديها تقوم بذلك، وتنشر غسيلها على حبل امام غرفتها حين يكون الجو مشمساً وطول شهور الصيف، اما في الشتاء فمشكلتهم كبيرة، ونادرا ما تقوم بغسل ملابس أسرتها، وحين تزورنا تحضر معها جميع ملابسهم المتسخة تغسلها وتجففها في البيت عندنا.

إن ما يخطر ببالي بعد كل هذه السنين، أنني نجحت في بناء اكثر من اسرة ناجحة في الحياة، فاعتبر ابني مواطنا اردنيا كمعظم الناس، صحيح انه لم يدرس في الجامعة، لكنه يستطيع العيش كأي مواطن مجتهد آخر دون حاجة للدعم او المسألة، ثم ابنتي من ابن عمي تزوجت وتعيش حياة كفاح معقولة وفوق خط الفقر، وابنتي من المرحوم زوجي درويش تزوجت شابا أردني الأصل، وابن عشيرة جيدة، ناجح وموفق في حياته، كافح وبنى مستقبلا لأسرته وصار يملك بيتا مستقلا له في عمان.

هذا الشعور يجعلني احس بانتصار ما، وكاني شجرة لها فروع تزهر وتثمر وتعمر وتظلل غيرها من الإنس والطير والنباتات الأخرى. وتحمل الكثير من الثمار والأوراق والأزهار في أوقات مختلفة، وإن ما يضيف لإنجازاتي نجاح تربيتي لأطفال زوجي درويش رحمه الله، فقد أفرغت مشاعر الأمومة الصادقة عليهم اثناء تربيتهم في طفولتهم، صحيح أنني صرت ألاحظ الان أنني لم أعاملهم كاهتمامي بابني الوحيد، لكن لم أكن ظالمة ولا قاسية عليهم، حرصت أن يكونوا بتربية جيدة ، وفي الوقت نفسه ليعملوا على تطوير شخصياتهم بأنفسهم وحسب ظروف الحياة التي عشناها معاً في الغربة الثالثة في الكويت، وهاهم ناجحون كلهم، والناس المتعلمون العارفون يقدرون اثر التربية على شخصية الطفل ومستقبله، وأحمد الله واتباهى بتربيتي لهم وبنجاحاتهم، على الرغم من انشغالهم وتوقفهم عن مساعدتي بعد وفاة والدهم، بل قبل ذلك من بعضهم، ولا ألومهم لأن عليهم التزامات تجاه أنفسهم واسر من تزوج منهم.

والان يحق لي أن أتساءل بيني وبين نفسي، ومع كل من عرف حكايتي، هل ما زالت المرأة العربية مثل كرة القدم؟ أو مثل الكرة الأرضية التي تحمل كل مكونات الحياة والموت والألم والإزهار والماء المتدفق والهادئ والهائج، وهل عليها أن تواصل خلق البهجة والمتعة؟أو ان هذه الأخيرة هي من طبيعتها ووظيفتها؟؟

أحس بتعب مضن وإرهاق محير، لكثرة ما شاهدت من مسلسلات تلفزيونية وأفلام في حياتي، فهل ستكون حياتي فيلما سينمائيا يوما ما؟. تتثاءب أم مسامح ويبدو عليها الإرهاق والمرض، تنظر للنافذة فترى أن الشمس تميل غربا، والساعة تقارب الرابعة مساء، تتراخي وتميل على الطرحة التي تجلس عليها في ركن من صالون التوزيع بين الغرف، حدثت نفسها بأنها بحاجة إلى قيلولة أوإغفاءة لساعة او أقل.

سمعنا وعوداً وتهديدات من بعض الحكام العرب انهم سيناصرون القضية الفلسطينية، فسررت وأخبرت ابني في طفولته اننا سنعود إن شاء الله لبلادنا، وهناك تربي ابناءك على حب الأرض، وتعمر وإياهم بيتا جديدا بدل البيت الذي تركه أهل ابيك في بلدتهم. ولأننا نحمل الجنسية الأردنية، أجابنا بعضهم:

- أنت أردني ولست فلسطينيا، الفلسطيني يعيش على أرض فلسطين، فإذا كنت تصر على انك فلسطيني، فيمكنك الذهاب إلى بلدك،لكنني سمعت فلسطينيا في أكثر من مناسبة يرد قائلا:

- مادام أناأردني فلماذا نجد أننامحرومون من المساواة مع المواطنين الأصلاء؟ فييجيبه آخر

- (الرحمة لا تجوز على الخاسرين في المعارك).

سكوت من كلا الطرفين، مع تنهدات وانحراف نظرات.

وجدت أنه لم يبق لي من نشاط في هذه الحياة إلا العبادة والعمرة والحج، وسهلها الله أن حججت بيت الله مرتين، وأديت العمرة مرتين، على أمل ان كل ما أقوم به من طاعة وعبادة يشفع لي عند الله يوم القيامة. ويريحني نفسياً، وعلى أمل ان يعيد الاستقرار لنفسي والرضا، نعم صرت أحس بنوع من الراحة والرضا عن نفسي، بعد ان استقر سلوكي على الطهر، وعمل الخير ما استطعت، لكل من يحتاج مساعدة استطيع تقديمها.

ولكن خلاصة مااستفدته عبر العقود الماضية، ان الحياة تستحق الاجتهاد والعمل، والحياة مليئة بالخير والسعادة إذا عملنا بإخلاص عليهما، وسنكتشف ايضا، ان هناك الكثيرين مثلنا، ومنهم بحاجة للدعم المعنوي.

المفـــاجـــأة

الغموض كان نهاية هذه الأسطورة بسبب ظهورجائحة كورونا، فهذا الوباء اللعين أضاع علينا آثار الراوي العليم والمرأة الغريبة المتلبسة بشخوص وجنسيات لم نلمسها، دوختنا ونحن نحاول الاقتراب منها والتعرف عليها، فهذا المرض كوفيد-19 خلط الأمور على الجميع، فأضاع آثار كل من تعلق بتلك المرأة العجيبة، وكل من عرفنا، او قرأنا عنهم او تعاملوا معها، وهنا لا نجد ما نقوله أكثر من ذلك.

لهذا أعتذر بكل أسف للقارء الكريم على عدم اكتمال هذه السيرة المثيرة، وقد تسميها ماشئت وبصورة كبيرة او صغيرة، فناقل خبر اختفاء معالم هذه السيدة النادرة وكل ما تعلق بها يجعل الناقل للخبر محتارا أكثر من الراوي العليم او أي قارئ آخر للخبر المفجع، الذي سيترك آثاره علينا لسنين وربما لعقود آتية، وربما يكون في الأمر فجيعة مروعة بالنسبة لبعضهم، ولا أدري هل تشاركني الرأي أو لك كلام آخر عزيزي القارئ.